مطبوعات مكتبة مصر

كفاح طيبة

تاليف

كتب عربى

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة

سعيد جودة السحار وشركاه

كفاح طيبة

سيكننرع

١

كانت السفينة تصعد فى النهر المقدس ، ويشق مقدمها المتوج بصورة اللوتس الأمواج الهادئة الجليلة ، يحث بعضها بعضا منذ القدم كأنها حادثات الدهر فى قافلة الزمان ، بين شاطئين انتثرت على أديمهما القرى ، وانطلق النخل جماعات ووحدانا ، وترامت الخضرة شرقا وغربا ، وكانت الشمس تعتلى كبد السماء ترسل أسلاكا من النور إذا غمر النبت رف رفيفا ، وإذا مس الماء تلألأ لألاء ، وقد خلا سطح الماء إلا من بعض زوارق صيد جعل أصحابها يوسعون للسفينة الكبيرة وهم يرمقون صورة اللوتس رمز الشمال بعين التساؤل والإنكار .

وكان يتصدر المقصورة رجل بدين قصير القامة ، مستدير الوجه ، طويل اللحية ، أبيض البشرة ، يرتدى معطفا فضفاضا ويقبض بيمناه على عصا غليظة ذات مقبض ذهبى ، جلس بين يديه رجلان فى مثل بدانته وزيه ، تدانى بينهم جميعا روح واحدة ، وكان السيد يطيل النظر إلى الجنوب بعينين مظلمتين أضناهما الملل والتعب ويلقى على من يصادفه من الصيادين نظرة شرزاء . وكأنه برم بالصمت فتحول إلى رجليه وتساءل قائلا :

— ترى هل ينفخ غدا فى الصور فيتبدد هذا السلام الثقيل المخيم على ربوع الجنوب ، وتفزع هذه الدور المطمئنة ، ويحلق نسر الحرب فى هذا الجو الآمن ؟.. آه .. ليت هؤلاء الرجال يعلمون أى نذير تحمل هذه السفينة لهم ولسيدهم ..

فهز الرجلان رأسيهما موافقة على كلام السيد وقال أحدهما :

ـــ لتكن حرب أيها الحاجب الأكبر ، ما دام هذا الرجل الذى ارتضاه مولانا حاكما على الجنوب يأبى إلا أن يضع على رأسه تاجا كالملوك ويبنى القصور كالفراعين ، ويسير فى طيبة مرحا لا يبالى شيئا .

فجعل الحاجب يصرف بأنيابه ، وعبث بعصاه فيما بين قدميه بحركة تدل على الحنق والغيظ وقال :

ـــ لا يوجد حاكم مصرى سوى حاكم إقليم طيبة هذا ، فإذا تخلصنا منه خلص لنا حكم مصر إلى الأبد ، وبات مولانا الملك على طمأنينة لا يخشى تمرد أحد عليه .

قال ثانى الرجلين بحماس ، وكان لا ييئس أبدا من أن يصير يوما حاكما لمدينة عظيمة :

ـــ إن هؤلاء المصريين يكرهوننا ..

فأمن الحاجب الأكبر على رأيه وقال بلهجة عنيفة :

ـــ نعم .. نعم .. وأهل منف أنفسهم عاصمة مملكة مولانا الملك يظهرون الطاعة ويضمرون الكراهية .. لقد نفدت الحيل ولا حيلة الآن سوى السوط والسيف ..

فابتسم الرجلان أول مرة ، وقال ثانيهما أيضا :

ـــ بورك رأيك أيها الحاجب الحكيم ، فإن السوط وسيلة التفاهم التى لا تجدى سواها مع المصريين ..

ولاذ الرجال الثلاثة بالصمت برهة ، فما يسمع إلا وقع المجاديف على سطح الماء ، ثم لاحت من أحدهم التفاتة إلى زورق صيد يقف فى وسطه فتى مفتول الساعدين ، عارى الجسد إلا من وزرة تغطى وسطه ، وقد لفحت الشمس بشرته ، فقال بتعجب :

ـــ كأن هؤلاء الجنوبيين مشتقون من صميم أرضهم ..

فقال الحاجب بسخرية:

— لا تعجب فإن من شعرائهم من يتغنى بسمرة اللون ..

— حقا .. إن لونهم ولوننا كالطين والشعاع السنى ..

قال الحاجب :

— حدثنى بعض رجالنا عن هؤلاء الجنوبيين فقال : إنهم على لونهم وغريهم ذوو صلف وكبرياء ، وإنهم يزعمون أنهم منحدرون من أصلاب الآلهة ، وإن بلادهم منبت الفراعنة الحقيقيين .. رباه .. إنى أعرف الدواء لكل هذا .. لا ينقص إلا أن تمتد ذراعنا إلى حدود بلادهم .

وما انتهى الحاجب من كلامه حتى سمع أحد رجليه يقول ، وهو يشير بأصبعه إلى الشرق :

— انظر .. أترى طيبة ؟ هذه طيبة !..

فنظروا جميعا إلى حيث يشير الرجل ، فرأوا مدينة كبيرة يحيط بها سور عظيم ، بدت خلفه رءوس المسلات عالية كأنها عمد ترفع القبة السماوية ، ورئيت فى ناحيتها الشمالية جدران معبد آمون الشاهقة ، رب الجنود المعبود . فما وقعت العين فيها إلا على مارد عظيم يتعالى إلى السماء ، فأخذ الرجال ، وقطب الحاجب الأكبر وتمتم قائلا :

— نعم .. هذه طيبة .. وقد أتيحت لى رؤيتها من قبل . وما أزداد على الأيام إلا رغبة فى أن تعنو الهام لمولانا الملك ، وأن أرى موكبه الظافر يشق شوارعها .

فقال أحد الرجلين :

— وأن يعبد بها ربنا ست المعبود ..

وخففت السفينة من سرعتها ، ومضت تدنو من الشاطىء رويدا رويدا مجتازة الحدائق الغن ، التى تنحدر مدرجاتها المعشوشبة حتى تسقى من النهر المقدس . وقد لاحت وراءها قصور طيبة الشم ، وأما غربى الشاطىء الآخر ، فتجثم مدينة الأبدية ، حيث يرقد الخالدون فى الأهرام والمصاطب والمقابر ، تغشاهم جميعا وحشة الموت ..

وتوجهت السفينة إلى ميناء طيبة ، تشق سبيلها بين زوارق الصيد والسفن التجارية ، وتجذب نحوها الأنظار لضخامتها وجمالها ، وصورة اللوتس التي تزين مقدمها ، حتى حاذت الرصيف ، فألقت كلابها الضخم ، وقصد إليها بعض الحراس ، وانتقل إليها ضابط يرتدى فوق وزرته سترة من الكتان الأبيض . وسأل أحد رجالها قائلا :

ـــ من أين انحدرت هذه السفينة ؟.. وهل تحملون تجارة ؟..

فحياه الرجل ، وقال « اتبعني » واصطحبه إلى المقصورة ، حيث أدرك الضابط أنه ماثل بين يدى حاجب كبير من حجاب قصر الشمال ، قصر ملك الرعاة كما يدعونه فى الجنوب ، فانحنى احتراما وأدى التحية العسكرية . ورفع الحاجب يده ليرد التحية فى صلف ظاهر وقال بلهجة متعالية :

ـــ أنا رسول فرعون ، ملك الشمال والجنوب ، ابن الرب ست ، مولانا أبو فيس ، إلى حاكم طيبة الأمير سيكننرع لأؤدى إليه ما حملته من البلاغ .

وأصغى الضابط إلى الرسول فى انتباه ثم أدى التحية مرة أخرى ومضى .

٢

ومضت ساعة من الزمان ، ثم جاء السفينة رجل وقور ، يميل إلى القصر ، بادى النحافة ، بارز الجبهة ، فانحنى انحناءة وقور للرسول ، وقال بصوت هادىء النبرات :

ـــ إن الذى يتشرف باستقبالك حور رئيس حجاب قصر الجنوب .

فحنى الرجل رأسه الفخم وقال بصوته الغليظ :

ـــ وأنا خيان كبير حجاب القصر الفرعونى .

فقال حور :

ـــ يسر مولاى أن يستقبلك فى الحال .

فأبدى الرسول حركة وقال : « هلم بنا » . وتقدمه الحاجب حور وتبعه الرجل يسير فى خطا وئيدة ، متوكئا بجسمه البدين على عصاه وقد انحنى له الرجلان إجلالا ، وشعر خيان بغضاضة وساءل نفسه بحنق : « أما كان ينبغى لسيكننرع أن يحضر بنفسه لاستقبال رسول أبو فيس ...؟ » وضايقه جد المضايقة أن يسلك الرجل فى استقباله سلوك الملوك . وغادرا السفينة بين صفين من الجند والضباط ، ورأى خيان على الشاطىء ركبا ملكيا فى انتظاره تتقدمه عجلات حربية وتتأخر عنه عجلات أخرى ، وأدى له الجند التحية ، فردها بكبرياء ، وركب عجلته وركب إلى جانبه حور ، ثم تحرك الموكب الصغير فى طريقه إلى قصر حاكم الجنوب ، وتحركت عينا خيان فى محجريهما ذات اليمين وذات الشمال تشاهدان المعابد والمسلات والتماثيل والسبل والقصور والأسواق وتيارات القوم التى لا تنقطع من جميع الطبقات : فالعامة بأجسامهم شبه العارية ، والضباط بمعاطفهم الأنيقة ، والكهنة بأثوابهم الطويلة ، والسراة

بعباءاتهم الفضفاضة ، والنساء بأزيائهن الجميلة ، فكأن كل شيء يشهد لعظمة المدينة ، وأنها تنافس منف نفسها عاصمة أبو فيس . وأدرك الرسول أول وهلة أن موكبه يلفت الأنظار بقوة.وأن الناس تتجمع على جوانب الطريق لمشاهدته ولكن فى برود وجمود ، وجعلت أعينهم السود تفحص وجهه الأبيض ولحيته الطويلة بغرابة وإنكار وامتعاض ، فشعر بثورة باطنية وغضب شديد لذاك الاستقبال البارد الذى منى به أبو فيس العظيم فى شخص رسوله ، وساءه أن يبدو غريبا فى طيبة بعد انقضاء مائتى عام على هبوط قومه أرض مصر وتربعهم على عرش ملكها .. وغاظه وأحنقه أن يحكم قومه مائتى عام يحتفظ الجنوب خلالها بشخصيته وطابعه واستقلاله فلا يبقى به رجل واحد من الهكسوس .

ثم بلغ الموكب ميدان القصر ، وكان ميدانا فسيحا مترامى الأركان ، تقام على جوانبه دور الحكومة والوزارات ومقر القيادة العليا للجيش ، ويبدو فى مكانه الوسيط القصر الجليل يبهر الأنظار مشهده الرائع ؛ كان قصرا عظيما كقصر منف نفسه ، وكان جنود الحرس يعتلون أسواره ، ويصطفون صفين لدى بابه الكبير ، فلما اجتازه موكب الرسول صدحت الموسيقى بنشيد التحية ، وفيما كان الموكب يقطع أرض الفناء كان خيان يسائل نفسه قائلا : هل يستقبلنى سيكننرع وعلى رأسه التاج الأبيض ؟ » .

إنه يعيش عيشة الملوك ويتبع سلوكهم ، ويتخذ لنفسه حكومة كحكوماتهم ، فهل يلبس تاج الجنوب أمامى ؟. هل يفعل ما أحجم عنه أجداده وما أحجم عنه أبوه نفسه سينكننرع ؟... وترجل الرسول عند مدخل ممر الأعمدة الطويل ، ووجد فى استقباله حجاب القصر ورئيس الحرس الفرعونى وكبار الضباط ، فأدوا له التحية جميعا ، وساروا بين يديه إلى بهو الاستقبال الفرعونى ، وكانت الردهة المؤدية إلى باب البهو مزينة الجانبين بتماثيل أبى الهول ، وفى أركانها يقف ضباط عمالقة من رجال هابو الأشداء . وانحنى الرجال للرسول وأوسعوا له ، فتقدمه الحاجب حور إلى داخل البهو وتبعه الرجل ، ورأى

فى صدر المكان على مسافة غير قريبة من المدخل عرشا فرعونيا يجلس عليه رجل متوج بتاج الجنوب وبيده الصولجان والعصا المعقوفة ، وإلى يمين عرشه يجلس رجلان وإلى شماله رجلان . وبلغ حور العرش يتبعه الرسول فانحنى لمولاه بإجلال ، وقال بصوته الرقيق :

— مولاى ، أقدم لذاتكم العالية الحاجب الأكبر خيان رسول الملك أبو فيس .

وانحنى عند ذاك الرسول تحية ، فرد الملك تحيته وأشار إليه فجلس على كرسى أمام العرش ، أما حور فقد وقف إلى يمين العرش . وأراد الملك أن يقدم إلى الرسول رجال مملكته فأومأ بصولجانه إلى الرجل الذى يلى يمينه وقال : « أوسر آمون رئيس الوزراء » ثم أشار إلى الذى يليه وقال : « نوفر آمون الكاهن الأكبر لآمون » ثم تحول إلى شماله وأومأ إلى من يليه قائلا : « كاف قائد الأسطول » وأشار إلى من يليه قائلا : « بيبى قائد الجيش » . ولما تم التعارف وجه الملك بصره إلى الرسول وقال بصوت تدل نبراته على السمو والرفعة الطبيعيتين :

— نزلت منزلا يرحب بشخصك وبمن أولاك ثقته .

فقال الرسول :

— حفظك الرب أيها الحاكم الجليل ، وإنى سعيد باختيارى لمهمة السفارة فى بلادكم الجميلة ذات الشهرة التاريخية ..

ولم يغب عن سمع الملك قوله : « الحاكم الجليل » ولا فاته مغزاها ، ولكن لم يبد على وجهه أى أثر لما اضطرب فى نفسه ، وكان خيان فى تلك اللحظة يلقى عليه نظرة سريعة فاحصة من عينيه الجاحظتين فرأى الحاكم المصرى رجلا مهيبا حقا ، طويل القامة ، مستطيل الوجه جميله ، شديد السمرة ، يميز ملامحه بروز فى أسنانه العليا ، وقد قدر له الحلقة الرابعة عمرا . وكان الملك يظن أن رسول أبو فيس جاء لما كانت تجىء به بعثات الشمال من أجله ، أى طلب الأحجار والجبوب ، وهو ما كان يعتبره ملوك الرعاة جزية ، ورآه ملوك طيبة رشوة

يكفون بها شر الغزاة ، فقال الملك بهدوئه وجلاله :

ـــ يسرنى أن أستمع إليك يا رسول أبو فيس العظيم .

فاعتدل الرسول فى جلسته كأنما يتوثب للنضال وقال بصوته الغليظ :

ـــ منذ مائتى عام لا تنقطع رسل الشمال عن ارتياد الجنوب ، وفى كل مرة تعود راضية .

فقال الملك :

ـــ أرجو أن تدوم هذه السنة الجميلة .

فقال خيان :

ـــ أيها الحاكم إنى أحمل إليك ثلاث رغبات فرعونية : تتعلق الأولى بشخص مولاى فرعون ، والثانية بربه المعبود ست ، والثالثة بروابط المودة بين الشمال والجنوب .

فألقى إليه الملك بانتباهه وقد بدا على وجهه الاهتمام . فاستدرك الرجل قائلا :

ـــ شكا مولاى الملك فى الأيام الأخيرة آلاما مروعة تهز أعصابه فى الليل ، وأصواتا منكرة تصك أذنيه الكريمتين مما أوقعه فريسة للسهاد والضنى، وقد دعا إليه أطباءه وقص عليهم ما يلقى بليله فتفحصوه بعناية ، ولكنهم عادوا جميعا من فحصه بالحيرة والجهل ، وكان الملك فى رأيهم جميعا سليما معافى . ولما يئس مولاى فرغ إلى نبى معبد ست، فأدرك الحكيم داءه، وقال له: إن مبعث آلامه جميعا أن خوار أفراس البحر الحبيسة بالجنوب يتسرب إلى قلبه ، وأكد له ألا شفاء له إلا بقتلها .

وكان الرسول يعلم أن الأفراس الحبيسة فى بركة طيبة مقدسة ، فاختلس نظرة إلى وجه الحاكم ليبلو أثر كلامه ، ولكنه وجده جامدا صلبا وإن تضرج بالاحمرار ، وانتظر أن يعلق الرجل على كلامه ، ولكنه لم ينبس بكلمة وبدا عليه الإصغاء والانتظار ، فقال الرسول :

ـــ وفى أثناء مرض مولاى رأى فيما يرى النائم ربنا المعبود ست يزوره بجلاله

ونورانيته ، وعقب عليه قائلا : أيجوز أن يخلو الجنوب كله من معبد يذكر فيه اسمى ؟. فأقسم مولاى أن يطلب إلى صديقه حاكم الجنوب أن يشيد فى طيبة معبدا لست إلى جانب معبد آمون ..

وسكت الرسول ولكن سيكننرع ثابر على الصمت وبدا عليه هذه المرة أنه أخذ على غره ، وأنه فوجىء بما لم يدر له فى خلد ، ولم يكن خيان ليعنيه كدر الملك ولعله كان مدفوعا برغبة فى إثارته ، وأدرك الحاجب حور خطر المطالب . فانحنى على أذن مولاه وهمس قائلا : « الأفضل ألا يناقش مولاى الرسول الآن » . فهز الملك رأسه دلالة الموافقة وقد أدرك ما يرمى إليه حاجبه ، وظن خيان أن الحاجب يفضى إلى مولاه بما يقوله فانتظر قليلا ، ولكن الملك قال :

ــ أعندك بلاغ آخر تفضى به ؟

فقال خيان :

ــ أيها الحاكم الجليل ، لقد بلغ مولاى أنك تتوج رأسك بتاج مصر الأبيض ، فراعه ذلك ، ورأى أنه لا يتفق وما يربط الأسرة الفرعونية بأسرتك التليدة من أسباب المودة والصداقة التقليدية .

فقال سيكننرع بدهشة :

ــ ولكن التاج الأبيض غطاء الرأس لحكام الجنوب .

فقال الرسول بيقين وإصرار :

ــ بل كان تاج الملوك منهم ، ولذلك لم يفكر والدك المجيد فى لبسه ، لأنه يعلم أنه لا يوجد سوى ملك واحد فى هذا الوادى يحق له التتويج ، وأرجو أيها الحاكم الجليل ألا يغيب عنك مل تدل عليه ملاحظة مولاى من رغبة صادقة فى توثيق الأواصر الطيبة بين أسرتى منف وطيبة ...

وسكت خيان ، فساد الصمت مرة أخرى ، وكان سيكننرع غارقا فى تأملات حزينة ينوء صدره بمطالب ملك الرعاة القاسية التى تهاجم مواطن الإيمان من قلبه وموضع العزة من نفسه ، وبدا أثر ذلك فى امتقاعه وما ظهر من جمود على وجوه من حوله من رجال مملكته . وكان يقدر نصيحة حور فلم يرتجل جوابا

وقال بصوت احتفظ بالرغم من كل شيء بهدوئه .

— أيها الرسول إن رسالتك تنطوى على خطب خطير يمس عقيدتنا وتقاليدنا ، لذلك أرى أن أكاشفك برأيى فيها غدا .

فقال خيان :

— خير الرأى ما سبقته المشورة .

فالتفت سكننرع إلى الحاجب حور وقال :

— تقدم الرسول إلى الجناح المعد له .

فقام الرسول بجسمه القصير الضخم ، وانحنى تحية ، ثم ذهب يسير فى خيلاء وعظمة .

٣

وأرسل الملك فى طلب ولى عهده الأمير كاموس ، وجاء الأمير على عجل دل على رغبته فى معرفة رسالة حاجب أبو فيس . وحيا الملك فى إجلال واتخذ مكانه إلى يمينه ، والتفت إليه الملك وقال :

ـــ لقد أرسلت فى طلبك أيها الأمير لأطلعك على بلاغ رسول الشمال ، لترى فيه معنا رأيك ، وإن الأمر لجد خطير فأصغ إلى ...

ثم روى الملك لولى عهده ما قاله الرسول خيان بالتفصيل المبين ، وأصغى الأمير لوالده باهتمام شديد بدا على محياه الحسن الذى يشبه أباه فى لون بشرته وقسماته وبروز أسنانه العليا ، ثم أدار الملك عينيه فى الحاضرين ، وقال :

ـــ فها أنتم أولاء أيها السادة ترون أنه لكى نرضى أبو فيس ينبغى أن نخلع هذا التاج ، ونذبح أفراس البحر المقدسة ، ونشيد معبدا لست يعبد فيه إلى جانب معبد آمون ، فأشيروا على بما يجب عمله .

وكان الاستياء البادى على وجوههم جميعا يدل على ما يعتلج فى صدورهم من الهم ، وكان الحاجب حور أول المتكلمين ، فقال :

ـــ مولاى ، إن الذى أنكره أكثر من هذه الرغبات نفسها هو الروح الذى أملاها ، فهو روح سيد يملى على عبده ، وملك يتجنى على شعبه ، وما أراها إلا صورة متجددة لذلك النزاع القديم بين طيبة ومنف ، هذه تسعى لاستعباد تلك ، وتلك تتشبث باستقلالها ما وسعتها الحيلة ، وما من شك فى أنه يسوء الرعاة وملكهم أن تظل مملكة طيبة مغلقة الأبواب دون حكامهم ، ولعلهم لا يقنعون بما يدعون من أن هذه المملكة ولاية مستقلة تابعة لتاجهم ، فأرادوا أن يبطلوا مظاهر استقلالها ، ويتحكموا فى عقيدتها ، فيسهل عليهم بعد ذلك

تدميرها .

وكان حور فى إلقائه قويا صريحا ، فذكر الملك تاريخ تحرش ملوك الرعاة بحكام طيبة ، وكيف كان هؤلاء يدفعون شرهم بالرد الجميل والهدايا والتظاهر بالخضوع لكى يحفظوا الجنوب من توغلهم وشرهم ، وكان لأسرته فى هذا السبيل فضل وأى فضل، حتى استطاع والده سينكنترع أن يدرب قوات عظيمة سرا ليصونوا بها استقلال مملكته ، إذا لم تنفع الحيلة والتظاهر بالولاء فى صوته ... ثم قال القائد كاف :

— مولاى ... أرى أنه لا يجوز التسليم بأى مطلب من هذه المطالب ... كيف نرضى بأن يخلع مولانا تاجه من على رأسه ؟... كيف نقتل الأفراس المقدسة إرضاء لعدو أذل قومنا !... وكيف نشيد معبدا لرب الشر الذى يعبده أولئك الرعاة ؟.

وقال الكاهن الأكبرنوفر آمون :

— مولاى ... إن الرب آمون لا يَرضى أن يشيد إلى جانب معبده معبد لإلٰه الشر ست ، ولا أن ترتوى أرضه الطاهرة بدماء الأفراس المقدسة ، ولا أن ينزل حامى مملكته عن تاجه وهو أول حاكم للجنوب توج به رأسه بأمره ... كلا يا مولاى إن آمون لا يرضى بذلك أبدا ، وإنه لينتظر من يخرج على رأس جيش من أبنائه لتحرير الشمال ، وتحقيق وحدة الوطن ، فيعود كما كان فى عهود الملوك السالفين ..

فجرى الحماس فى عروق القائد بيبى مجرى الدماء ، ووقف بقامته الفارعة ومنكبيه العريضين ، ثم قال بصوته الجهورى :

— مولاى ؛ صدق رجالنا العظام فيما قالوا ، وإنى لعلى يقين من أنه لا يراد بهذه المطالب سوى عجم عودنا وترويضنا على الذل والخضوع . وهل من دليل وراء أن يطالب ذلك الهمجى الهابط وأدينا من أقاصى الصحارى الماحلة إلى مليكنا أن يخلع تاجه ويعبد رب الشر ويذبح الأفراس المقدسة؟... لقد كان الرعاة فيما

مضى يطلبون أموالا فلم نبخل عليهم بأموالنا . أما الآن فإنهم يطمعون فى حريتنا وشرفنا ، ودون ذلك يهون علينا الموت ويطيب ، إن قومنا فى الشمال عبيد يحرثون الأرض ويحترقون بألسنة السياط ، ونحن نرجو أن نخلصهم يوما مما يعانون من عذاب لا أن نمضى بإرادتنا إلى مثل مصيرهم التاعس .

لازم الملك الصمت ، وكان يصغى باهتمام ويكتم عواطفه بالنظر إلى أسفل . وقد حاول الأمير كاموس استطلاع وجهه فلم يتمكن ، وكانت ميوله مع القائد بيبى فقال بعنف :

— مولاى ... إن أبو فيس ينظر بجشع إلى عزتنا القومية ، ويأبى إلا أن يذل الجنوب كما أذل الشمال ، ولكن الجنوب الذى لم يرض المذلة وعدوه فى أوج قوته لن يرضاها الآن... فمن يقول إننا نفرط فيما أشتد أسلافنا فى صونه ورعايته؟..

وكان أوسر آمون رئيس الوزراء أدنى القوم إلى الاعتدال ، وكانت سياسته موجهة دائما إلى تفادى غضب الرعاة أو التعرض لقواتهم الهمجية لكى يتفرغ إلى إنماء ثروة الجنوب واستثمار موارد النوبة والصحراء الشرقية وتدريب جيش قوى لا يغلب ، وقد خشى مغبة اندفاع ولى العهد وقائد الجيش ، فقال موجها كلامه إلى رجال المملكة :

— اذكروا يا سادة أن الرعاة قوم نهب وسلب . ولئن حكموا مصر مائتى عام فهم لا يزالون يخطف أبصارهم الذهب ، ويستذل نفوسهم ويشغل هممهم عن شريف المقاصد .

فهز القائد بيبى رأسه ذا الخوذة اللامعة وقال :

— يا صاحب العظمة ، لقد عاصرنا القوم عهدا كافيا لنعرف نفوسهم ، فهم أناس إذا رغبوا فى شىء طلبوه بلسان صريح دون التوسط إليه بالحيلة والمداراة وقد كانوا يطلبون الذهب فيحمل إليهم ، أما اليوم فهم يطلبون حريتنا ...

فقال الوزير :

— ينبغى التريث الآن حتى يكمل جيشنا .

فقال القائد :

ـــ إن جيشنا بحالته الراهنة قادر على صد العدو .

ونظر الأمير كاموس إلى أبيه فوجده ما يزال يطرق إلى أسفل فقال بحماس :

ـــ ما جدوى الكلام ؟... قد يعوز جيشنا بعض الرجال وبعض المعدات ، ولكن أبو فيس لا ينتظر حتى تستكمل عدتنا ، وهو يعرض علينا مطالب لو ارتضيناها حكمنا على أنفسنا بالانهيار والزوال ، وليس فى الجنوب رجل واحد يفضل التسليم على الموت ، فلنرفض هذه المطالب بإباء ونرفع رءوسنا أمام أولئك الرعاة ذوى اللحى المسترسلة والبشرة البيضاء التى لن تطهرها الشمس ..

وتأثر القوم بحماس الأمير الشاب ، وبدا على وجوههم التحفز والغضب وكأنما سئموا الكلام ورغبوا فى اتخاذ قرار حاسم ، ورفع الملك رأسه ورنا إلى ولى عهده ، وسأل بلهجته الجليلة السامية قائلا :

ـــ أترى أن نرفض مطالب أبو فيس أيها الأمير ؟

فقال كاموس بثقة وعنف :

ـــ بكل حزم وإباء يا مولاى .

ـــ وإذا جر الرفض إلى الحرب ؟

فقال كاموس :

ـــ نحارب يا مولاى .. » .

وقال القائد بيبى بحماس لا يقل عن حماس الأمير :

ـــ نحارب حتى نصد العدو عن حدودنا ، وإذا شاء مولانا حاربنا حتى نحرر الشمال ونجلى عن أرض النيل آخر رجل من الرعاة البيض ذوى اللحى الطويلة القذرة .

فالتفت الملك إلى الكاهن الأكبر نوفر آمون وسأله :

ـــ وأنت يا صاحب القداسة ماذا ترى ؟

فقال الشيخ الوقور :

ـــ أرى يا مولاى أن من يحاول إطفاء هذه الجذوة المقدسة كافر ..

فابتسم الملك سيكننرع راضيا وتحول إلى وزيره أوسر آمون قائلا :

ـــ ولم يبق إلا أنت أيها الوزير .

فبادر الرجل يقول :

ـــ مولاى ، لم أنصح بالتريث كراهية فى الحرب أو خوفا منها ، ولكن لنستكمل الجيش الذى أرجو أن يحقق غاية أسرة مولاى المجيدة ، وهى تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة الحديدية ، وأما إذا كان أبو فيس يطمع حقا فى حريتنا فأنا أول من يدعو إلى الحرب .

فنظر سيكننرع فى وجوه رجاله ، وقال بصوت دل على العزم والقوة :

ـــ يا رجال الجنوب إنى أشرككم فى عواطفكم ، وأعتقد أن أبو فيس يتحرش بنا ويطمع فى أن يحكمنا بالخوف أو بالحرب ، ونحن قوم لا نذعن للخوف ونرحب بالحرب . إن الشمال فريسة الرعاة منذ مائتى عام ، امتصوا خير أرضه وأذلوا رجاله . أما الجنوب فإنه يكافح منذ مائتى عام غير غافل عن غايته العليا وهى تحرير الوادى جميعه ، فهل ينكص على عقبيه لأول تهديد ، ويفرط فى حقه ، ويلقى بحريته وديعة بين يدى الطامع النهم ؟.. كلا يا رجال الجنوب ، سأرفض مطالب أبو فيس المهينة ، وأنتظر ما يرد به علينا إن سلما فسلم وإن حربا فحرب ..

وقام الملك واقفا ، فقام الرجال قومة واحدة وانحنوا إجلالا ، ثم غادر البهو على مهل يتبعه الأمير كاموس والحاجب الأكبر ..

٤

وتوجه الملك إلى جناح الملكة أحوتبى ، وأدركت المرأة حين رأته يقبل عليها فى لباسه الرسمى أن رسول الشمال جاء بأمر جلل ، فارتسم الاهتمام على وجهها الأسمر الجميل وقامت واقفة تلقاه بقامتها الطويلة الرشيقة ، ورفعت إليه عينين متسائلتين فقال لها بهدوء :

ـــ أحوتبى .. يبدو لى أن الحرب تطبق علينا مع الأفق ..

فقلقت عيناها السوداوان وتمتمت قائلة بدهشة :

ـــ أتقول الحرب يا مولاى ؟.

فحنى رأسه دلالة الإيجاب ، وقص عليها ما قال الرسول خيان ، ورأى رجاله فيه ، وما استقر عليه عزمه ، وكان يحدثها وعيناه لا تتحولان عن وجهها فقرأ فى صفحته ما اضطرم فى نفسها من الإشفاق والأمل والاستسلام .

وقالت له :

ـــ لقد اخترت السبيل التى ينبغى لمثلك أن يختارها .

فابتسم وربت كتفها ، ثم قال لها :

ـــ هيا بنا إلى أمنا المقدسة .

ثم سارا معا جنبا إلى جنب إلى جناح الملكة الوالدة توتيشيرى زوج الملك السابق سينكننرع ، وكانت فى حجرة خلوتها تطالع كعادتها ..

كانت الملكة توتيشيرى فى الستين من عمرها تبدو على محياها آى النبل والمجد والمهابة ، وكانت « حيويتها » دفاقة فغلب نشاطها الكبر ، ولم يعترها من آثاره سوى شعيرات بيض تكلل فوديها ، وذبول خفيف يعلو خديها ، وظلت عيناها

على صفائهما وجسمها على فتنته ورشاقته ، وشاركت جميع أفراد أسرة طيبة فى بروز أسنانها العليا ، ذلك البروز الذى افتتن به أهل الجنوب وعبدوه كافة ، وقد تخلت الملكة على أثر وفاة زوجها عن الحكم كما يقضى القانون ، تاركة مقاليد طيبة لابنها وزوجه ، ولكنها ظلت الرأى الذى يرجع إليه فى الملمات ، والقلب الذى يلهم الأمل والكفاح ، وقد أقبلت فى فراغها على القراءة ، وكانت تديم المطالعة فى كتب خوفو وقاقمنا وكتب الموتى وتاريخ العهود المجيدة التى خلدها أمثال مينا وخوفو وأمنحيت ، وكان للملكة الوالدة شهرة عظيمة فى الجنوب جميعه ، فما من رجل أو امرأة إلا يعرفها ويحبها ويقسم باسمها المحبوب ، وذلك أنها بثت فيمن حولها وعلى رأسهم ابنها الملك سيكننرع وحفيدها كاموس حب مصر جنوبها وشمالها وكراهية الرعاة المغتصبين الذين ختموا العهود الجليلة أسوأ ختام ، ولقنت الجميع أن غايتهم السامية التى يجب أن يعدوا أنفسهم لتحقيقها تحرير وادى النيل من قبضة الرعاة المستبدين ، وأوصت الكهنة على اختلاف طبقاتهم من رجال المعابد ومدرسى المدارس أن يذكروا الناس دائما بالشمال المغتصب والعدو الغاصب ، وما ارتكبه من آثام أذل بها القوم واستعبدهم وانتهب أرضهم واستأثر بخيراتها وهبط بهم إلى مستوى البهائم التى تعمل فى الحقول ، فإذا كان فى الجنوب جذوة نار مقدسة تلهب القلوب وتحيى الآمال فالفضل فى إذكائها لوطنيتها وحكمتها ، ولذلك قدسها الجنوب جميعه ودعاها الناس الأم المقدسة توتيشيرى ، كما يدعو المؤمنون الربة إيزيس ، وعاذوا باسمها من شر اليأس والهزيمة .

هذه هى الأم التى قصدها سيكننرع وأحوتبى ، وكانت هى تتوقع تلك الزيارة بعد أن علمت بقدوم رسول ملك الرعاة ، وذكرت الرسل الذين كان يبعث بهم ملوك الرعاة إلى زوجها الراحل فى طلب الذهب والغلال والأحجار وكانوا يطلبونها جزية يدفعها التابع للمتبوع .. وكان زوجها يبعث بالسفن محملة ليتقى

قوة القوم الهمجية ، ويضاعف نشاطه الخفى فى تكوين الجيش الذى كان أعز ما أورثه سيكننرع ابنه وخلفه . ذكرت ذلك وهى تنتظر الملك فلما جاء وزوجه بسطت لهما ذراعيها النحيلتين فقبلا يديها ، وجلس الملك إلى يمينها والملكة إلى شمالها ، فسألت ابنها وهى تبتسم ابتسامة رقيقة :

ــ ماذا يريد أبو فيس ؟...

فقال بلهجة تنطوى على الحنق :

ــ يريد يا أماه طيبة وما عليها جميعا . بل ما هو أجل من هذا ؛ إنه يساومنا هذه المرة على شرفنا .

فرددت رأسها بين الملكين وقد روعت وقالت بصوت احتفظ بهدوئه على الرغم من كل شىء :

ــ كان أسلافه على جشعهم يقنعون بالجرانيت والذهب ..

فقالت الملكة أحوتبى :

ــ أما هو يا أماه فإنه يريد منا أن نقتل أفراس البحر التى يقلق صوتها رقادة ، وأن نشيد معبدا لربه ست إلى جانب معبد آمون ، وأن يخلع مولانا التاج الأبيض .

ووافق سيكننرع على قول أحوتبى ، وقص على أمه نبأ الرسول ورسالته .

فبدا الإنكار على وجهها الجليل ، ودل التواء شفتيها على الامتعاض والسخط وسألت الملك قائلة :

ــ وبماذا أجبته يا بنى ؟..

ــ لم أبلغه جوابى بعد ..

ــ وهل انتهيت إلى رأى ؟..

ــ نعم .. أن أنبذ مطالبه جميعا ..

ــ إن من يطلب هذه المطالب لا يسكت على رفضها !.

ـــ ومن يقدر على رفضها جميعا لا يخشى عواقب رفضه ..

ـــ فإذا شهر عليك حربا ؟

ـــ شننت عليه حربا بحرب ..

ورنت الحرب فى أذنيها رنينا عجيبا أيقظ بقلبها ذكريات قديمة ، وذكرت أياما مثل هذه حين كان زوجها يضيق صدره ويشكو إليها بثه وهمه ويتمنى لو كان يملك جيشا قويا يدفع به طمع عدوه ، أما ابنها فيتكلم عن الحرب بشجاعة وعزيمة وثقة ، فقد تغير الزمن وتجدد الأمل ، واختلست من وجه الملكة نظرة فوجدته شاحبا ، فأدركت أنها تكابد حيرة وأن أمل الملكة وإشفاق الزوجة يتقاذفانها بغير رحمة .. وهى نفسها ملكة وأم ولكنها لا تستطيع أن تقول إلا ما ينبغى لمعلمة القوم وأمهم المقدسة أن تقوله . وقد سألته :

ـــ وهل تقدر على الحرب يا مولاى ؟

فقالت بثبات :

ـــ نعم يا أماه .. لدى جيش باسل .

ـــ هل يستطيع هذا الجيش أن يخلص مصر من الأغلال ؟

ـــ يستطيع على الأقل أن يصد عن مملكة الجنوب عدوان الرعاة ..

ثم هز منكبيه استهانة وقال بحنق وغيظ : .

ـــ أماه طالما دارينا أولئك الرعاة عاما بعد عام فلم تفلح المداراة فى إسكات جشعهم ، وما برحوا يرمقون مملكتنا بعين الطمع والجشع ، وقد حم القضاء وأرى أن الشجاعة أولى بنا من المطاولة والمداراة . سأخطو هذه الخطوة وأنظر ما بعدها .

فابتسمت توتيشيرى وقالت بفخار :

ـــ فليبارك آمون هذه النفس الأبية العالية .

ـــ فماذا تقولين يا أماه ؟

ـــ أقول يا بنى : سر فى طريقك يرعاك الرب وتبارككك دعواتى ، هذه غايتنا وهذا ما ينبغي للفتى الذى اختاره آمون ليحقق آمال طيبة الخالدة .

وابتهج سيكننرع وتألق بالنور وجهه ، وهوى على رأس توتيشيرى يقبل جبينها ، وقبلت خده الأيسر ، وقبلت خد أحوتبى الأيمن وباركتهما معا ، فعادا من لدنها سعيدين مغتبطين ..

٥

وأعلن الرسول خيان أن سيكننرع سيستقبله غداة غد ، وفى الموعد المحدد ذهب الملك إلى بهو الاستقبال يتبعه كبير حجابه ، وهناك وجد فى انتظاره حول عرشه رئيس الوزراء والكاهن الأكبر وقائدى الجيش والأسطول فقاموا لاستقباله وانحنوا بين يديه ، وجلس على العرش وأذن لهم فى الجلوس ، ثم صاح حاجب الباب معلنا وصول الرسول خيان ، ودخل الرجل بجسمه البدين القصير ولحيته الطويلة يمشى مشية الخيلاء ، وكان يسائل نفسه : ترى ماذا وراء الشورى ؟. أسلام أم حرب ؟.. ثم بلغ العرش فانحنى تحية للجالس عليه ، ورد عليه الملك التحية وأذن له فى الجلوس وهو يقول :

ــ عسى أن تكون قضيت ليلة سعيدة .

ــ كانت ليلة سعيدة ، شكرا لضيافتك الكريمة .

ولاحت منه التفاتة إلى رأس الملك فرأى تاج مصر الأبيض يعلوه ، فانقبض صدره واحتدم الغيظ فى قلبه ، وكبر عليه أن يتحداه كذلك حاكم الجنوب ، وكان الملك لا يحرص من جهته على مجاملة الرسول لأنه كان لا يجهل ما يعنيه رفضه للمطالب ، فأراد أن يقول رأيه صريحا حازما قاسيا فقال :

ــ أيها الرسول خيان : لقد درست المطالب التى تحملها إلينا بعناية ، وشاورت فيها رجال مملكتى ، فاتفق رأينا جميعا على رفضها .

ولم يكن خيان يتوقع هذا الرفض الصريح الحاسم ، فأخذ واستولى عليه الذهول ، ونظر إلى سيكننرع باستغراب وإنكار وقد صار وجهه كالجمان ، واستدرك الملك قائلا :

ــ لقد وجدت هذه المطالب تمس عقيدتنا وشرفنا ، ونحن لا نسمح لأى

إنسان أن يمس العقيدة والشرف منا .

وأفاق خيان من دهشته فقال بهدوء وكبرياء وكأنه لم يسمع ما قال الملك :

— إذا سألني مولاى : لماذا يرفض حاكم الجنوب أن يشيد معبدا لست ، فماذا أقول له ؟

— قل له إن أهل الجنوب يعبدون آمون وحده ..

— وإذا سألني ، لماذا لا يقتلون أفراس البحر التى تقض مضجعى ..؟

— قل له إن أهل الجنوب يقدسونها .

— يا عجبا .. أليس فرعون أعظم قداسة من أفراس البحر ؟...

فأطرق سيكننرع مليا كأنه يفكر فى الجواب ، ثم قال بلهجة حازمة :

— إن أبو فيس مقدس لديكم ، وهذه الأفراس مقدسة لدينا .

وسرت موجة ارتياح فى نفوس رجال الملك لهذا الجواب العنيف ، أما خيان فقد اشتد به الغضب ولكنه لم يستسلم لسلطانه ، وكبح جماح نفسه وقال بهدوء :

— أيها الحاكم الجليل ، كان أبوك حاكما على الجنوب و لم يكن يلبس هذا التاج ، فهل ترى لنفسك حقا غير ما كان يرى أبوك لنفسه ؟

— لقد ورثت عنه الجنوب وهذا تاجه منذ القدم ، ومن حتى أن أتوج به رأسى .

— ولكن فى منف رجل آخر يتوج رأسه بتاج مصر المزدوج ، ويسمى نفسه فرعون مصر ، فماذا ترى فيما يدعيه لنفسه ؟...

— أرى أنه اغتصب وأسلافه المملكة ...

ونفد صبر خيان فقال بحنق واحتقار :

— أيها الحاكم ، لا تظن أن لبسك التاج يرفعك إلى مصاف الملوك ، فالملك من بعد ومن قبل قوة وسلطان ، ولست أرى فى أقوالك إلا استهانة بالوشائج الطيبة

التى ربطت آباءك وأجدادك بملوكنا ، ونزوعا إلى التحدى لا تؤمن عواقبه .

فتبدى الغضب على وجوه الحاشية ، ولكن الملك حافظ على هدوئه وقال مسترسلا :

— أيها الرسول نحن لا نعجل بالشر ، ولكن إذا تحرش بشرفنا متحرش ؛ لا ننكص على أعقابنا ولا نؤثر السلامة ، ومن فضائلنا ألا نغالى فى تقدير قوتنا فلا تنتظر أن تسمع منى مباهاة وفخرا . ولكن اعلم أن آبائى وأجدادى حافظوا ما وسعهم الجهد على استقلال هذه المملكة . ولن أفرط أنا فيما عاهدوا الرب والناس على المحافظة عليه ...

فعلت شفتى خيان الحادتين ابتسامة ساخرة تخفى حقدا مرا . وقال بلهجة ذات مغزى :

— كما تشاء أيها الحاكم وما على إلا البلاغ ، وستحمل تبعة أقوالك .

فحنى الملك رأسه ولم يتكلم . ثم قام واقفا مؤذنا بانتهاء المجلس ، فوقف الجميع إجلالا حتى غيبه الباب عن أنظارهم ..

٦

وكان الملك يقدر خطر الحال ، فأراد أن يزور معبد آمون ، ليدعو الرب المعبود ويعلن الكفاح فى الفناء المقدس ، وأعلن إرادته لوزيره ورجاله ، فقصدت جموعهم من وزراء وقواد وحجاب وكبار موظفين إلى معبد آمون لتكون فى استقبال الملك . وتنبهت طيبة الغافلة إلى ما يدور وراء جدران قصورها الشم ، وتهامس كثيرون بأن رسول الشمال جاء متعاليا وآب غاضبا . وذاع بين الطيبيين أن سيكننرع سيزور معبد آمون ليستلهمه الرأى ويسأله المعونة ، فذهبت جموع غفيرة من الرجال والنساء إلى المعبد ، وانضم إليهم خلق كثيرون أحاطوا بالمعبد ، وتدافعوا إلى السبل المؤدية إليه ، وكان يبدو على وجوههم الجد والاهتمام والتطلع ، فدار بينهم التساؤل وجرى على ألسنتهم الحديث كل يفسر الأمر على ما يرى ، وجاء الركب الفرعونى تتقدمه كوكبة من الحرس تتبعها عجلة الملك وعربات أخرى تحمل الملكة والأمراء والأميرات من البيت الملكى ، فسرت فى نفوس القوم موجة من الحماس والفرح ، ولوحوا لمليكهم بأيديهم وهللوا له وكبروا ، فابتسم سيكننرع إليهم ولوح لهم بصولجانه ، ولم يغب عن أحد أن الملك يرتدى لباس الحرب ذا الدرع اللامعة ، فاشتد تشوف الناس إلى سماع الأخبار ، ودخل الملك فناء المعبد يسير وراءه آله نساء ورجالا ، فاستقبلهم كهنة المعبد والوزراء والقواد بالسجود ، وهتف نوفر آمون بصوت مرتفع قائلا : أدام الرب حياة الملك وحفظ مملكة طيبة » ، وردد القوم هتافه بحماس وأعادوا ترديده ، فحياه الملك برفع يده إلى رأسه وابتسامة من فمه العريض ، ثم تقدم الجمع بأسره إلى بهو المذبح ، وقدم الجنود ثورا ذبيحا للرب ، ثم طافوا جميعا بالمذبح وبهو الأعمدة ، وهناك وقفوا صفين ، وأعطى الملك صولجانه لولى عهده

الأمير كاموس وسار إلى السلم المقدس فارتقاه إلى قدس الأقداس ، واجتاز العتبة المقدسة بخطى خاشعة ، وأغلق وراءه الباب فكأنما أدركه الغسق ، وحنى رأسه وخلع تاجه إجلالا للمكان المطهر ، وتقدم نحو المحراب الثاوى فيه الرب المعبود بساقين متخاذلتين من الهيبة ، ثم سجد عند قدميه ولثمهما وسكن لحظة ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة وقال بصوت خافت كأنه النجوى :

— أيها الرب المعبود ، رب طيبة المجيدة ، ورب أرباب النيل ، هبنى من لدنك رحمة وقوة ، فإنى اليوم أتعرض لتبعة خطيرة إن لم تشدد فيها أزرى عييت دونها . هى الدفاع عن طيبة وقتال عدوك وعدونا الذى سقط علينا من صحراء الشمال فى جموع همجية خربت ديارنا وأذلت أعناق قومنا وأغلقت أبواب معابدك واغتصبت عرشنا ، هبنى معونتك أصد جيوشهم وأطارد فلولهم وأطهر الوادى من قوتهم الغاشمة فلا يحكمه إلا أبناؤك السمر ولا يذكر فيه إلا اسمك .

وسكت الملك ، وانتظر برهة ، ثم استغرق مرة أخرى فى صلاة طويلة حارة مسندا جبينه إلى قدمى التمثال ، ثم رفع رأسه فى وجل حتى بصر بالوجه النبيل المعبود يكتنفه الجلال والصمت كأنه ستار الغد يخبىء وراءه أحداث القضاء .

* * *

وطلع الملك على قومه وقد وضع التاج الأبيض على جبينه المتفصد بالعرق فسجدوا له جميعا ، وتقدم منه الأمير كاموس بصولجانه فأخذه بيمناه وقال بصوت جهورى :

— يا رجال طيبة المجيدة ، لعل عدونا فى هذه الساعة التى أحدثكم فيها يحشد جيشه على حدود مملكتنا ليقتحم علينا ديارنا ، فهلموا جميعا إلى الكفاح ، وليكن شعار كل واحد منكم أن يبذل قصارى جهده فى عمله ، كى يقوى جيشنا على الثبات والقتال ، ولقد صليت للرب وسألته العون ، وليس الرب بناس وطنه وأبناءه ..

فصاح الجميع بصوت اهتزت له جدران المعبد : « أيد الرب مليكنا

سيكننرع .. » وهم الملك بالمسير فدنا منه كاهن آمون وقال :

— هل لمولاى أن ينتظر قليلا لأقدم إليه هدية مقدسة ..؟

فقال الملك مبتسما :

— كما تشاء يا صاحب القداسة ..

وأشار الكاهن إلى كاهنين إشارة خاصة ؛ فمضيا إلى حجرة المخلفات ، وعادا يحملان صندوقا صغيرا من الذهب تطلعت إليه الأبصار جميعا ، واقترب منهما نوفر آمون وفتح الصندوق فى أناة ورفق ، فرأت الأعين بداخله تاجا فرعونيا ، تاج مصر المزدوج ، فاتسعت الأعين دهشة وتبودلت النظرات ، وحنى نوفر آمون هامته لمولاه وقال بصوت متهدج :

— مولاى هذا تاج الملك تيمايوس ...

فتصايح قوم قائلين : « تاج الملك تيمايوس ... » فقال نوفر آمون بحماس وقوة :

— نعم يا مولاى ، هذا تاج تيمايوس آخر فرعون حكم مصر المتحدة وبلاد النوبة قبل غزو الرعاة لوطننا . وقد شاءت حكمة الرب أن تحل نقمته ببلادنا فى عهده ، فسقط هذا التاج الكريم عن رأسه بعد أن أبلى فى الدفاع أشد البلاء ، ففقد العرش وصاحبه واحتفظ بشرفه ، لذلك رفعه أسلافنا إلى هذا المعبد ليأخذ مكانه بين المخلفات المقدسة ، ولقد مات صاحبه بطلا شهيدا فهو جدير برأسك الكبير : وإنى أتوجك به أيها الملك سيكننرع ، يا ابن توتيشيرى الأم المقدسة ، وأنادى بك ملكا على مصر العليا والسفلى وبلاد النوبة ، وأدعوك باسم الرب آمون وذكرى تيمايوس وأهل الجنوب أن تنفر إلى قتال عدوك وتحرير وادى النيل الطاهر المحبوب ..

ودنا الكاهن الأكبر من الملك وخلع عن رأسه تاج مصر الأبيض وسلمه إلى أحد رجال الكهنوت ، ثم رفع تاج مصر المزدوج بين التهليل والتكبير ووضعه على رأسه المجعد ، ثم صاح هاتفا : « ليحيى سيكننرع فرعون مصر » . فردد

القوم هتافه ، وهرع كاهن إلى خارج المعبد وهتف لفرعون مصر سيكننرع ، فردد الطيبيون الهتاف فى حماسة مستعرة . ثم هتف بقتال الرعاة وأجابه القوم بأصوات كالرعد ، وقد أيقنوا بما كانوا منه فى شك ...

وحيا فرعون الكهنة ، ثم اتجه نحو باب المعبد تتبعه أسرته ورجال قصره ووجوه المملكة الجنوبية ...

٧

وعلى أثر وصول فرعون إلى قصره دعا إلى الاجتماع به رئيس وزرائه وكبير الكهنة ورئيس حجاب القصر وقائدى الجيش والأسطول وقال لهم :

ـــ إن سفينة خيان تسبح به نحو الشمال سريعا ، وستتعرض للغزو على أثر اجتيازه حدود الجنوب ، فينبغى ألا نضيع ساعة من وقتنا .

والتفت إلى قائد الأسطول كاف وقال :

ـــ أرجو أن تجد مهمتك يسيرة على سطح الماء ، فالرعاة تلاميذنا فى القتال فى السفن ، هيئ سفنك للحرب وأبحر بها نحو الشمال ...

فأدى القائد كاف التحية لمولاه وفارق المكان على عجل . وتحول الملك إلى القائد بيبى ، وقال :

ـــ أيها القائد بيبى ، إن قوة جيشنا الأساسية معسكرة فى طيبة ، فسر بها إلى الشمال ، وسألحق بك على رأس قوة من حرسى الأشداء ، وإنى أدعو الرب أن يثبت جنودى أنهم جديرون بالمهمة الملقاة على عاتقهم ، ولا تنس أيها القائد أن تبعث برسول إلى بنوبولس على حدودنا الشمالية لينبه الحامية إلى الخطر المحدق بها حتى لا تؤخذ على غرة .

فأدى القائد التحية لمولاه ومضى ، وجعل الملك يقلب وجهه فى وجوه رئيس الوزراء وكبير الكهنة ورئيس الحجاب ثم قال لهم :

ـــ سيلقى على كواهلكم أيها السادة واجب الدفاع عن مؤخرة جيشنا ، فليقم كل منكم بواجبه بما أعهده فيكم من الكفاية والإخلاص .

فقالوا فى صوت واحد :

— كلنا فداء للملك ولطيبة .

فقال سيكننرع :

— يا نوفر آمون ابعث رجالك إلى القرى والبلدان يحثون قومى على الجهاد . وأنت يا أوسر آمون ادع حكام الأقاليم وأوصهم أن يجندوا الأشداء والقادرين من شعبى، أما أنت يا حور فإنى أعهد إليك بآل بيتى ولتكن لابنى كاموس كما كنت لى.

وحيا الملك رجاله وغادر المكان قاصدا إلى جناحه الخاص ليودع أسرته قبل الرحيل ، وأرسل فى طلبهم جميعا فجاءت الملكة أحوبتى والملكة توتيشيرى والأمير كاموس وزوجه الأميرة ستكيموس وابنها الصغير أحمس وابنتهما الصغيرة الأميرة نفرتارى ، فاستقبلهم استقبالا وديا وأجلسهم حوله وقد شعر بالحنان يتدفق من بين أضلعه ، ومضى يقلب عينيه فى أحب الوجوه إلى قلبه وكأنه يرى وجها واحدا يتكرر لا يفرق بينها سوى العمر ، فتوتيشيرى فى الستين ، وأحوتبى مثل زوجها فى الأربعين ، أما كاموس وستكيموس ففى الخامسة والعشرين ، وأما أحمس فلم يجاوز العاشرة ، وأخته نيفرتارى دون ذلك بعامين ، ولكن ما من وجه فيهم إلا وتتألق فيه هاتان العينان السوداوان وذلك الفم الذى يميل إلى البروز أعلاه ، وتلك السمرة الخمرية التى تضفى عليه صحة وحسنا ، وارتسمت على فم الملك العريض ابتسامة وقال :

— تعالوا نجلس معا ساعة قبيل الرحيل ...

فقالت توتيشيرى :

— إنى أدعو الرب يا بنى أن يكون ذهابا إلى النصر المبين .

فقال سيكننرع :

— إنى كبير الأمل فى النصر يا أماه ...

ورأى الملك ولى العهد فى لباس الحرب فأدرك أنه يظن نفسه خارجا معه فسأله متجاهلا :

— لماذا ترتدى هذا اللباس ؟..

فبدت الدهشة على وجه الشاب كأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال ، وقال باستغراب :

— للسبب الذى من أجله ترتديه أنت يا مولاى .

— هل جاءك أمرى بذلك ؟

— ظننت المسألة لا تحتاج إلى أمر يا مولاى .

— أخطأت يا كاموس .

فبدا الفزع على وجه الشاب وقال :

— هل أحرم شرف خوض معركة طيبة يا مولاى ؟

— إن ميادين القتال لا تستأثر بالشرف دون الميادين الأخرى ، وستبقى على عرشى يا كاموس لتسهر على سعادة مملكتنا وتمد جيشنا بالرجال والمئونة .

فامتقع وجه الشاب ، وحنى رأسه كأنما أثقله أمر الملك ، وأرادت توتيشيرى أن تخفف عنه فقالت برقة :

— كاموس ... إن القيام بأعباء الحكم ليس بالعمل الهين الذى يخزى إنسانا وهو عمل جدير بمثلك .

وهنا وضع الملك يده على منكب ولى عهده وقال :

— أصغ إلى يا كاموس إننا مقبلون على حرب ضروس نرجو أن نفوز فيها بعون الرب ، ونحرر بلادنا المحبوبة مما تقيد به من الأغلال ، على أنه من الحكمة أن نقدر جميع العواقب ، وقد قال حكيمنا قاقمنا : « لا تضع كل أسهمك فى جعبة واحدة » .

وسكت الملك عن الكلام ، فساد الصمت ولم ينبس أحد بكلمة حتى استأنف الملك قائلا :

— فإذا شاءت حكمة الرب أن يبوء جهادنا بخذلان فما ينبغى أن ينقطع جهادنا قط ... أصغوا إلى جميعا ، إذا سقط سيكننرع فلا تيئسوا فسيخلف كاموس أباه ، وإذا سقط كاموس خلفه أحمس الصغير ، وإذا فنى جيشنا هذا

فمصر ملأى بالرجال ، وإن تسقط بطلمانيس فلتحارب كبتوس ، وإن تقتحم طيبة فلتثب أمبوس وسيين وبيجة ، أو يقع الجنوب فى أيدى الرعاة فهنالك النوبة لنا فيها رجال أشداء مخلصون ، وستتولى توتيشيرى الأبناء بما تولت به الآباء والأجداد ، فلا أحذركم إلا من عدو واحد هو اليأس ..

وكان لكلام الملك وقع شديد فى نفوس الجميع حتى أحمس الصغير ونيفرتارى وجما وعلاهما الارتباك ، وعجبا كيف يحدثهما جدهما بهذه اللهجة الجدية أول مرة ، واغرورقت عينا الملكة أحوتبى بالدموع ، فتكدر سيكننرع وقال بلهجة لم تخل من عتاب :

— أتبكين يا أحوتبى .. انظرى إلى شجاعة أمنا توتيشيرى .

ثم نظر إلى أحمس وكان يكلف به كلفا عظيما ، وكان الغلام صورة صادقة من جده ، فجذبه إليه وسأله مبتسما .

— من العدو الذى يجب أن نحذره يا أحمس ؟.

فقال الغلام وهو لا يفقه معنى ما يقول :

— اليأس ...

فتضاحك الملك وقبله مرة أخرى : ثم قام واقفا وقال برقة :

— هلموا نتعانق ..

ثم عانقهم جميعا مبتدئا بتوتيشيرى وزوجه أحوتبى وستكيموس زوج ابنه ثم أحمس ونيفرتارى : ثم انعطف نحو كاموس ، وكان واقفا فى جمود واستسلام ، فمد له يده فشد عليها بقوة ، ثم انحنى عليها فقبلها وقال بصوت خافت :

— فلتصحبك السلامة يا أبتاه ..

ولوح لهم الملك بيده وبرح المكان بقدمين ثابتتين وقد تجلى على وجهه العزم والبأس ...

* * *

وخرج الملك فى رأس قوة من حرسه والتقى فى ميدان القصر بجموع شعب

طيبة جميعا رجالا ونساء وأطفالا قد انتقلوا إلى ميدان القصر يحيون مليكهم ويهتفون لمن خرج باغيا تحرير الوادى ، وشق سيكننرع طريقه بين موجهم المتلاطم قاصدا باب طيبة الشمالى ، وهناك وجد الكهنة والوزراء والحجاب والأعيان وكبار الموظفين فى توديعه ، فسجدوا لموكبه وهتفوا باسمه طويلا ، وكان آخر صوت سمعه الملك صوت نوفر وهو يقول له :

ـــ سأستقبلك يا مولاى بعد حين ورأسك مكلل بالغار .. اللهم استجب .

واجتاز الملك باب طيبة العظيم فى طريقه إلى الشمال تاركا وراءه أسوار المدينة العظيمة ، وكان عظيم التأثر لما رأى ولما سمع ، وقد شعر بخطر العمل الكبير المقبل عليه ، وكيف أنه ينطوى على إسعاد شعبه أو إشقائه إلى أمد طويل ، لقد وضع مصير القوم فى قبضة يده وواجه المخاطر المروعة التى وقف منها أبوه موقف المتمهل المتريث ، ولم يكن سيكننرع من الحكام المترفين ولكن كان خلقه ينطوى على الصلابة والبسالة والتقشف والتدين ، وكان عظيم الأمل قوى الثقة بقومه . وقد لحق جيشه بالمعسكر فى بلدة شنهور شمال طيبة قبل المساء واستقبله القائد بيبى على رأس قواد الفرق ، وكان مضعضع الحواس لما أصابه من إرهاق ووصب ، ولم تغب حالته عن عينى الملك فقال له :

ـــ أراك متعبا أيها القائد .

فسر القائد بملاحظة مولاه وقال :

ـــ استطعنا يا مولاى أن نجمع هنا حاميات هرمنسيس وهابو وطيبة ، فكونت جيشا يربو عدده على عشرين ألف مقاتل .

وسار الملك بعجلته بين خيام الجنود فسرت فى نفوسهم موجة فرح وحماس ، وتردد الهتاف له فى المعسكر شمال بلدة شنهور ، ثم كر راجعا إلى الخيمة الملكية وفى صحبته القائد بيبى ، وكان الملك مطمئنا إلى جيشه الذى بذل أجمل عهود شبابه فى تدريبه فقال :

ـــ جيشنا باسل .. فكيف ترى شعور القواد ؟

— كلهم متفائلون يا مولاى ومتحمسون للحرب ، وما من واحد منهم إلا يبدى عظيم إعجابه بفرقة القسى ذات الشهرة التاريخية .

فقال الملك :

— إنى أشارككم هذا الإعجاب ، والآن أصغ إلى ، لا يجوز أن نضيع من الوقت إلا ما تستلزمه ضرورة إراحة هذا العدد من الجنود ، فإنه ينبغى أن نلقى عدونا — إذا هاجمنا حقا — فى الوادى المنحدر ما بين بانوبوليس وبطلوس ، فهو واد شديد الوعورة ضيق المسالك ، والميزة الحربية فيه لمن يسيطر على عاليه ، ومجرى النيل فيه ضيق فيمكن أن نساعد أسطولنا فى أثناء اشتباكه مع العدو ..

— سنشرع فى المسير يا مولاى قبيل الفجر .

فأوما برأسه دلالة على الموافقة وقال :

— ينبغى أن نبلغ بانوبوليس ونعسكر فى واديها قبل أن يعود خيان إلى منف ...

ثم دعا الملك قواده إلى الاجتماع به .

٨

وتحرك الجيش قبيل الفجر يسبقه إلى أهدافه قوة الكشافة ، وتتقدمه فرقة العجلات المكونة من مائتى عجلة على رأسها فرعون ، وتتبعها فرقة الرماح ، ثم فرقة القسى والنبال ، ثم فرقة الأسلحة الصغيرة ، وعربات المؤن والسلاح والخيام . وأبحر الأسطول فى الوقت نفسه إلى الشمال ، وكان الظلام شديدا لا يخفف من سواده سوى شعاع النجوم الساهرة وأضواء المشاعل ، فبلغوا مدينة قسى فهبت جميعا لاستقبال فرعون وجيشه ، وهرع الفلاحون من أقصى الحقول يحملون سعف النخل والرياحين ودنان الجعة ، وساروا مع الجيش يهتفون له ويهدون إلى الجنود الأزهار وأكواب الجعة الشهية ، ولم يتركوه حتى أوغل فى المسير ، وبهتت ظلمة الليل وانسكب فى الأفق الشرقى نور الفجر الأزرق الهادئ يتقدم بشائر النور ، ثم أسفر الصبح وغمر الضوء الدنيا والجيش يجد فى السير حتى بلغ كتوت قبيل العصر ، فاستراح فيها وقتا بين المستقبلين من أهلها المتحمسين . ورأى الملك أن يكون مبيت الجيوش فى تنثيرا فأصدر أمره باستئناف المسير ، وجد الجيش حتى بلغ تنثيرا عند سدول الظلام وهنالك استسلم للنوم العميق ..

وكان يستيقظ قبل الفجر ويضرب فى الأرض حتى حلول الظلام يوما بعد يوم حتى عسكر فى أبيدوس ، وكانت الكشافة تجول شمال المدينة فرأى ضابط من رجالها عن بعد سحيق أقواما تضرب فى الأرض ، فعدا على رأس ثلة من رجاله نحو القادمين ، وكان كلما هبط الوادى تبين له الأمر فرأى خطوطا متعرجة من الفلاحين يسيرون جماعات يحملون ما خف من متاعهم ، ومنهم من يسوق غنما أو ثيرانا يدل منظرهم على البؤس والتشرد ، فعجب الرجل واعترض سبيل

المتقدين منهم وهم بسؤالهم ، ولكن رجلا منهم صاح به :

ـــ الغوث أيها الجندى ... أدركونا فقد هلكنا ..

فصاح الضابط منزعجا :

ـــ تطلبون الغوث ؟.. ماذا يفزعكم ؟

فأجاب كثيرون منهم فى نفس واحد :

ـــ الرعاة ... الرعاة ...

وقال الرجل الأول :

ـــ نحن أهالى بانوبوليس وبطلمايس ، جاءنا جندى من جنود الحدود وقال لنا : إن جيش الرعاة يهاجم الحدود بقوات عظيمة لن تلبث أن تتدفق إلى بلدتنا ونصحنا بالهجرة إلى الشمال ، فساد الفزع البلد والحقول وهرعنا جميعا إلى ديارنا ننادى النساء والأطفال ونحمل ما يخف حمله ، ثم تركنا البلاد وراءنا فارين ، فما ذقنا الراحة منذ صباح الأمس ..

وكان يبدو على وجوههم الإعياء والخور فقال لهم الضابط :

ـــ استريحوا قليلا ثم جدوا فى السير ، فعما قليل ينقلب هذا الوادى الساكن ميدانا للقتال .

ولوى الرجل عنان فرسه وانطلق به إلى خيمة القائد فى أبيدوس ، وأبلغه الخبر ، وقام بيبى من فوره إلى الملك وقص عليه الخبر ، فتلقاه بدهشة وانزعاج وصاح :

ـــ كيف وقع هذا .. هل بلغ خيان منف فى هذا الزمن اليسير ؟...

فقال بيبى بحنق :

ـــ لا شك يا مولاى فى أن عدونا حشد جيشه على حدودنا قبل أن يبعث إلينا برسوله ، فهو كان يتربص بنا ، وما عرض علينا مطالبه إلا وهو يرجو أن ترفضها ، فلما اجتاز خيان حدودنا عائدا أصدر أمره للجيوش المحتشدة بالهجوم ، هذا هو التفسير المعقول لذلك الهجوم السريع العنيف ..

فاصفر وجه الملك سيكننرع غضبا وحنقا وقال :

ــ إذن سقطت بانوبوليس وبطلمايس .

ــ نعم واأسفاه يا مولاى ، ولا يجدى فى الدفاع عنهما بسالة حاميتنا قليلة العدد .

فهز الملك رأسه أسفا وقال :

ــ خسرنا أوفق ميدان قتال لنا .

ــ لن يؤثر هذا فى شجاعة جنودنا الفائقة ..

وفكر الملك مليا ثم قال لقائد جيوشه :

ــ ينبغى أن نخلى أبيدوس وتنثيرا إخلاء تاما .

فبدا التساؤل على وجه بيبى فقال الملك :

ــ لن ندافع عن هذه المدن .

فأدرك بيبى ما يعنيه مولاه .

ــ أيريد مولاى أن يلقى العدو فى وادى كبتوس ؟

ــ هذا ما أريده ، فهنالك تمكن مهاجمة العدو من عدة جهات . وتوجد فى أنحاء الوادى حصون طبيعية ، وسأترك له فى المدن التى نخليها عصابات تكر عليه دون أن تشتبك معه فى قتال فتعطل تقدمه حتى نقوى مراكزنا ، هيا يا بيبى ابعث برسلك إلى المدن ليخلوها ، ومر القواد بالتقهقر فى الحال.. ولا تضع وقتا فإن حبل الأرجوحة التى يترجح فيها مصير قومنا أمسى أحد طرفيه فى يد أبو فيس .

٩

وصاح المنادى فى أهالى أبيدوس وبرفا وتنثيرا أن احملوا متاعكم وأموالكم وسيروا إلى الجنوب ، فقد أمست دياركم ميدان قتال لا يعرف الرحمة ، وكان القوم يعرفون من الرعاة وما أعمالهم ، فتولاهم الخوف وبادروا إلى أموالهم وأمتعتهم يكدسون بها العربات تجرها الثيران ، وإلى البقر والأغنام يسوقونها سوق المتعجل ، ولموا شعثهم وهرعوا نحو الجنوب تاركين أراضيهم وديارهم وكأنما تقطع أوصالهم من الحزن والأسف ، وكان كلما تقدم بهم المسير ألقوا بأبصارهم المظلمة إلى الوراء تنازعهم قلوبهم إلى أوطانهم ، ثم تفزعهم المخاوف فيجدون سراعا إلى المجاهل التى تنتظرهم ، ومروا فى طريقهم ببعض فرق الجيش فخفقت قلوبهم فى صدورهم وداعب أحلامهم الأليمة أمل ، وافترت ثغورهم عن ابتسامة فرح التمعت فى جو أحزانهم كما تضىء أشعة الشمس خلل ثغرة بين السحب انقشعت عنها لحظة فى يوم أدكن السماء ، ولوحوا بأيديهم وصاح الكثيرون : « أراضينا وديعة مسلوبة ... ردوها إلينا أيها البواسل .... » .

كان فرعون فى تلك الأثناء يشرف على توزيع قواته فى وادى كبتوس ويرمق بعينين أسيفتين جموع المهاجرين الذين لا ينقطع تيارهم المتدفق ، وكان يشاركهم آلامهم كأنه واحد منهم ، ويضاعف فى ألمه ما يحمله الهواء إلى أذنيه من هتافهم باسمه ودعائهم له .

وكان القائد بيبى على اتصال دائم برجال الكشافة فيتلقى الأخبار منهم ثم يرفعها إلى مولاه ، فبلغه هجوم العدم على أبيدوس ومقاومة حاميتها الصغيرة مقاومة عنيدة أتت على آخر رجل منهم . وغداه اليوم التالى حمل الرسول نبأ هجوم الهكسوس على مدينة برفا وما احتال بها الرجال المدافعون عنها من فنون

الدفاع والمشاكسة لكى يعطلوا زحف العدو ما وسعتهم الحيلة ، أما تنثيرا فقد ثبتت حاميتها للعدو الزاحف ساعات طوالا حتى اضطر أن يهاجمها بقوات كثيرة كأنما يهاجم جيشا كامل العدد والعدة ، ثم قرر الكشافة وبعض الضباط الذين نجوا من حاميات المدن المغزوة أن قوات العدو يترجح عددها بين خمسين ألفا وسبعين ، أما فرقة العجلات فلا تقل عن ألف عجلة ، وقد تلقى الملك النبأ الأخير بغرابة وجزع ؛ لأنه لم يكن هو — ولا أحد من جيشه — يتوقع أن يملك جيش أبو فيس هذا العدد الضخم من العجلات ، وقال لقائده :

— كيف تقاوم فرقة عجلاتنا هذا العدد الهائل من العجلات ؟..

وكان بيبى فى حيرة من أمره ، وكان يلقى على نفسه هذا السؤال فقال لمولاه :

— ستنهض فرقة القسى بواجبها يا مولاى .

فهز الملك رأسه دهشة وقال :

— لم تكن العجلات من آلات الحرب لدى الرعاة ، فكيف يكون لجيشهم أضعاف ما لجيشنا منها ؟..

— والمؤلم يا مولاى أن تكون الأيدى التى صنعتها مصرية ..

— حقا إنه لمؤلم .. ولكن هل تنفع القسى فى مقاومة سيل من العجلات ؟

— إن جنودنا يا مولاى لا يخطئون أهدافهم ، وسيرى أبو فيس غدا أن الغلبة لسواعدهم على كثرة عجلاته ..

وفى ذلك المساء خلا فرعون إلى نفسه وكان يشعر بضيق وانقباض . وصلى للرب صلاة حارة طويلة ضارعا إليه أن يشرح صدره ، ويثبت قلبه ، ويكتب له ولجيشه النصر .

وأحس الجميع دنو العدو ؛ فضاعفوا من يقظتهم ، وناموا ليلتهم جزعين يرجون أن يطلع الصبح ليلقوا بأنفسهم فى معركة الموت .

١٠

واستيقظ الجيش قبل بزوغ الفجر بزمن غير يسير ، وأخذ الرجال الأشداء من حملة القسى أماكنهم الحصينة فى الميدان يؤيد كل جماعة منهم قوة صغيرة من العجلات ، ووقف سيكننرع أمام خيمته مع قائده بيبى وسط هالة من رجال حرسه الأشداء ، وكان يقول لهم : « ليس من الحكمة أن نقذف بفرقة العجلات لمواجهة قوات لا قبل لها بها . ولكن هذه العجلات المبعثرة ستعاون رماتنا المحصنين على إصابة فرسان العدو وجياده ، وليس من شك فى أن أبو فيس سيبدأ هجومه بالعجلات ، لأن فرق الجيش الأخرى لا تلتقى حتى يفصل فى معركة العجلات ، فليكن همنا موجها إلى إصابة عجلات الرعاة بالعجز ، حتى تمكن لفرق جيشنا التى لا تقاوم بخوض المعركة والقضاء على عدونا » .

وكانت فكرة القضاء على عجلات العدو حلمه الذى يهيم به ، وكان يدعو ربه آمون فى صدق ورجاء قائلا : أيها الرب المعبود ، اقض لنا بالغلبة على هذه العقبة .. وانصر أبناءك المؤمنين ، فلئن تخذلهم اليوم لن يذكر اسمك فى مثواك المكرم ، وتغلق أبواب معبدك المطهر .. » .

وركب الملك عجلته ، وفعل القائد بيبى مثله ، وأحاط بهما الحرس الفرعونى ، ووقف خلفهما مائة عجلة حربية ، ثم تقدمت فرقة الرماح ورصت صفوفها إلى يمين الملك وإلى شماله ، وكان الجميع ينتظر أن يدعى إلى القتال بعد أن تقوم قوات الرماة والعجلات التى تؤيدها بواجبها الأول .

وحين أخذت تبدو بشائر النور ، جاء رجل من الكشافة وأبلغ الملك أن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول الرعاة فى معركة حامية شمال كيتوس ، فقال الملك لقائد جيشه :

— إن أبو فيس يدرك ولا شك أنه سيلقى مقاومة عنيفة ، ولذلك أمر أسطوله بالهجوم ليتمكن من إنزال جنود وراء مواقعنا .

فقال القائد بيبى :

— إن الرعاة يا مولاى لا يتقنون فن القتال على سطوح السفن ، وسيبتلع النيل المقدس جثث جنودهم ، ويبتلع أمل أبو فيس فى حصارنا .

كانت ثقة سيكننرع فى رجال أسطول طيبة عظيمة ، ولكنه أوصى قائد الكشافة أن يكون على اتصال دائم بميدان المعركة البحرية،وجعل الظلام ينقشع والصبح يسفر ، والميدان يتجلى للأعين الفاحصة ؛ فرأى سيكننرع جنوده الرماة والقسى فى أيديهم ، والعجلات المعدودة تتحفز إلى جانبهم للقتال ، ورأى فى الناحية الأخرى جيش الرعاة ينتشر انتشار الغبار الثائر . وكان العدو ينتظر سفور الصبح ، فما عتمت أن تحركت قوات العجلات استعدادا للمعركة ، ثم انقضت قوات منها على بعض الأماكن المحصنة الأمامية فتطايرت السهام وصهلت الخيل وصرخ المتقاتلون ، وتدافعت قوات أخرى فاشتبكت مع الرماة المصريين وبعض العجلات المصرية فى قتال عنيف ، فصاح سيكننرع :

— الآن تبدأ معركة طيبة .

فقال بيبى بصوت قوى النبرات :

— نعم يا مولاى ، وقد بدأ جنودنا بدءا حسنا .

وصوبت الأبصار جميعا إلى الميدان تشاهد سير المعركة ، فرأوا عجلات الرعاة تهاجم صفا ثم تتفرق جماعات شتى ، وتهجم على الرماة بعنف وسرعة ، وتنقض على ما يعترض لها من العجلات المصرية ، وكان القتلى يسقطون من الجانبين سراعا فى استبسال وشجاعة ، وبدت قوة الرماة وشدة بأسهم ، فكانوا يثبتون للهاجمين ويصيدون فرسانهم وجيادهم ويفتكون بهم فتكا ذريعا ، حتى صاح بيبى قائلا :

— لو دام القتال على هذا النحو ، فسنتفوق على فرقة العجلات فى أيام قلائل

على أن قوات الرعاة كانت تهجم وتقاتل ، ثم ترتد إلى معسكرها وتنقض غيرها كي لا تنهك قواها ، على حين كان المصريون يدافعون دون سكوت أو راحة وهم ثابتون فى مراكزهم ، وكان سيكننرع كلما رأى فارسا من فرسانه أو عجلة من عجلاته تتعطل ، يصيح غاضبا : واأسفاه ، ويدرك أتم إدراك ما ينزل بجيشه من الخسارة ، وأخذ عدد الوحدات التى يهجم بها الرعاة يتضاعف ، كانوا يهجمون ثلاثا ثلاثا ، ثم هجموا ستا ستا ، ثم عشرا عشرا . واشتد القتال وحمى وطيسه ، واطرد عدد عجلات الهكسوس فى الزيادة ، حتى ساور سيكننرع القلق ، وقال لبيبى :

ـــ لا بد من مواجهة زيادة قوات العدو بما يعيد إلى الميدان اتزانه .

ـــ ولكن يا مولاى ينبغى الاحتفاظ بعجلاتنا الاحتياطية حتى آخر الموقعة .

ـــ ألا ترى أن العدو يكر علينا كل فترة يسيرة بقوات جديدة متحفزة للقتال ؟..

ـــ إنى أدرك الخطة يا مولاى ، ولكننا لا يمكن أن نجاريه فيها لوفرة عجلاته الاحتياطية وقلة عجلاتنا ..

فصر الملك بأسنانه وقال :

ـــ لم نكن نتوقع قط أن تكون له هذه الغلبة فى العجلات ، ومهما يكن فلا يمكننى أن أترك الرماة بلا نجدة ، فليس فى جيشى رماة سواهم ..

وأمر الملك بهجوم عشرين عجلة فى خمس وحدات ، فانقضت كالنسور الكواسر ، وبعثت فى الميدان حياة جديدة ، ولكن أبو فيس أراد أن يرد على حملة سيكننرع الجديدة ردا قاسيا ، فأرسل إلى الميدان عشرين وحدة قوام كل وحدة خمس عجلات ، فزلزلت الأرض بصلصلتها ، وملأت الفراغ بجبال من غبار ثائر ، واستطارت المعركة وجرت الدماء كالنهر .. وتقدم الوقت وهى لا تهدأ أو تخف وطأتها حتى توسطت الشمس كبد السماء . وجاء بعد ذاك رجال الكشافة وآذنوا الملك بارتداد أسطول الرعاة بعد أن فقد فى الأسر سفينتين ، وغرقت له

سفينة أخرى ، فجاء نبأ النصر فى وقته ليشد من عزيمة المصريين ويثبت قلوبهم ، وأذاعه الضباط فى الفرق المقاتلة والتى تنتظر أن يجىء دورها فى الكفاح ، فكان له صدى فرح فى الصدور ، وفورة حماس فى القلوب ، ولكن صك ذاك الخبر آذان أبو فيس كذلك فاستولى عليه الغضب ، وغير خطته البطيئة فى الحال ، وأصدر أمره إلى قوة العجلات بالهجوم والانتقام .. ورأى سيكننرع سيلا عرمرما من العجلات ينقض على رماته البواسل من كل مكان ، وينشب فيهم أظافره الحادة . وارتاع الملك أيما ارتياع ، وصاح قائلا بغضب شديد :

— إن قواتنا التى نهكها النضال الدائم ، لا يمكن أن تثبت وحدها لهذا السيل من العجلات ..

ثم التفت إلى قائد جيشه ، وقال بعزم وإصرار :

— سنخوض معركة فاصلة بالقوات التى بين أيدينا ، فمر ضباطنا البواسل بالهجوم بفرقهم ، وبلغهم رجائى أن يقوم كل بواجبه جنديا من جنود طيبة الخالدة .

وكان سيكننرع يدرك الهول الذى ينتظره وجيشه ، ولكنه كان رجلا باسلا عظيم الإيمان ، فلم يتردد لحظة ونظر إلى السماء وقال بصوت صافى النبرات : « أيها الرب آمون لا تنس أبناءك المخلصين » . ثم أصدر أمره إلى قوة العجلات المحيطة به بالهجوم ، واندفع أمامها ليلقى عدوه ..

وبدأت معركة من أشد المعارك هولا ، علا فيها الصراخ والصهيل وتطايرت الخوذ ، وتساقطت الرءوس . وجرت الدماء ولكن لم تجد بسالة المصريين شيئا فى مقاومة العجلات السريعة المدرعة ، ففتكت بهم فتكا ذريعا ، وحصدتهم حصدا كالهشيم ، وقاتل سيكننرع قتالا مجيدا غير يائس ولا متخاذل ، وبدا ساعة كأنه رب الموت يختار له من يشاء من عدوه . واستمرت المعركة حتى الأصيل وهناك بدت الغلبة فى صف الرعاة ، فتحفزوا ليضربوا الضربة القاضية ، وهجمت عجلة كبيرة تحرسها قوة عظيمة يقودها فارس شديد البأس طويل

اللحية ناصع البياض ، على عجلة سيكننرع ، وشقت إليه الصفوف ببسالة خارقة . وأدرك الملك غرض الفارس الجسور ، فهرع نحوه حتى تواجها ، ثم تبادلا ضربتين هائلتين برمحيهما ، فتلقى كل منهما الضربة الموجهة إليه بترسه وتحفز للقتال . ورأى سيكننرع غريمه يسل سيفه ، فعلم أنه لم يقنع بتجربة حظه ، فسل سيفه واندفع نحوه ، وفى تلك اللحظة الرهيبة استقر سهم فى ساعده ، فارتعشت يده وسقط منها السيف .. وصاح كثير من حرس الملك : « حذار يا مولاى .. حذار » ولكن الغريم كان أسرع إليه من الحذر ، فوجه إلى عنقه ضربة هائلة بأقصى قوته ، فأصابت هدفها ، وارتسم على الوجه الأسمر أبلغ الألم ، وتوقف مقهورا عن المقاومة . فقبض عدوه بيمناه على رمح ورشقه بقوة ، فاستقر فى جانب الملك الأيسر ، وترنح على أثره ذاهلا وسقط على الأرض .. وتعالى الصياح من كل جانب ، فقال المصريون : « رباه .. لقد سقط الملك .. دافعوا عن مليككم .. » وصاح قائد العدو وهو يبتسم ابتسامة الظافر : أجهزوا على المتمرد العاصى ، ولا تبقوا على أحد من رجاله » . فاشتد القتال حول جسد الملك الملقى ، وانقض عليه فارس حقود . ورفع بلطة حادة ، وهوى بها على رأسه فأطاح عنه تاج مصر المزدوج ، وتفجر منه الدم كالينبوع ، وثنى بضربة أخرى فوق العين اليمنى ، فحطمت العظام وتناثر المخ فى حالة بشعة ، وأراد كثيرون أن يصيبوا من تلك المأدبة الدموية ما يشفون به غلهم ، فتكالبوا على الجثة ووجهوا إليها طعنات مجنونة قاسية ، أصابت العينين والفم والأنف والخدين والصدر ، فمزقت الجثة وأغرقتها فى بحر من الدماء ..

وكان بيبى يقاتل على رأس من بقى من جنوده ، مدافعا قوات العدو المتدفقة على البقعة التى سقط فيها مولاه . واستيأس القوم فى القتال ، وهانت عليهم الحياة ، وعزموا جميعا على الاستشهاد فى المكان الذى ارتوى بدماء مليكهم الباسل ، فما زالوا يسقطون رجلا إثر رجل حتى أدركهم المساء ، ولبس الكون الحداد ، فكف الفريقان عن القتال ، وقد نهكهم التعب وأثخنتهم الجراح .

١١

وخرج الجنود بالمشاعل يبحثون عن قتلاهم وجرحاهم ، وكان القائد بيبى واقفا إلى جوار عجلته بعد أن نال الإعياء منه كل منال ، يتجه قلبه إلى الجثة التى خضبت دماؤها الزكية الميدان ، فسمع صوت قائد يقول :

ــ يا للعجب .. كيف انتهت الموقعة العظيمة بمثل هذه السرعة .. من يصدق أننا فقدنا جل قواتنا فى نهار واحد .. كيف أمكن التغلب على جنود طيبة الأشداء ...؟!

فقال له صوت آخر كان من الإعياء كالحشرجة :

ــ إنها العجلات التى لا تقاوم .. لقد حطمت آمال طيبة جميعا ..

فناداهم القائد بيبى قائلا :

ــ أيها الجنود .. هل أديتم ما عليكم نحو جثة سيكننرع ؟... هلموا نبحث عنها بين الجثث ..

فسرت قشعريرة فى نفوسهم المتهالكة ، وأخذ كل منهم مشعلا وتبعوا بيبى صامتين يعقد ألسنتهم حزن عميق ، وتفرقوا فى البقعة التى سقط فيها الملك ، تصك آذانهم أنات الجرحى وهذيان المحمومين ، وكان بيبى لا يكاد يرى ما بين يديه من الحزن والألم ، ولا يكاد يصدق أنه يبحث حقا عن جثة سيكننرع ، ويكبر عليه أن يسلم بأن موقعة طيبة قد انتهت هذه النهاية الأسيفة ، وكان يقول والدموع تطفر من عينيه : « اشهدى يا أرض كبتوس واعجبى .. إننا نبحث عن جثة سيكننرع بين كثبانك .. ألا رفقا بها ، ولتكونى فراشا وثيرا لأضلعها المصابة ، ألم تسقط فداء لك ولأرض طيبة !.. واها يا سيدى .. من لطيبة بعدك ؟.. من لنا غيرك ؟.. » وظل فى حيرته قليلا ثم سمع صوتا يصيح قائلا :

« أيها الرفاق تعالوا .. هاكم جثة مولانا » . فجرى صوبه والمشعل فى يده . فزعة عيناه من الهول الذى ستراه ، ولما بلغ مكان الجثة فرت من فمه صرخة مدوية ، امتزج فيها الألم بالغضب . رأى ملك طيبة كتلة مشوهة من لحم ممزق وعظام بارزة ودم مسفوح والتاج ملقى إلى جانبه ، فصاح غاضبا : « يا للغربان الدنية .. لقد فعلوا ما قد تفعل الذئاب بجثة الأسد الهصور ، ولن يضيرك أن يمزقوا جسدك الطاهر ، فقد حييت كما ينبغى للملك من ملوك طيبة أن يحيا ، ومت ميتة البطل الباسل .. » وصاح فيمن حوله ممن أذهلهم الحزن : « أحضروا الهودج الملكى . هيا يا نيام » وأتى بعض الضباط بالهودج ، واشتركوا جميعا فى رفع الجثة ووضعوها عليه ، ورفع بيبى تاج مصر المزدوج ووضعه إلى جانب رأس الملك ، ثم سجى الجثة ، وحملوا الهودج فى صمت أليم ، وساروا به نحو المعسكر المهيض الجناح ، ووضعوه فى الخيمة التى فقدت حاميها وسيدها إلى الأبد ... وكان جميع القواد والضباط الذين نجوا من الموت يقفون حول الهودج منكسى الأذقان ، ترهقهم كآبة ، ويغشى أبصارهم حزن عميق ، فالتفت إليهم بيبى بصوت قوى النبرات :

ـــ أفيقوا أيها الرفاق ولا تستسلموا للحزن ، فليس الحزن بمعيد سيكننرع إلينا ، ولعله ينسينا واجبنا نحو جثته ونحو أسرته ونحو وطننا الذى قتل من أجله ، لقد وقعت الواقعة ، ولكن المأساة لم تتم فصولها ، فينبغى أن نثبت فى مراكزنا حتى نؤدى واجبنا كاملا .

فرفع الرجال رءوسهم ، وأصروا بأسنانهم صرير العزم والقوة ، ونظروا إلى قائدهم نظرة كأنما يعاهدونه بها على الموت ، فقال بيبى :

ـــ إن الشجاع الحق من لا تنسيه الكوارث واجبه ، وقد يكون من الحق أن نقر بأننا خسرنا موقعة طيبة ، ولكن واجبنا لم ينته بعد ، وعلينا أن نثبت أننا أهل للميتة الشريفة ، كما كنا للحياة الشريفة .

فصاحوا جميعا قائلين :

ـــ لقد ضرب لنا مليكنا المثل الأعلى ، وسوف نتبع أثره .

فتهلل وجه بيبى وقال بسرور :

ـــ حييتم من جنود بواسل ، والآن اصغوا إلى ؛ لم يبق من جيشنا إلا أقله ، ولكننا سنخوض المعركة غدا على رءوسهم حتى آخر رجل ، وسيكون من جراء قتالنا أن نعوق تقدم أبو فيس حتى تتهيأ فرص النجاة لأسرة سيكننرع ، فما دام أفراد هذه الأسرة على قيد الحياة ، فالحرب بيننا وبين الرعاة لن تنتهى ، وإن سكنت فى الميادين إلى حين. سأفارقكم بعض يوم لأؤدى واجبى نحو هذه الجثة ونحو ذريتها الباسلة ، ثم أعود إليكم قبل مطلع الفجر ، لنموت معا فى ميدان القتال .

طلب منهم أن يصلوا جميعا أمام جثة سيكننرع ، فجثوا وجثا واستغرقوا فى صلاة حارة ، وختم بيبى صلاته قائلا :

ـــ أيها الرب الرحيم ، تغمد مليكنا الباسل برحمتك فى جوار أوزوريس ، واكتب لنا ميتة سعيدة كميتته . كى نلقاه فى العالم الغربى بوجوه لا يخزيها لقاؤه .

ثم نادى بعض الجنود وأمرهم بحمل الهودج إلى السفينة الفرعونية، والتفت نحو رفاقه وقال :

ـــ أستودعكم الرب وإلى اللقاء القريب .

سار خلف الهودج حتى وضعوه فى المقصورة ، ثم قال لهم :

ـــ حين تبلغ بكم السفينة طيبة ، سيروا به إلى معبد آمون ، وضعوه فى البهو المقدس ، ولا تجيبوا من يسألكم عنه حتى أوافيكم .

وعاد القائد إلى عجلته ، وأمر السائق بالمسير إلى طيبة ، فانطلقت بهما تنهب الأرض نهبا ..

* * *

وكانت طيبة تسلم جفونها للنوم ، تحت ستار الظلام الذى يغشى معابدها ومسلاتها وقصورها ، فى غفلة عما يقع خارج أسوارها من الأحداث الجسام ،

فاتخذ سبيله رأسا إلى القصر الفرعونى ، وأعلن الحرس حضوره ، فجاء رئيس الحجاب على عجل ، ورد تحيته ، وسأله بقلق :

ـــ ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال بيبى بلهجة دلت على الجزع :

ـــ ستعلم كل شىء فى حينه أيها الحاجب الأكبر ، والآن استأذن لى فى المثول بين يدى ولى العهد ...

فغادر الحاجب الحجرة غير مرتاح البال ، ثم عاد بعد زمن قصير وهو يقول : « إن صاحب السمو ينتظرك فى جناحه الخاص » . فمضى القائد إلى جناح ولى العهد وأدخل عليه فى بهو الاستقبال . وسجد بين يديه ، وقد أدهشت الزيارة غير المتوقعة الأمير . فلما رفع بيبى رأسه ورأى الأمير وجهه الشاحب ، وعينيه الذابلتين ، وشفتيه الممتقعتين ، ساوره القلق ، وسأل كما سأل حاجبه من قبل قائلا :

ـــ ماذا وراءك أيها القائد بيبى ؟... فلا بد من أمر جلل دعاك إلى مفارقة الميدان فى هذه الوقت ؟..

فقال القائد بصوت دلت لهجته على الحزن والكآبة :

ـــ مولاى ، ما تزال الآلهة ـــ لأمر تخفى على حكمته ـــ غاضبة على مصر وأهلها ...!

فوقع هذا الكلام من نفس الأمير موقع اليد القابضة من العنق ، وأدرك ما يدل عليه من الأخبار المحزنة فتساءل فى قلق وجزع :

ـــ هل أصيب جيشنا بكارثة ؟... هل يطلب والدى مددا ؟.

فأطرق بيبى وقال بصوت خافت :

ـــ وأأسفاه يا مولاى ، لقد فقدت مصر راعيها مساء هذا اليوم الكئيب .

ففزع الأمير كاموس قائما ، وصاح به :

ـــ هل أصيب والدى حقا ؟.

فقال بيبى بصوته الثقيل الحزين :

— سقط مليكنا سيكننرع وهو يقاتل على رأس جنوده قتال الأبطال الجبابرة .

وانطوت تلك الصفحة النبيلة الخالدة من سجل أسرتكم العظيمة .

فقال كاموس وهو يرفع رأسه :

— رباه ... كيف تمكن لعدوك من ابنك المخلص ... رباه ما هذه الكارثة التى تنزل بمصر . ولكن ما جدوى التشكى ؟ ليس هذا وقت البكاء . لقد سقط والدى فينبغى أن أحل محله ... صبرا أيها القائد بيبى حتى أعود إليك فى لباسى الحربى .

ولكن القائد بيبى قال بسرعة :

— لم اجىء إلى هنا يا مولاى لأدعوك إلى القتال ، لقد قضى الأمر واأسفاه ..

فحدجه بنظرة حادة قاسية ، وسأله :

— ماذا تعنى ؟.

— لا فائدة ترجى من القتال ...

— هل قضى على جيشنا الباسل ؟..

فأطرق بيبى وقال بحزن شديد :

— خسرنا المعركة الفاصلة التى كنا نرجو أن نحرر بها مصر ، وتحطمت قوة جيشنا الأساسية ، ولن ترجى فائدة حقة من القتال ، ولن نقاتل إلا لكى نفسح لأسرة مليكنا الشهيد وقتا للنجاة ..

— أتريد أن تقاتل حتى نفر فرار الجبناء ، تاركين جنودنا وبلادنا فريسة للعدو ؟...

— بل فرار الحكماء الذين يقدرون العواقب وينظرون إلى المستقبل البعيد ، ويسلمون بالهزيمة إذا وقعت ، ثم ينسحبون من الميدان إلى حين ، ثم لا يلبثون أن يجمعوا قواهم المبعثرة ويحملوا على عدوهم عودا على بدء ... مولاى تفضل وادع

ملكات مصر ، وليكن الأمر شورى ...

ودعا الأمير كاموس حاجبا ، وأرسله فى طلب الملكات ، ومضى يتمشى جيئة وذهابا يتناوبه الحزن والغضب ، والقائد واقف بين يديه لا ينبس بكلمة ، وجاءت الملكات : توتيشيرى وأحوتبى فستكيموس مسرعات ، وحين وقعت أبصارهن على القائد بيبى وقد انحنى لهن تحية ، ورأين الكدر مرتسما على وجه كاموس بالرغم من تظاهره بالهدوء ، شعرن بخوف واضطراب ، وزاغت أبصارهن ، وكان كاموس جزعا فدعاهن إلى الجلوس ، وقال :

ــ سيداتى .. دعوتكن لأقص عليكن أنباء أسيفة ..

وتريث لحظة كى لا يفاجئهن ، ولكنهن فزعن ، وقالت توتيشيرى بقلق :

ــ ماذا وراءك أيها القائد بيبى ؟.. كيف حال مولانا سيكننرع ؟..

فقال كاموس بصوت متهدج :

ــ جدتاه ... إن قلبك لذكى الشعور ، صادق الحدس ... فليثبت الله قلوبكن ، ويعنكن على تحمل الخبر الفاجع ... لقد قتل أبى سيكننرع فى الميدان ، وخسرنا المعركة ...

وعطف رأسه عنهن حتى لا يرى آلامهن ، وقال وكأنه يحادث نفسه المكلومة :

ــ قتل أبى وهزمت جيوشنا ، وقضى على قومنا أن يعانوا الآلام جميعا ، من أدنى الجنوب إلى أقصى الشمال ...

ولم تتمالك توتيشيرى فزفرت زفرة حرى كأنما مجت بها فتات كبدها ، ووضعت يدها على قلبها وهى تقول :

ــ ما أشد جرح هذا القلب العجوز ..!

أما أحوتبى وستكيموس فقد ثقل رأساهما ، ووكفت أعينهما دمعا ساخنا ، ولولا وجود القائد بينهما لانتحبتا انتحابا عاليا .

ووقف بيبى وسط ذاك الحزن الشامل صامتا ، مجروح الصدر ، مضعضع

الحواس جميعا ، وكان يحزنه أن يضيع الوقت سدى ، وخشى أن تفلت من أسرة مولاه فرصة الهرب فقال :

— يا ملكات أسرة مولاى كاموس ، تجلدن وتصبرن ، فإنه وإن كان الخطب أكبر من العزاء ، فإن الساعة أولى بالحكمة وعدم الاستسلام للحزن ، أستحلفكن بذكرى مولاى الشهيد أن تكفكفن دموعكن ، بالصبر ، وتحزمن أمتعتكن ، فليست طيبة بالمثوى الأمين غدا ...

فسألته تويتشيرى قائلة :

— وجثة سيكننرع ؟

— فلتطمئن نفسك يا مولاتى ، سأؤدى واجبى نحوها كاملا ...

فسألته مرة أخرى :

— وإلى أين تريد أن نذهب ؟

— مولاتى ، ستقع مملكة طيبة بين يد الغزاة إلى حين ، ولكن لنا وطن آخر أمين فى بلاد النوبة ، ولن يطمع الرعاة فى النوبة لأن الحياة فيها جهاد يشق على نفوسهم المترفة ، فلتكن لكم مهجرا آمنا ، لكم فيه أنصار من قومنا وأتباع من جيراننا ، وهنالك يعاودكم التفكير فى هدوء ، فترعون أمل المستقبل الجديد ، وتتعهدونه بالصبر والبسالة ، حتى يأذن الرب فيشق سنا النور البهيج ظلمات هذا الليل الدامس ..

وكان كاموس يصغى إليه من هدوء وسكينة ، فقال له :

— فلتهاجر الأسرة إلى بلاد النوبة ، أما أنا فأوثر أن أسير على رأس جيشى أقاسمه حظه فى الحياة أو الموت .

فساور القلق القائد ، ونظر إلى مولاه بعين رجاء وتوسل ، وقال :

— مولاى ، لن أستطيع أن أثنيك عن إرادة تريدها ، فلأكل الأمر إلى حكمتك ، ولا أسألك إلا أن تصغى إلى قليلا ...

مولاى ، إن القتال اليوم عبث ضائع ، ومعناه الهلاك المبين ، ومصر لن تنتفع

بموتك ، ولا موتك بمخفف عنها بعض آلامها ، ولكنها بغير شك تخسر بفقدان حياتك خسارة لا تعوض ... إن كل أمل فى النجاة منوط بحياتك ، فلا تحرم مصر الأمل بعد أن حرمت السعادة ... فاجعلوا « نباتا » هدفكم ، وشدوا إليها الرحال ، وهناك يتسع لكم المجال للتفكير والتدبير وإعداد وسائل الدفاع والكفاح . لن تنتهى هذه الحرب كما يتمنى أبو فيس ، فلا يتسنى لشعب كشعبنا عاش سيدا كريما ، أن يطرق على الذل طويلا . ولسوف تحرر طيبة يا مولاى فى تاريخ قريب : ولن تقف بك الحماسة عند حد ، فتطارد الرعاة القذرين حتى تطردهم من وطنك .. إن سنا ذاك اليوم الأغر يتخايل لعينى فى ظلمات الحاضر الكئيب ، فلا تتردد واعزم عزمة الحكمة . والآن وقد بينت لك نهج الحق ، فاقض بما أنت قاض ..

وكف بيبى عن الكلام ، وما كفت عيناه عن التوسل والرجاء ، وتحولت توتيشيرى إلى كاموس ، وقالت بصوت خافت :

ـــ لقد نطق القائد بالحق فاتبع قوله .

فأحس القائد البائس بندى الأمل ، وانتعش فؤاده بالفرح ، ووجم كاموس ولم ينبس بكلمة ، فقال بيبى وكان يكذب أول مرة فى حياته :

ـــ أما أنا يا مولاى فسألحق بكم بعد حين .. فأمامى واجبان مقدسان : أن أعنى بجثة مولاى ، وأن أشرف على تحصين أسوار طيبة ، لعلها بالمقاومة الناجحة تساوم على التسليم بأحسن الشروط .

ولم تتمالك الملكات فأجهشن بالبكاء ، وغلب التأثر بيبى فقال :

ـــ ينبغى أن نواجه محنتنا بشجاعة ، وليكن لنا فى سيكننرع أسوة حسنة ، ولنتذكر دائما يا مولاى أن العجلات الحربية هى سبب هزيمتنا ، فإن كررت يوما على العدو ، فلتكن العجلات عتادك . والآن سأذهب لأدعو العبيد إلى حمل الثمين الغالى من ذهب القصر وسلاحه ، مما لا غنى عنه ..

نطق القائد بيبى بهذه الكلمات ، ثم ذهب ..

١٢

وانبعثت فى القصر حركة نشاط شاملة ، وأضيئت حجراته جميعا ، ومضى العبيد يحملون الثياب والسلاح وصناديق الذهب والفضة ، ويذهبون بها إلى السفينة الفرعونية فى سكون محزن ، تحت رقابة رئيس الحجاب ، وكانت الأسرة الفرعونية فى أثناء ذلك تنتظر فى حجرة الملك كاموس ، تشملها الكآبة والصمت ، ينكس أفرادها النبلاء رءوسهم ، مظلمة أعينهم من اليأس والحزن ، ولبثوا على حالهم ما لبثوا ، حتى دخل عليهم الحاجب حور ، وقال بصوت خافت :

ــ انتهى كل شىء يا مولاى .

ووقعت كلمة الحاجب من آذانهم موقع السهم من العنق ، فخفقت قلوبهم ، ورفعوا وجوههم ذاهلين ، وتبادلوا نظرات القنوط والكمد . أحقا انتهى كل شىء .. وهل أزفت ساعة الوداع ؟... أهذا آخر العهد بالقصر الفرعونى ، وطيبة المجيدة ، ومصر الخالدة ؟.. وهل يحرم عليهم غدا أن يروا مسلة أمنمحعت ، ومعبد آمون ، والسور ذا الأبواب المائة ؟.. أتضيق بهم طيبة اليوم ، وتفتح أبوابها غدا لأبو فيس يعتلى عرشها ويتحكم فى الرقاب ؟!. كيف يغدو الهداة ضالين ، والسادة فارين ، وأصحاب الدار مهاجرين ؟.

ورآهم كاموس لا يتحركون ، فقام فى تثاقل وتمتم قائلا بصوت خافت : « هلموا نودع حجرة أبى » . فقاموا قومته ، وسارت الأسرة فى خطى ثقيلة متخاذلة إلى حجرة الملك الراحل ، ووقفوا أمام بابها المغلق متهيبين لا يدرون كيف يقتحمونه دون إذن ، ولا كيف يلقونها مهجورة . وتقدم حور خطوة وفتح الباب ، فدخلوا تسبقهم أنفاسهم المترددة وزفراتهم الحارة ، وعلقت

أبصارهم فى رفق وحنان بالديوان العظيم ، والمقاعد الوثيرة ، والمناضد الأنيقة ، وهامت أرواحهم حول مصلى الملك ، والمحراب الجميل الطاهر وقد نحتت عليه صورته جاثيا أمام الرب آمون ، فخالوه جميعا جالسا على ديوانه ، متكئا على وسادته ، يبتسم إليهم ابتسامته الحلوة ، ويدعوهم إلى الجلوس ، وأحسوا جميعا روحه تغمرهم وتطوف بهم ، فحلقت أرواحهم الحزينة فى سماء الذكريات ، ذكريات الأمومة والزوجية والبنوة ، اختلطت آثارها بتنهدهم العميق ودمعهم المسيل ..

ثم تنبه كاموس إلى القلوب المنصهرة من حوله ، فدنا من صورة أبيه وانحنى لها بإجلال ، ولثم جبينها ، وتنحي جانبا ، فتقدمت توتيشيرى ومالت على الصورة الحبيبة ، وقبلتها قبلة أودعتها آلام قلبها الثاكل المحزون ، وودعت الأسرة جميعا صورة ربها المفقود ، ثم مضوا إلى الخارج فى صمت حزين كما دخلوا ..

ورأى كاموس الحاجب حور فى انتظارهم ، فسأله قائلا :

— وأنت يا حور ؟..

— إن واجبى يا مولاى أن أتبعكم كالكلب الأمين ..

فوضع الملك يده على كتفه شاكرا ، وتقدموا جميعا فى الردهات ذات الأعمدة ، يسير بين أيديهم القائد بيبى ، ويمشى كاموس فى طليعة أسرته ، يتبعه الأميران الصغيران أحمس ونفيرتارى ، فتوتيشيرى ، فالملكة أحوتبى ، ثم الملكة ستكيموس ، ويتبع الجميع الحاجب حور . وهبطوا الأدراج إلى ممر الأعمدة ، وانتهوا إلى الحديقة ، فسايرهم على الجانبين عبيد يحملون المشاعل ويضيئون لهم السبيل ، فبلغوا السفينة ، وانتقلوا إليها واحدا إثر واحد حتى شملتهم جميعا . وحم الفراق ، فألقوا نظرة الوداع ، تاهت أعينهم فى الظلام المخيم على طيبة كأنه يلفها فى ثوب حداد ، فتقطعت قلوبهم ، وتصدعت صدورهم وعصر ألم الحنين قلوبهم الكسيرة وشملهم الصمت فكأنهم ذابوا فى الظلام ووقف بيبى بين أيديهم لا ينبس بكلمة ، ولا يجرؤ على خرق هذا الصمت الحزين ، حتى تنبه الملك

لوجوده ، فتنهد وقال له :

— أزفت ساعة الوداع .

فقال بيبى بصوت متهدج حزين ، وهو يغالب عواطفه مغالبة شديدة :

— مولاى ، وددت لو أدركني الموت قبل أن أقف موقفي هذا ، فليكن عزائي أنكم تسيرون في سبيل الرب آمون وطيبة المجيدة ، وأرى أن ساعة الوداع قد أزفت حقا كما تقول يا مولاى ، فسيروا يحفظكم الرب برحمته ، ويكلأكم بعين رعايته ، وإني أرجو أن يمتد بي العمر حتى أشهد يوم عودتكم كما شهدت يوم هجرتكم ، كي يسعد قلبي برؤية طيبة العزيزة مرة أخرى .. الوداع يا مولاى .. الوداع يا مولاى ..

— بل قل إلى الملتقى ..

— نعم إلى الملتقى يا مولاى ..

واقترب من مولاه وقبل يده ، وكان ما يزال يغالب عواطفه كي لا يبل يدا كريمة بدمعه ، وقبل يد توتيشيرى ، والملكة أحوتبى ، والملكة ستكيموس ، وولى العهد أحمس ، وشقيقته الأميرة نيفرتارى ، ثم شد على يد الحاجب حور بمودة ، وحنى رأسه للجميع ، وغادر السفينة في سكون وذهول ..

وعلى أدراج الحديقة وقف يشاهد بدء تحركها وقد ضربت المجاديف في الماء ، وأخذت تبتعد عن الشاطئ على مهل وتؤدة كأنها تحس وطأة حزن من عليها ، وقد تجمعوا على حائطها ، تودع أرواحهم الخافقة طيبة .. وأفلت منه زمام نفسه فبكى .. واستسلم للبكاء حتى انتفض جسمه . وما زال يتبع السفينة العزيزة وهي تغوص في الظلمة حتى ابتلعها الليل .. ثم تنهد من أعماق صدره ، ولبث على حاله لا يدرى كيف يبرح الشاطئ ، وقد أحس وحشة كأنه هوى حيا إلى قبر عميق . ثم تحول عن موقفه ببطء وعاد إلى القصر بخطى بطيئة متثاقلة ، وكان يتمتم قائلا : مولاى .. مولاى .. أين أنت ؟ أين أنتم يا سادتى ؟. يا أهل طيبة ، كيف تهجعون والموت يحلق فوق رقابكم ؟. هبوا .. لقد قتل سيكننرع

وهاجرت أسرته إلى أقصى الأرض وأنتم نيام .. هبوا .. لقد خلا القصر من سادته .. وودع طيبة ملوكها .. وسيعتلى عرشكم غدا عدو لكم . كيف تنامون ؟. هبوا .. إن الذل وراء الأسوار ..

ثم أخذ القائد مشعلا ، وسار فى ردهات القصر حزينا واجما يتنقل من جناح إلى جناح ، فوجد نفسه أمام بهو العرش ، واتجه نحوه واجتاز عتبته وهو يقول : « معذرة يا مولاى عن دخولى دون إذن » وتقدم بخطى متخاذلة على ضوء مشعلة بين صفى المقاعد التى كانت تعقد عليها الأمور وتبرم ، إلى أن انتهى إلى عرش طيبة ، وجثا على ركبته ، ثم سجد وقبل الأرض بين يديه ، ثم وقف أمامه حزينا ، وضوء المشعل ينعكس على وجهه أحمر مرتعشا ، وقال بصوت جهير :

ــ حقا لقد انطوت صفحة جميلة خالدة ، وسنكون نحن الموتى غدا أسعد أهل هذا الوادى الذى لم يعرف الليل أبدا ، أيها العرش .. يحزننى أن أبلغك أن صاحبك لن يعود إليك ، وأن وريثك مضى إلى بلد بعيد ، وأما أنا فلن أسمح بأن تكون منزل وحى الكلمات التى تشقى مصر غدا ، فلن يجلس عليك أبو فيس ، ولتطو كما انطوى سيدك ..

وكان بيبى قد اعتزم أن يدعو جنودا من حرس القصر ، ليحملوا العرش إلى حيث يريد .

١٣

وحمل الجنود العرش كما أمروا ، ووضعوه على عربة كبيرة . وتقدمهم القائد إلى معبد آمون ، وهناك حملوا العرش مرة أخرى ، وساروا وراء قائدهم تسبقهم بعض الكهنة إلى البهو المقدس . وفى المثوى المقدس ، قريبا من قدس الأقداس ، رأوا الهودج الفرعونى محاطا بالجنود والكهنة ، فوضعوا العرش إلى جانبه ، وقد علت الدهشة وجوه الكهنة الذين لم يعرفوا من الأمر شيئا . وأمر بيبى الجنود بالانصراف ، وطلب حضور الكاهن الأكبر ، وغاب الكاهن زمنا يسيرا ، ثم عاد يتبع كاهن آمون الذى قدر خطر الزيارة الليلية فأتى مسرعا ومد يده للقائد وهو يقول بصوته الهادئ :

— طاب مساؤك أيها القائد .

فقال بيبى بلهجة دلت على الاهتمام والجزع :

— وطابت لياليك يا صاحب القداسة .. هل تأذن لى بالانفراد بقداستك ؟

وسمع الكهنة قوله فانسحبوا سريعا على تطلعهم وقلقهم حتى خلا المكان . وتنبه الكاهن الأكبر للهودج والعربة ، فبدا الانزعاج على وجهه ، وقال للقائد :

— ما الذى أتى بالعربة إلى هنا ؟.. وما هذا الهودج ؟.. وكيف تركت الميدان فى هذه الساعة من الليل ؟..

فقال بيبى :

— أصغ إلى يا صاحب القداسة ، فما من فائدة ترجى من التأنى ، أو من تهوين شأن ما نحن فيه ، ولكن ينبغى الإصغاء إلى حتى النهاية لأفضى إلى قداستكم بما عندى ، وأمضى إلى واجبى : لقد وقعت واقعة ستذكر إلى الأبد ، مصحوبة بالألم والفخار معا ، ولا عجب فقد خسرنا موقعة مصر ، وقتل مليكنا

وهو يدافع عن وطنه ، ومزقت الأيدى الغادرة جثته الطاهرة ، واضطرت أسرتنا الملكية إلى هجر طيبة ، وسيصحو أهل طيبة فلا يجدون أثرا لملوكهم ولا لمجدهم ..

مهلا يا صاحب القداسة مهلا .. لقد انتصف الليل أو كاد ، وواجبى يهيب بى أن أعجل . إن هذا الهودج يحمل جثة مليكنا سيكننرع وتاجه ، وإليك عرشه . هذا تراثنا القومى أعهد به إليك يا كاهن آمون . لكى تحفظ الجثة وتودعها مكانا أمينا ، وتحفظ هذه المخلفات فى مستقر حريز .. والآن أستودعك الرب يا كاهن طيبة ، التى لن تموت وإن أثخنتها الجراح .

وكان الكاهن قد هم أن يقاطع القائد من فرط انزعاجه ، ولكن القائد لم يمكنه ، فصمت صمتا ثقيلا ، وجمد جمودا مطلقا ، فكأنه فقد حواسه جميعا . وأدرك بيبى ما يعانيه الرجل من الذهول والألم ، فقال :

— إنى أستودعك الرب يا صاحب القداسة ، مطمئنا إلى أنك ستقوم بواجبك كاملا نحو المخلفات العزيزة المقدسة ..

وتحول القائد عنه إلى الهودج . وانحنى إجلالا حتى لثم غطاءه ، وأدى له التحية العسكرية ، ثم تقهقر إلى الوراء وقد حجبت مدامعه الهودج عن عينيه ، حتى بلغ السلم المؤدى إلى بهو الأعمدة ، فأدار ظهره وسار مسرعا لا يلوى على شيء إلى خارج المعبد ، وشعر بأنه قد آن له أن يلحق بضباطه وجنوده ، ليهجم معهم الهجوم الأخير كما عاهدهم .

على أن استغراقه فى واجباته لم ينسه أمرا ما تخايل لذاكرته حتى أحس له غمزا على قلبه لا يسكن ، ذكر أسرته ، إبانا زوجه وابنه الصغير أحمس ، وأهله جميعا الذين تضمهم مزرعته فى ضواحى طيبة . ما أطول السفر .. إنه لا يستطيع قطع الطريق إلى مزرعته فى الليل ، ولو فعل ما استطاع أن يفى بعهده لجنوده ولظنوه هاربا . فسيلقى حتفه دون أن يلقى نظرة وداع على وجه إبانا وأحمس .. وكان هنالك ما هو أثقل على قلبه من هذا ، وكان يتساءل محزونا : هل يترك الرعاة

صاحب أرض فى أرضه ، أو صاحب مال لماله ؟، سيشرد السادة غدا أو يقتلون فى ديارهم ، وستغدو إبانا وأحمس بلا نصير .. وضاق الرجل ، ونازعه قلبه طويلا إلى بيته وآله ، ولكن قلبه كان فى سبيل ، وإرادته الحديدية فى سبيل سواه .. وتنهد آسفا وهو يقول : « فلأكتب لها كتابا .. » وبسط على عجلته ورقة وكتب إلى السيدة إبانة يقرئها السلام ويستودعها الرب ، ويدعو لابنه بالخلاص والسعادة ، ثم قص عليها ما وقع من أحداث ، وما صار إليه الجيش ومليكه . وأخبرها بهجرة الأسرة المالكة إلى مكان مجهول — ولم يذكر النوبة لحكمة يريدها — ونصح لها أن تجمع ما تستطيع من ماله ، وتفر وابنها ومن يتبعها من الأهل والجيران إلى خارج طيبة ، أو إلى الأحياء الفقيرة ، حيث يختلطون بعامة الشعب ويشاركونهم مصائرهم . ثم باركها وبارك ابنه ، وختم كتابه بقوله : « سنلتقى حتما يا إبانا هنا أو فى العالم السفلى » وأعطى الكتاب سائقه ، وكلفه أن يذهب به إلى قصره الريفى ويسلمه إلى زوجه ، ثم قفز إلى عجلته وألقى نظرة أخيرة على معبد آمون والمدينة الهاجعة الغارقة فى الظلام ، وهتف من صميم قلبه :

« رباه .. احفظ بلدك .. الوداع يا طيبة .. » .

ثم أرخى العنان لجواديه ، فانطلقا به يعدوان فى طريق الشمال .

١٤

وبلغ القائد المعسكر بعد منتصف الليل ، وكان الجيش الجريح نائما ، فمضى إلى خيمته وارتمى على سريره فى إعياء وهو يقول : « فلنستجم قليلا لنموت ميتة تليق بقائد قوات سيكننرع » . وأغمض جفنيه . ولكن بعض أخيلة قامت غشاء كثيفا بين رأسه وبين النوم ، فتخايلت له أشباح الأهوال التى ابتلى بها فى نهاره وليله ، فرأى الرماة وهم يلقون العجلات المنصبة عليهم كالسيل ، ومولاه سيكننرع يسقط صريعا والرمح فى جانبه ، وكاموس يثور غاضبا ، ثم يسلم محزونا ، وتوتيشيرى تئن من جرح قلبها العجوز ، ووداع إبانا وأحمس الصغير ، وتلك السحب المتلبدة التى تتجمع فى أفق الجنوب .. ثم اختلطت الأخيلة فيما يشبه الموج ، ورقت وتهافتت بغير شعور منه ، فانساب النوم إلى جفونه .

واستيقظ حين الفجر على صوت النفير ، فقام يحس نشاطا غريبا لا يتفق وما لاقاه من إرهاق ونصب ونوم خفيف ، وبرح خيمته إلى الخارج ، فسمع فى سكون الفجر حركة تنتفض فى أنحاء المعسكر ، ورأى أشباح رجال تقبل نحوه عرف من أصواتهم ضباطه البواسل المخلصين ، فاستقبلهم استقبالا حارا ، وكانوا قد قاموا فى أثناء غيبته بعمل عظيم ، فقال رجل منهم :

ـــ أرسلنا الجرحى فى قوارب إلى طيبة ، وكذلك المصابين إصابات خفيفة ، لكى ينضموا إلى قوات الدفاع عن أسوار طيبة . وما من شك فى أن طيبة ستحسن الدفاع عن نفسها حتى تنال أحسن الشروط .

وقال له ضابط آخر شديد الحماسة :

ـــ إننا ـــ معشر أهل الجنوب ـــ تهون علينا الحياة فى أوقات المحن ، فما من رجل منا إلا نفد صبره فى انتظار المعركة الأخيرة .

وقال ثالث :

ـــ ما أشهى الاستشهاد إلى نفوسنا فى هذه البقعة المقدسة ، التى ارتوت بدماء مليكنا الزكية ...

فأثنى بيبى عليهم جميل الثناء ، وقص عليهم ما وقع فى طيبة من هجرة الأسرة الفرعونية ، ولكنه لم يذكر لأحد المكان الذى قصدت إليه . وقد بلغ التأثر بالضباط مبلغا عظيما ، وهتفوا لكاموس الملك ، وأحمس ولى عهده ، والأم المقدسة توتيشيرى ..

وولت ظلال الظلام ، وانعكس الضياء الوضاح على سماء الأفق ، فانتظمت صفوف الجنود تأهبا لمعركة الموت ، وكان ملك الرعاة يدرك ما حل بجيش المصريين بعد مقتل مليكهم ، فأراد أن يصعقهم بقوات تشل فيهم كل مقاومة فتأهب على رأس قواته من العجلات والرماة ، ليقضى بضربة واحدة على الجيش الصغير الذى يعترض سبيله .. وحين تراءى الجمعان ، بدأ القتال واتصل البحر المتلاطم بالجدول الصافى ، وأطبق جيش أبو فيس على الجيش المصرى ، ودارت عجلة الموت ، وبذل المصريون كل ما فى طاقة البشرية من بسالة وبطولة ، لكنهم تساقطوا سريعا بطلا فى إثر بطل ، وداستهم أرجل الخيل بقساوة ، وبدا لعينى بيبى أن المعركة تنتهى سريعا ، ولا سيما لما شاهده من مصارع كثير من القواد والضباط ، ورأى جناحه الأيمن يفنى فناء عاجلا ، والعدو يوشك أن يحيط بهم ، فأراد أن يختم حياته أكرم الختام ، وجال بنظره فى جيش عدوه ، فثبت على قلبه حيث يرفرف علم الهكسوس على أبو فيس وكبار قواده ـــ وبينهم قاتل سيكننرع بغير شك ـــ فجعله هدفه ، وأمر حرسه أن يتبعه ليدافع عن ظهره . ثم أمر سائقه بالاندفاع ، وكانت حركة مفاجئة لم يتوقعها العدو الحذر نفسه ، وتفادت عجلته مما تعرض لها من عجلات ، وأرسلت سهامها إلى قلوب الرماة ، ومضت تدنو من أبو فيس حتى فطن الأكثرون إلى غرضها ، فتصايحوا غضبا وخوفا ، وقاتل بيبى ومن معه قتال من جن بحب الموت . فتدلل عليهم الموت طويلا حتى

شقوا الصفوف إلى جبهة أبو فيس وقواده ، وهنالك وجد بيبى نفسه محاطا بفرسان العدو من كل جانب ، ورأى مئات من الرجال يحولون بين عجلته وبين الملك ، فقاتل قتالا عنيفا والدماء تسيل من وجهه وعنقه وساقيه ، حتى ظن عدوه أنه شيء لا يموت ، وتكالبت عليه السهام والرماح ، والسيوف والخناجر ، فسقط كما سقط سيكننرع لاحقا بحرسه البواسل ، وقد ضج الجيش من هجمته الهائلة . وكان القتال — فى الميدان — فى نهايته ، والمصريون يلفظون آخر أنفاسهم . فأمر أبو فيس بالابتعاد عن جثة الرجل الذى انقض عليه خلال صفوفه المتراصة ! ونزل من عجلته وترجل دانيا منه ، حتى وقف على رأس الجثة ، وجعل يتأمل السهام المنغرسة فى كل قطعة منه كشعر القنفذ ؛ ثم هز رأسه الكبير ضاحكا ؛ وقال لمن حوله :

— لقد مات ميتة جديرة بأشجع رجالنا ..

١٥

واستيقظت طيبة كعادتها لا تدرى عما سطر لها فى لوح الأقدار شيئا ، وإذا بالقرويين يحملون الجرحى آتين من الميدان ، فتجمع الناس حولهم ، وتكاثروا بالأسئلة عليهم ، وروى لهم هؤلاء الأنباء على حقيقتها فقالوا لهم إن الجيش هزم وفرعون قتل ، وهاجرت أسرته إلى مكان مجهول ، وذهل الناس وتبادلوا نظرات الإنكار والانزعاج ، وذاع الخبر فى المدينة فأشاع فيها الاضطراب والتقلقل ، ففارق الناس ديارهم ، وهرعوا إلى الطرق والأسواق ، وتجمعوا فى دور الحكومة ومعبد آمون ليأنسوا بالجماعة ويستمعوا إلى زعمائهم . أما أصحاب الضياع والقصور من النبلاء والأغنياء فقد هجروا ضياعهم وقصورهم مذعورين . وفروا جماعات إلى الجنوب أو اختفوا فى ثنايا الأحياء الفقيرة ..

وجاءت أخبار أسيفة أخرى عن سقوط قسى وشنهور ، وأن جيوش الرعاة تتقدم نحو طيبة لضرب الحصار حولها وإجبارها على التسليم . فاجتمع الوزراء والكهنة والقضاة الثلاثون فى بهو الأعمدة بمعبد آمون ، وتشاوروا فى الأمر ، وكانوا جميعا يدركون خطر الحال ويحسون دنو النهاية وعبث المقاومة . ولكنهم لم يميلوا إلى التسليم دون شرط أو قيد ، ورأوا أن يقوموا خلف أسوارهم المنيعة ، حتى ينالوا وعدا بحقن دماء الأهالى ، إلا أوسر آمون فكان شديد الحماسة فائر الغضب ، فقال لهم :

ـــ لا تسلموا طيبة أبدا ، ولنقاوم حتى نموت كمليكنا سيكننرع ، إن أسوار طيبة لا تقتحم ، وإذا هددت حقا فلنخرب المدينة ونشعل فيها النيران ، ولا نترك لأبو فيس شيئا منها ينتفع به .

وكان أوسر آمون يهدر غاضبا ، ويلوح بيديه كأنه يخطب ، ولكن الرجال

لم يتحمسوا لفكرته ، وقال نوفر آمون :

— نحن مسئولون عن حياة أهل طيبة ، وتدميرها يعرض الآلاف منهم للتشرد والجوع والبؤس ، فليكن هدفنا وقد خسرنا الموقعة أن نخفف الآلام ونحصر الدمار ..

وفى أثناء ذلك كان الزعاة يهاجمون السور الشمالى بغير هوادة ، والحراس يقاتلون عنه بثبات وبسالة ، والقتلى تسقط من الجانبين . وتفقد الوزراء الأسوار فاطمأنوا إلى المقاومة ، ولكن أسطول العدو هجم على الأسطول المصرى بعد أن جاءه مدد جديد ، ودارت معركة حامية انتهت بتحطيم الأسطول المصرى . وحاصر أسطول الرعاة غرب طيبة ، وأنزل جنودا كثيرين فى جنوبها ، فضرب حصاره الكامل حول المدينة ، وهجم عليها من الشمال والجنوب والشرق هجوما عنيفا ، وجاءت هزيمة الأسطول ضربة قاضية على كل أمل فى إطالة المقاومة ، وهددت المدينة العظيمة بالمجاعة والظمأ ؛ فلم ير الزعماء بدا من التسليم تفاديا من الكارثة العظمى ، وأوفدوا ضابطا يعلن وقف القتال ، ويستأذن فى قدوم رسول عن المدينة للتحدث فى شروط التسليم النهائية . وعاد الضابط بالموافقة ، فوقف القتال فى جميع الأسوار ، واختار الزعماء نوفر آمون كاهن آمون الأكبر ليكون رسولا .

وقبل الكاهن على غضاضة ، وركب عربته فسارت به نحو معسكر الرعاة مثقل الرأى كسير الفؤاد ، ومر فى طريقه بالفرق المختلفة متراصة الصفوف فى قوة وصلف وزهو ، تخفق عليها الأعلام من كل لون . ثم وقفت العربة فترجل فى سكون ، ووجد فى استقباله بعض الضباط يتقدمهم رجل قصير القامة بدين كثيف اللحية ، عرفه من النظرة الأولى ، فهو الرسول خيان نذير الشؤم الذى حل بحلوله الدمار بمملكة طيبة ، ولم يغب عنه ما فى استقباله من الشماتة المقصودة . وبدا الرجل صلفا متعجرفا مزهوا ، فنظر إلى نوفر آمون بمؤخر عينه ، وقال دون تحية :

ــ أرأيت أيها الكاهن إلى أى مصير انتهى بكم رأى أميركم ؟... إنكم تتحمسون كثيرا وتحسنون الكلام ، ولكن لا قبل لكم بالقتال ... ولقد قضى على مملكتكم بالزوال إلى الأبد ...

ولم ينتظر الحاجب كلاما فسار أمامه نحو خيمة الملك ، ورأى نوفر آمون الخيمة كالسرادق مسدلة عليها الستائر ، يقف أمامها الحراس البيض الغلاظ ذوو اللحى الطويلة .. ثم أذن له فدخل ، ورأى فى الصدر الملك أبو فيس فى زى الفراعين وعلى رأسه تاج مصر المزدوج ، وكان مهيب الطلعة حاد البصر أبيض مشربا بحمرة ، مسترسل اللحية جميلها ، وسط هالة من قواده وحجابه ومستشاريه ، فانحنى له الكاهن فى إجلال ، ووقف صامتا ينتظر أمره ، فقال الملك بلهجة ساخرة :

ــ أهلا بكاهن آمون الذى لن يعبد بعد اليوم بأرض مصر .

فأغضى الكاهن ولم ينبس بكلمة ، فضحك الملك ضحكة عالية وسأله بتهكم :

ــ أجئت تملى علينا شروطا ؟

فقال نوفر آمون :

ــ بل جئت أيها الملك لأستمع إلى شروطك ، كما ينبغى لزعيم قوم خسروا معركتهم وفقدوا مليكهم ، وليس لى سوى رجاء واحد أن تحقنوا دماء شعب ما شهر سلاحه إلا ذودا عن كيانه ..

فهز الملك رأسه الكبير وقال :

ــ يحسن بك أيها الكاهن أن تصغى إلى ، إن قانون الهكسوس لا يتغير على مدى الأيام والأجيال ، وهو سنة الحرب والقوة إلى الأبد . نحن بيض وأنتم سمر ، ونحن سادة وأنتم فلاحون ، فالعرش والحكومة والإمارة لنا ، فقل لقومك : من يعمل فى أرضنا عبدا فله أجره ، ومن تأب عليه نفسه فليول نفسه وجهة يرضاها فى غير هذه الأرض ، وقل لهم : إنى أهدر دم بلد كامل إذا امتدت يد بسوء إلى

أحد من رجالى . وإذا أردت أن أحقن دماء الناس — فيما عدا أسرة سيكننرع — فليأت إلى سادتكم بمفاتيح طيبة سجدا .. أما أنتم أيها الكهنة فعودوا إلى معبدكم وأغلقوا عليكم أبوابه إلى الأبد ...

و لم يرد أبو فيس أن تمتد المقابلة إلى أكثر من هذا ، فقام واقفا إيذانا بانتهائها ، فانحنى الكاهن مرة أخرى وفارق المكان .

وشربت طيبة الكأس حتى ثمالتها ، فحمل الوزراء والقضاة مفاتيحها وذهبوا إلى أبو فيس وسجدوا له .. وفتحت طيبة أبوابها ودخلها أبو فيس على رأس جيوشه الغازية الظافرة ..

وفى ذلك اليوم أهدر الملك دماء أسرة حاكم طيبة ، وأمر بإغلاق الحدود بين مصر والنوبة ، ثم احتفل بالنصر احتفالا عظيما اشتركت فيه الجيوش جميعا ، وقسم الأرض والأموال بين رجاله . فصار الجنوب ملك يده أرضا ورجالا .

بعد عشرة أعوام

١

انقشعت سحب الظلام عن زرقة الفجر الناعسة ، فتبدت صفحة النيل تتنفس نسائم الغسق ، تنحدر عليها قافلة من السفن تولى وجهها شطر حدود مصر شمالا . كان بحارتها نوبيين ، أما قائداها ــ اللذان جلسا بمقصورة السفينة المتقدمة ــ فكانا مصريين كما يدل لون بشرتهما الأسمر ، وقسماتهما الواضحة . وكان أولهما شابا لا يكاد يبلغ العشرين من عمره، حبته الطبيعة طولا فارعا، وقدا نحيلا دقيقا ، وصدرا عريضا متينا ، ينطق وجهه المستطيل بالنضارة والجمال الفائق ، وعيناه السوداوان بالصفاء والحسن ، وأنفه المستقيم الأشم بالقسوة والتناسق ، فهو من الوجوه التى أودعتها الطبيعة جلالها وجمالها معا ، يرتدى لباس التجار الأثرياء ، ويلف جسده الرشيق فى عباءة ثمينة ، قدت على صورة جسمه . وكان صاحبه شيخا فى الستين ، يميل إلى النحافة والقصر ، بارز الجبهة فى استواء وارتفاع ، تدل جلسته على الهدوء الذى يلازم الشيخوخة غالبا ، وأما نظرة عينيه فتنفذ إلى الأعماق .. وكان يبدو أن همه منصرف إلى العناية بالشاب ، أكثر مما هو منصرف إلى التجارة التى تحملها السفن ، فلما دنت القافلة من منطقة الحدود ، برحا المقصورة ومضيا إلى مقدمة السفينة ، يتطلعان بعينين مشوقتين جرى فيهما الحنين ، ثم سأل الشاب بحماس وجزع :

ــ هل ترى تطأ أقدامنا أرض مصر ؟. قل ماذا نحن فاعلون الآن ؟..

فقال الشيخ :

— نرسى القافلة على هذا الشاطىء ، ونبعث فى قارب رسولا إلى الحدود ، يبتغى لنفسه سبيلا يمهده بقطع الذهب ..

— إن اعتمادنا كله على ما عرف به القوم من طاعة الرشوة وتلبية نداء الذهب .. أما لو خاب ظننا ..

وسكت الشاب عن الكلام وقد لاح فى عينيه القلق ، فقال الشيخ :

— ما دام الظن سوءا فإنه لا يخيب مع هؤلاء القوم ..

وعدلت السفينة إلى الشاطىء ، فتبعتها القافلة وألقت مرساتها . واختار الشاب أن يكون هو مبعوث القافلة إلى الحدود ، وكان عظيم الحماسة قوى التصميم ، فلم يعترض الشيخ سبيله ؛ وانتقل إلى قارب وجدف بساعديه المفتولتين مفارقا القافلة نحو الحدود ، وتبعه الشيخ بعينيه وهو يقول برجاء مؤثر : « أيها الرب المعبود آمون .. هذا ابنك الصغير يسعى إلى وطنه وراء غرض نبيل ؛ أن يعز سلطانك ، ويرفع ذكرك ، ويحرر أبناءك ، فأيده يارب وانصره واحفظه .. » .

ومضى الشاب يجدف فى قوة ، وظهره إلى هدفه ، يستدير لينظر وراءه كل هنيهة وقد اضطرم صدره بالحنين ، وأحس لهواء الوطن وهو يدنو من جوه لذة جديدة ، خفق لها قلبه أيما خفقان ، ثم رأى فى إحدى التفاتاته سفينة حربية صغيرة تصعد نحوه معترضة سبيله ، فأيقن أن حراس الحدود تنبهوا له ، وجاءوا يتحققون من أمره . ودنا بقاربه من السفينة حتى سمع صوت الضابط الواقف فى مقدمها يصيح به : « كيف تدنو يا هذا من المنطقة الحرام ؟.. » .

فصمت الشاب حتى شارف القارب السفينة ، ثم حيا الضابط ذا اللحية تحية إجلال وتعظيم ، وقال متباهلا :

— باركك الرب ست أيها الضابط الباسل ، إنى قاصد وطنكم المجيد بتجارة ثمينة .

فقطب الضابط جبينه وقال بفظاظة :

ــ خسئت أيها الأحمق ، ألا تدرى أن هذا الطريق مغلق منذ عشرة أعوام ؟..

فأبدى الشاب الجميل دهشة ، وقال :

ــ وماذا يصنع إنسان مثلى جمع متاعا ثمينا ليتقرب به من فرعون مصر المعبود ورجال مملكته ؟... هلا أذنت لى بمقابلة حاكم جزيرة بيجة النبيل ؟.

فقال الضابط بوحشية :

ــ بل ستعود من حيث أتيت حيا ، إن لم ترغب فى أن تدفن حيث تثرثر ...

فأخرج الشاب من صدره حافظة من الجلد ملأى بقطع الذهب ، ورمى بها تحت قدمى الضابط قائلا :

ــ نحن فى بلادنا نحيى آلهتنا بتقديم الهدايا ، فاقبل تحيتى ورجائى .

فتناول الضابط الحافظة وفتحها ، وعبثت أنامله بقطع الذهب ، فاختلجت أجفانه ، وردد بصره بينها وبين الشاب بذهول . ثم هز رأسه كأنه لا يخفى حنقه على الفتى الذى ثناه عن رأيه قسرا ، وقال بصوت هادىء :

ــ إن دخول مصر ممنوع ، ولكن قد تستحق رغبتك الشريفة استثناءك من أمر المنع ، فاتبعنى إلى حاكم الجزيرة .

وابتهج الشاب ، واتخذ مجلسه مرة أخرى فى القارب ، وشد على المجداف بقوة ونشاط ، وانحدر متتبعا السفينة صوب شاطىء بيجة : ورست السفينة ثم القارب ، ووضع الشاب قدميه على الأرض فى حذر وإشفاق ، كأنما يدوس شيئا طاهرا مقدسا . وقال له الضابط مرة أخرى : « اتبعنى » . فتبعه على الأثر . وبالرغم من تشدده فى التسلط على أعصابه ، أفلت زمامه وتمشت فى حواسه نشوة ، وعصر قلبه حنين سماوى ، فخفق قلبه خفقانا شديدا متواليا ، وجعل من شدة اضطرام عواطفه يذهل سريعا . إنه فى أرض مصر . مصر التى يحفظ لها أجمل الذكريات ، وأفتن الصور وأبهج الآثار . إنه يود لو يترك وحيدا فيملأ

صدره من نسيمها العليل ، ويمرغ خديه بثراها .. إنه فى أرض مصر .

واستيقظ من حلمه على صوت الضابط الغريب وهو يقول له ثالث مرة « اتبعنى » . فنظر فرأى قصرا جميلا يقف أمامه رجال مسلحون ، فأدرك أنه أمام قصر حاكم الجزيرة . ودخل الضابط ، فتبعه غير مبال لنظرات القوم الحادة التى تصوب نحوه من كل جانب .

٢

وأذن له بالدخول إلى بهو الاستقبال بعد أن سبقه الضابط إليه ، كان الحاكم يستقبل فيه من لا يحتاج النظر فى مظالمهم لغير الذهب ، وألقى الشاب نظرة على الحاكم وهو يمضى ، فلفتت نظره لحيته الطويلة الكثة ، وعيناه اللوزيتان الحادتان ، وأنفه البارز الأقنى كأنه شراع قارب . وكان الرجل يرمق الداخل بعين فاحصة ، ونظرة تدل على الحذر والريبة ، فانحنى الشاب بين يديه بإجلال عظيم ، وقال بأدب بالغ :

— ندى الرب صباحك أيها الحاكم الجليل .

وكان الضابط حدثه عن القادم الغريب الذى يرمى فى غير مبالاة بحافظة ملأى بقطع الذهب الوهاج ، ويسوق قافلة محملة بالهدايا ليتقرب بها من سادة مصر ، فرد تحيته بإشارة من يده ، وسأله بصوت غليظ أجوف :

— من أنت ومن أى البلاد ؟

— أدعى يا مولاى إسفينيس ، من بلدة نباتا من بلاد النوبة .

فهز الرجل رأسه بارتياب : وقال :

— ولكنى أرى أنك لست نوبيا ، وإن صدق نظرى فأنت فلاح ..

فخفق قلب إسفينيس لهذا الوصف الذى نطق به الحاكم بلهجة لم تخل من الاحتقار ، وقال :

— صدقت فراسة مولاى ، فأنا حقا .. فلاح . من أسرة مصرية هاجرت إلى بلاد النوبة منذ أجيال ، واشتغلت بالتجارة عهدا طويلا حتى أغلقت الحدود بين مصر والنوبة ، فانقطع رزقها .

— وماذا تريد ؟..

— لدى قافلة محملة بخيرات البلاد التى قدمت منها ، أرجو بها التقرب والزلفى من سادة مصر ..

فعبث الحاكم بلحيته ، وحدجه بنظراته المرتابة ، وقال :

— أتعنى أنك تجشمت مشاق السفر ، لمحض التقرب والزلفى من سادة مصر ..

— سيدى الحاكم الجليل ، نحن نعيش فى بلاد ملأى بالوحوش والكنوز ، الحياة فيها جد قاسية ، والجوع والجدب ينشبان أظفارهما فى الرقاب ، نجيد صياغة الذهب ، ونضنى فى الحصول على قدح من الحبوب ، فإذا تقبل سادتى هداياى ، وأذنوا لى بالمسير بالتجارة بين الجنوب والشمال ، ملأت أسواقكم بالنفيس من الجواهر والحيوان ، وبدلت بؤس قومى أنعما ..

فضحك الحاكم ضحكة عالية ، وقال :

— أرى الأحلام تطيح برأسك .. أو لست تبدأ بالسؤال والتضرع ؟ ولكنك ترجو أن يكلل مسعاك بإصدار أوامر فرعونية لمصلحتك .. حسنا .. الحمقى كثيرون .. ولكن ماذا تحمل قافلتك من النفائس يا هذا ؟..

فحنى إسفنيس رأسه إجلالا ، وقال بإغراء التاجر الأريب :

— هلا تفضل مولاى بزورة قافلتى ليطلع بنفسه على نفائسها ، ويختار ما يعجبه من كرائم جواهرها ؟

وتحركت لواعج النهم والجشع فى نفس الحاكم ، فاستطاب الفكرة ، فقال لإسفنيس وهو يهم بالقيام للذهاب معه :

— سأمنحك هذا الشرف .

وتقدمه إلى السفينة الحربية ، ثم إلى القافلة ، وعرضت لناظريه الحلى والجواهر والحيوان العجيب ، فشاهد النفائس بعين يلتمع فيها نور الجشع الخاطف . وأهدى إليه إسفينيس صولجانا من العاج ذا رأس من خالص الذهب المحلى بالزمرد والياقوت فتقبله بلا كلمة شكر ، وأخذ بنفسه أساور وخواتيم وأقراطا ثمينة ،

وأنشأ يقول لنفسه . لماذا لا أسمح لهذا التاجر بالدخول إلى مصر ؟.. ليست هذه تجارة ، ولكنها هدايا تسبى العقول ، وسيرحب بها فرعون بغير جدال ، فإن حقق لصاحبها أمنيته نال ما تمنى . أو رفض مطلبه فلا شأن لى به .. وأمامى فرصة سانحة ينبغى أن أنتهزها ، إن خنزر حاكم الجنوب مغرم بكل نفيس ، فلأبعث بالتاجر إليه فيذكر لى صنيعى على ما أهديت إليه من كنز ، وما أتحت له من فرصة يزداد بها قربا إلى مولاه .. فإذا أراد يوما أن يختار لولاية من الولايات الكبرى حاكما ذكرنى بلا ريب :

وتحول نحو إسفينيس وقال :

ــ سأعطيك فرصة لتجرب حظك ، فسر توا إلى طيبة ، وهاك كتابا إلى حاكم الجنوب تذهب به إليه لتعرض نفائسك ، وتسأله الشفاعة فى رجائك ..

واستخف الفرح إسفينيس ، فانحنى للحاكم شكرا وارتياحا .

٣

وكان أول كلمة نطق بها إسفينيس على أثر مبارحة الحاكم لسفينته ، أن قال للشيخ الذى يلازمه :

ــ منذ هذه الساعة لا أحمس هناك ولا حور ، ولكن إسفينيس التاجر ووكيله لاتو ..

فابتسم الشيخ وقال :

ــ نطقت بالحكمة أيها التاجر إسفينيس ..

ونشرت القافلة شراعها ، وتحركت مجاديفها ، فانحدرت مع الموج صوب حدود مصر واجتازتها فى أمان وسلام . وكان إسفينيس ولاتو يقفان عند مقدم السفينة يكابدان شوقا واحدا . تكاد عيناهما تشرقان بالدمع . قال إسفينيس :

ــ بدء حسن .

فقال لاتو :

ــ نعم فلنصل للرب آمون شكرا ، ونسأله أن يسدد خطانا ويكلل مسعانا بالفوز المبين .

وجثوا على سطح السفينة وصليا معا ، ثم عادا إلى وقفتهما . وقال إسفينيس :

ــ إذا ظفرنا بإعادة الروابط مع النوبة إلى سابق عهدها ، فقد ظفرنا بنصف النجاح ، فنعطيهم ذهبا ونأخذ رجالا ..

ــ اطمئن فهم لا قبل لهم بمقاومة إغراء الذهب . ألم يفتح لنا الحدود المغلقة منذ عشرة أعوام ؟.. إن الرجل من الرعاة عظيم العنجهية والصلف شديد البأس ؛ ولكنه كسلان يستخدم غيره ، ويتعالى على التجارة ، ولا يحتمل الحياة فى النوبة ؛ فلا سبيل إلى ذهبها إلا بمن يتطوع مثل التاجر إسفينيس بحمله إليه ..

ومضيا معا يلقيان ببصرهما إلى مجاهل الأفق البعيد الغارق فى مجرى النيل ، يقلبان الطرف فى خضرة ناضرة تكتنف القرى والدساكر ، تحلق فوقها الأطيار ، وترعاها الثيران والبقر نشاوى ؛ والفلاحون يعملون هنا وهنالك عراة لا يرفعون رؤوسهم عن الأرض ، فأثار منظرهم فى صدر الشاب الحب والغضب ، واستعر قلبه حنانا وحنقا ، فقال :

ــ انظر إلى جنود أمنمحيت ، كيف يعملون عبيدا للبيض الحمقى المتعجرفين ذوى اللحى القذرة ..

وتقدم المسير بالقافلة ، فمرت بأمبوس وسلسليس ومجنا ونخب وترت ، فلم يبق دون طيبة سوى ساعة ، وتساءل إسفينيس :

ــ أين ينبغى أن ترسو السفينة ؟

فقال لاتو مبتسما :

ــ فى الجنوب من طيبة حيث توجد أحياء الفقراء والصيادين ، وجميعهم مصريون خلص .

فأمن الشاب على قوله ، ولاحت منه نظرة إلى الأمام فرأى على البعد سفينة تسير نحوهم فعلق بصره بها وهى تدنو رويدا رويدا ، حتى استطاع أن يتنورها ؛ فرأى سفينة فخمة جميلة التركيب بادية الأناقة ، تعلو وسطها مقصورة حسناء يتألق فى جوانبها الفن الجميل ، فخال أنه رأى مثلها من قبل . ولكز لاتو فى ذراعه متمتما :

ــ انظر .

فنظر الرجل وقال بسرعة :

ــ « رباه ! هذه سفينة فرعونية ، (ثم استدرك) إنها تسير بغير حرس ، فلعل راكبها أحد رجال القصر ، أو أمير يطلب الخلوة ..

ودنت السفينة فكادت تلتقى بالقافلة : وأثار منظر القافلة الغريب تطلع أصحابها ، فبرزت من المقصورة امرأة يتبعها سرب من الجوارى ، تقدمتهن فى أناة

كأنها شعاع من النور الساطع يغشى العيون ، شقراء يعبث النسيم بحاشية ثوبها الأبيض ، ويراقص ذؤاباتها الرقيقة الذهبية ، فأيقنا أن صاحبتها أميرة من قصر طيبة تنتجع النسيم ..

ورأياها تشير بأنملتها إلى سفينة متأخرة وقد فغرت من الدهشة فاها ، وارتسم العجب كذلك على وجوه الجوارى الحسان . فالتفت إسفينيس إلى الوراء ، فرأى قزما من الأقزام التى أتى بها يسير على ظهر السفينة ، فأدرك سر دهشة الأميرة الجميلة . ونظر إلى لاتو مبتسما أن لاقت إحدى الهدايا ما تستحق من التقدير . ولكن لاتو كان يرمق المرأة بعينين جامدتين ووجه مكتئب . ونادى النسوة نوتيا ، فتقدم من حافة السفينة ، وصاح موجها خطابه إلى لاتو بلهجة أمر لا يرد :

— قف أيها النوبى وألق مرساتك ..

وأذعن إسفينيس للأمر ، وأصدر أمره إلى القافلة بالتوقف . ودنت السفينة الفرعونية من السفينة التى ظهر بسطحها القزم ، وسأل النوتى إسفينيس :

— ما هذه القافلة ؟..

— قافلة تجارة يا سيدى .

فأشار بيده إلى القزم ، وكان يفر إلى باطن السفينة ، وقال :

— هل يؤذى هذا المخلوق ؟

— كلا يا سيدى ..

— إن صاحبة السمو الفرعونى ترغب فى مشاهدة هذا المخلوق عن كثب .

فهمس لاتو قائلا :

— هذا لقب ابنة فرعون ..

أما إسفينيس فخفض رأسه باحترام وقال :

— حبا وكرامة ..

وسارع إلى مفارقة السفينة إلى قارب سار به إلى السفينة الأخرى ، وصعد إلى

سطحها ليكون فى استقبال الأميرة ، وكانت الأميرة وحاشيتها يقتربن بقاربهن من السفينة حتى بلغنها ، فصعدن إلى السطح تتقدمهن الأميرة ، فانحنى الشاب بين يديها فى إجلال ظاهر ، وكان يقاوم شعوره بالاستهانة ، ويتظاهر بالارتباك والاضطراب ، فقال بتلعثم :

— لقد أوليت قافلتى شرفا رفيعا يا صاحبة السمو ..

ثم رفع رأسه فشاهدها عن كثب بعين خاطفة ، رأى وجها تجسم فيه الحسن والكبرياء ، ففيه من دواعى الفتنة بقدر ما فيه من نوازع الهيبة ، ورأى عينين زرقاوين يتجلى فى صفائهما التعالى والإقدام . فلم تلق إلى تحيته بالا ، ودارت بعينيها فى المكان تبحث دون ريب عن القزم ، وسألته بصوت رخيم يبعث الطرب فى آذان سامعيه :

— أين ذهب المخلوق العجيب الذى كان هنا ؟

فقال الشاب :

— سيكون بين يديك ..

وذهب إلى كوة تطل على باطن السفينة ، ونادى قائلا :

— زولو .

وما لبث أن ظهر رأس القزم من الكوة ، وتبعه جسمه ، ثم أقبل على صاحبه ، فأخذه من يده إلى حيث تقف الأميرة وجواريها وكان يسير ملقيا بصدره إلى الأمام فى خيلاء مضحكة ، وبرأسه الكبير إلى الوراء ، ولا يزيد طوله على أربعة أشبار ؛ أما لونه فشديد السواد ، وأما ساقاه فمقوستان . قال له إسفينيس :

— حى مولاتك يا زولو .

فانحنى القزم حتى مسّ شعره المفلفل الأرض ، فاطمأنت الأميرة وسألت وعيناها لا تفارقان القزم :

— أحيوان هو أم إنسان ؟

— هو إنسان يا صاحبة السمو .

— ولماذا لا نعده حيوانا ؟

— له لغته ودينه .

— يا عجبا ، وهل يوجد مثله كثيرون ؟

— نعم يا مولاتى ، إنه ينتمى إلى شعب وافر العدد ، فيهم نساء ورجال وأطفال ولهم ملك وسهام مسمومة يسددونها نحو الحيوان المفترس والإنسان المغير ؛ ولكن قوم زولو يأنسون إلى الناس سريعا ويخلصون المودة لمن يصادقهم ، ويتبعونه كالكلب الأمين .

فهزت رأسها المكلل بخصلات الذهب عجبا ، وافتر ثغرها عن در نضيد ، وتساءلت :

— وأين يعيش قوم زولو ؟

— فى أقاصى غابات النوبة ، حيث يرقد النيل المعبود ..

— دعه يحدثنى إن استطعت .

— إنه لا يستطيع أن يتكلم لغتنا ، وقصارى جهده أن يفهم بعض الأوامر ، ولكنه سيحيى مولاته بلغته .

وقال إسفينيس للقزم :

— ادع لمولاتك دعاء طيبا .

فاهتزت رأس القزم الكبير كأنه يرعش ، ثم نطق بكلمات غريبة بصوت أدنى إلى الخوار ، فلم تملك الأميرة إلا أن تضحك ضحكة عذبة ، ثم قالت :

— حقا إنه غريب ، ولكنه قبيح لا يسرنى أن أقتنيه ..

فبدا الأسف على وجه الشاب ، وقال بلباقة التاجر الماكر :

— ليس زولو يا صاحبة السمو خير ما فى قافلتى .. إليك دررا تفتن النفوس وتسلب الألباب .

فتحولت فى استهانة عن زولو إلى المتباهى بنفائسه ، وألقت عليه نظرة فاحصة لأول مرة ، فهالها طوله الفارع ونضارة شبابه ، وعجبت أن يكون هذا المظهر

لتاجر من عامة الشعب ، وسألته :

ـــ هل لديك حقا حلى تستحق الإعجاب ؟..

ـــ نعم يا مولاتى ..

ـــ إذًا أرنى عينة .. أمثلة مما عندك .

وصفق إسفينيس ، فجاءه عبد فألقى إليه كلمات بصوت خافت ، فغاب الرجل هنيهة ، ثم عاد يحمل صندوقا من العاج بمعاونة رجل آخر ، فوضعاه أمام الأميرة وفتحاه ، وتنحيا جانبا . ونظرت الأميرة فى داخل الصندوق ، واشرأبت أعناق الجوارى ، فرأت ما يسر القلب من لآلىء لامعة ، وأقراط وأساور . وتفحصتها بعين واعية ، ثم مدت يدها البضة الرخصة إلى عقد آية فى السذاجة والكمال ، قلب من الزمرد فى سلسلة من خالص الذهب ، وأمسكت القلب بأناملها وتمتمت :

ـــ من أين لك بهذا الحجر النفيس ؟.. ليس فى مصر نظيره ؟

فقال الشاب بابتهاج :

ـــ إنه درة كنوز النوبة .

فتمتمت قائلة :

ـــ النوبة .. بلاد زولو .. ما أجمله !

فابتسم إسفينيس وهو ينعم النظر إلى أناملها ، وقال :

ـــ أما وقد حاز إعجاب سموك ، فلا يجوز أن يرد إلى صندوقه .

فقالت فى سهولة :

ـــ نعم .. ولكن ليس لدى ثمنه .. هل أنت ذاهب إلى طيبة ؟..

فقال :

ـــ نعم يا مولاتى .

فقالت :

ـــ ما عليك إلا أن تقصد القصر فتقبض ثمنه .

فانحنى الشاب إجلالا ، وألقت الأميرة نظرة وداع على زولو ، ثم تحولت ماضية بقوامها اللدن الرشيق ، يتبعها الجوارى . وتعلقت بها عينا الشاب حتى غيبها عنه حائط السفينة ، ثم تنبه إلى نفسه ، فعاد إلى سفينته حيث كان لاتو ينتظره على جزع ، وقد بادره :

— ما وراءك ؟..

فأجمل له أقوال الأميرة ، وتساءل ضاحكا :

— ترى هل هى حقا ابنة أبو فيس ؟

فقال لاتو بامتعاض :

— هى الشيطانة ابنة الشيطان .

وأيقظته لهجة لاتو الخشنة ونظراته الغاضبة من سباته ، وأدرك أن التى أثارت إعجابه ابنة مذل شعبه وقاتل جده ، وأنه لم يشعر فى محضرها بما هى أهل له من المقت والكراهية . وتضايق وخشى أن تكون لهجته وهو يروى قولها نمت عن إعجاب ساء الشيخ الأمين ، وقال لنفسه : ينبغى أن أكون أهلا للواجب الذى جئت هنا من أجله . ولذلك لم يلتفت إلى سفينة الأميرة وأطال النظر إلى الأفق ، وحاول أن يحقد على الأميرة ، وأحس أنها قوة حقيقة بكل مقاومة .. لقد ذهبت من سبيله إلى الأبد ، ولكن .. رباه .. إنها جمال يجرى فى أعطافه السحر ، ولا يسع من يبتلى برؤيته إلا أن يغمض جفنيه من قوة نوره ..

وذكر فى تلك اللحظة زوجه الصغيرة نيفرتارى ، بقوامها المعتدل ، ووجهها الأسمر الخمرى ، وعينيها السوداوين الساحرتين ، فلم يزد على أن تمتم قائلا : « يا لهما من صورتين متناقضتين جميلتين .. » .

٤

وبدا سور طيبة الجنوبى وأبوابها الرائعات تتصاعد من ورائه الهياكل والمسلات ، فبدا الجلال مجسما يروع الناظرين . ورنا الرجلان إلى المدينة بعينين لاح فيهما الحنين والحزن ، وقال لاتو :

ــ حياك الرب يا طيبة المجيدة ..

وقال إسفينيس :

ــ وأخيرا يا طيبة .. بعد أعوام طوال فى المنفى ..

وانعطفت السفينة نحو الشاطىء ، تتبعها على الأثر سفن القافلة ، وقد ضمت الشرع ورفعت المجاديف ، فشقت طريقها بين عدد وافر من زوارق الصيد ملأى بالسمك ، منه ما تزال تدب فيه الحياة ، ويقف فى أوساطها الصيادون بأجسادهم العارية النحاسية وعضلاتهم المفتولة ؛ فانبعث فى نفس إسفينيس نشوة طرب لرؤيتهم ، وقال لرفيقه :

ــ عجل بنا ، فنفسى مشوقة إلى محادثة أى من المصريين ..

وكان الجو معتدلا لطيفا ، والسماء صافية الزرقة ، والشمس مشرقة تغمر أشعتها النيل والشطئان والحقول والمدن ، فنزلا إلى الشاطىء يلتفان فى عباءتيهما ، ويضعان على رأسيهما قلنسوتين مصريتين ككبار التجار . وتقدما خطوات نحو حى الصيادين ، وكانت جماعات منهم تقف على الشاطىء ، وأيديها آخذة بحبال الشباك التى ترميها الزوراق فى لجة النيل ، يغنون وينشدون . وكان غيرهم يملأ العربات بالسمك ، ويلهبون ظهور الثيران المشدودة إليها صوب الأسواق . وعلى مسير دقائق من الشاطىء أقيمت أكواخ صغيرة أو متوسطة الحجم من الآجر ، مسفوفة بجذوع النخيل ، يدل مظهرها على السذاجة والفقر ..

وكان إسفينيس ينتقل من مكان إلى مكان ، مرهف الحواس ، مفتوح العينين ، يتفحص الصيادين ويتتبع حركاتهم ويصغى إلى أناشيدهم ، وكان يشعر نحوهم بالحنان والحزن المقرونين بالإعجاب والإكبار . وخالط قلبه وهو يشق جموعهم إحساس ألفة وطمأنينة ومحبة ، فتمنى لو يستطيع أن يعترض سبيلهم ويضمهم إلى صدره ويقبل وجوههم السمر المعناة بالكفاح والفقر . وذكر ما حدثته به عنهم توتيشيرى ؛ فقال لصاحبه :

ـــ يا لهم من رجال أشداء صابرين ..

فقال لاتو ، وكان يشارك الشاب جل عواطفه :

ـــ أحسب هؤلاء الصيادين أسعد حالا من الفلاحين. لأن الرعاة يترفعون عن النزول إلى حيهم، فيعفونهم من غير قصد من صلف أخلاقهم وسوء صنيعهم .

وقطب الشاب غضبا وتألما ولم يتكلم ، وجدا فى السير يلفتان الأنظار بوجاهة منظرهما وفخامة لباسهما . ورأى إسفينيس عن كثب شابا يافعا يتجه نحوهما يحمل سلة ، وكان يرتدى وزرة قصيرة فى خاصرته ، أما بقية جسمه فعار ، وقد بدا طويلا رشيقا ووجهه حسنا ، فقال إسفينيس :

ـــ انظر يا لاتو إلى هذا الشاب ، ألم يخلق ليكون فارسا فى فرقة العجلات لولا أن خانه زمانه ؟.

واقترب الشاب منهما ، فرغب فى الحديث إليه ، وحياه بيده وقال :

ـــ حياك الرب أيها الشاب .. هل تدلنا على مكان نستريح فيه ولك الشكر ؟

فوقف الشاب عن المسير وهم بالرد عليه ، ولكنه حين وقعت عيناه عليهما أغلق فمه ، وألقى عليهما نظرة غريبة تفصح عن الغضب والاحتقار ، وولاهما ظهره ومضى . فتبادل الرجلان نظرة دهشة وإنكار ، وتبعه إسفينيس على الأثر واعترض سبيله قائلا :

ـــ أيها الأخ ، ما الذى جعلك تزهد الرد علينا وتولينا ظهرك غاضبا ؟

فصاح الشاب مزمجرا :

— إليك عنى يا عبد الرعاة .

وابتعد غاضبا وهو يوسع الخطى ، تاركا الشاب فى ذهول وحيرة . ولحقه لاتو وهو يقول :

— إنه لمجنون بلا ريب .

— ليس مجنونا يا لاتو ... ولكن لماذا يدعونى عبد الرعاة ؟

— إنه لدعاء يثير الضحك .

— نعم ... نعم ... ولكن هبنا صنائع الرعاة ، فكيف تؤاتيه شجاعته فيتحدانا ؟... إنه لشاب جسور حقا يا لاتو ، ويدل سلوكه معنا على أن عشرة أعوام من حكم الرعاة الخانق لم تستطع أن تستأصل الغضب من النفوس الكريمة .

واستأنفا المسير حتى جذب انتباههما ضجيج عال ، فنظرا يمنة فرأيا بناء كبيرا ذا مدخل صغير فى أعلى حائطه كوات ضيقة ، يدخل إليه جماعات ويخرج منه جماعات ، فسأل الشاب صاحبه :

— ما هذا البناء ؟

فقال لاتو :

— هذه حانة .

— هلم نشاهدها .

فابتسم لاتو وقال :

— هلم .

٥

ودخلا الحانة معا ، فوجدا نفسيهما فى مكان متسع حوائطه عالية ، يتدلى من سقفه مصباح يعلوه الغبار ، وفى وسطه وضعت الدنان ، يحيط بها سور طوله ذراعان وعرضه ذراع ، اصطفت عليه أكواب الفخار وأحاط به الشاربون . ويقف فى دائرته صاحب الحانة فيملأ الأقداح للملتفين به ، أو يرسلها مع ساق يافع إلى الجلوس فى الأركان على أرض الحان . وكان لا يكاد يرفع رأسه عن دنانه فإذا آذاه أحد الشاربين بنكتة أو دعابة انتهره بخشونة وسب وقذف . فجال الرجلان ببصرهما فى المكان ، وأراد إسفينيس أن يزحم الوقوف حول الساقى ، فأخذ صاحبه من يده ، وشق بمنكبيه طريقا إلى السور حتى ارتقاه وسط الأعين المحدقة فيهما دهشة وإنكارا . وكان أحس شيئا من التعب ، فقال للخمار مسترسلا :

ـــ أيها الرجل الطيب هل نجد عندك مقعدين ؟

فازداد إنكار من حوله للهجته وغرابة طلبه ، أما الخمار فرد عليه دون أن يعيره التفاتا :

ـــ عفوا أيها الأمير .. إن رواد حانتى ممن يقنعون باقتعاد الغبراء .

وضحك منه ومن صاحبه قوم السكارى ، ودنا منهما رجل قصير القامة غليظ الوجه والرقبة عظيم الكرش ، فانحنى لهما فى هزء ، وقال بتلعثم الثمل :

ـــ أيها السيدان ، إنى أنزل لكما عن كرشى تقتعدانه .

وأدرك إسفينيس خطأه الذى أساء به إلى نفسه وإلى صاحبه ، فقال يصلح منه :

ـــ إننا نتقبل هديتك شاكرين ، ولكن كيف يمكن أن تشرب خمرك المعتقة

بغير هذا الكرش ؟

وسر السكارى بسؤال الشاب ، وصاح بعضهم بالرجل الأكرش :

ـــ أجب يا طونا .. أجب .. كيف تشرب أقداحك إذا نزلت للسيدين عن كرشك ؟

وقطب الرجل مفكرا ، وهرش رأسه متحيرا وقد تدلت شفته السفلى كقطعة كبد دامية ، ثم أضاءت عيناه المحمرتان كأنما وجد الحل السعيد ، وقال :

ـــ أشرب خمرا مهضومة ...

فضحك الرجال ، وسر إسفينيس لإجابته ، وقال له متلطفا :

ـــ إنى أعفيتك من النزول عن هذا الكرش العظيم ، الذى خلق ليكون زق خمر لا مقعد جلوس ..

ثم نظر إسفينيس إلى الخمار وقال له :

ـــ أيها الرجل الطيب املأ ثلاثة أقداح لنا وللظريف طونا ..

وملأ الرجل الأقداح وقدمها إلى إسفينيس ، فخطف طونا قدحه وأفرغه فى فمه دفعة واحدة وهو لا يصدق ، ثم مسح فمه بكفه ، وقال لإسفينيس :

ـــ أنت غنى بلا شك أيها السيد الكريم

فقال إسفنيس مبتسما :

ـــ حمدا للرب على نعمائه .

فقال طونا :

ـــ ولكنكما كما أرى من مشابه وجهيكما مصريان ؟.

ـــ صدقت فراستك ، وهل من تناقض بين أن نكون مصريين وغنيين ؟

ـــ نعم ، إلا أن تكونا من المقربين إلى الحاكمين ..

وهنا قال رجل آخر :

ـــ وهؤلاء يقلدون سادتهم فلا ينزلون إلى مخالطتنا .

فتجهم وجه إسفينيس ، وعاودته صورة الشاب الذى صاح به غاضبا منذ

حين قائلا : « يا عبد الرعاة » . ثم قال :

ـــ نحن من مصريى النوبة ، وجئنا مصر حديثا ..

وساد الصمت ، ودوت كلمة النوبة فى الآذان دويا غريبا ، ولكن كان القوم سكارى لا يملك هذيان الخمر ناصية عقولهم ، فلا يقدرون على جمع شتات أفكارهم ، فنظر أحد الرجال إلى كأسى الرجلين اللذين لم يقرباهما ، وقال بلسان ثقيل :

ـــ لماذا لا تشربان ، سقاكما الرب أطيب خمر الجنان ؟

فقال لاتو :

ـــ قليلا ما نشرب ، وإذا ما شربنا فعلى مهل ..

فقال طونا :

ـــ نعم ما تفعلان ، فما جدوى الفرار من حياة سعيدة ؟ أما أنا فشقائى بمهنتى جلل ، وشقائى بأسرتى وأولادى أجل ، وشقائى بنفسى أفدح ومناى ألا أرفع القدح عن شفتى .

فصفق ثمل مسرورا يقول طونا ، وقال وهو يهز رأسه طربا :

ـــ هذه الحانة مهجر البائسين ، مهجر من يقدمون موائد الطعام الشهية وهم جياع ، ومن ينسجون فاخر اللباس وهم عراة ، ومن يهرجون فى أفراح السادة وهم جرحى قلوب ، صرعى نفوس ..

فقال رجل غير هذين :

ـــ اسمعا يا رجلى النوبة ، لن تطيب الحياة لشارب حتى تخذله ساقاه ، فيهوى فاقد الوعى ، ولأضرب لكما مثلا بنفسى ، فما من ليلة أعود إلى كوخى إلا محمولا ..

وانتفض إسفينيس ، وأدرك أنه بين جماعة من مبئسى البشر ، وسألهم :

ـــ هل أنتم صيادون ؟

فقال طونا :

ــ جلنا صيادون .

وهز صاحب الحانة كتفيه استهانة ، وقال دون أن يحول رأسه عن عمله :

ــ أما أنا فخمار يا سيدى .

فقهقه طونا ، ثم أشار بأصبع غليظة إلى رجل قصير القامة ، نحيف القد ، دقيق الأطراف ، واسع العينين براقهما ، ثم قال :

ــ وإن أردت التدقيق فهذا الرجل لص ..

فنظر إسفينيس إلى الرجل بغرابة ، فارتبك ، وأراد أن يطمئنه فقال :

ــ لا يساورك القلق يا سيدى ، فأنا لا أسرق فى هذا الحى جميعه .

وعلق طونا على قول الرجل بقوله :

ــ يعنى أنه لما كان لا يوجد فى حينا ما يستحق مشقة السرقة ، فهو يعاشرنا كأحدنا ، ويمارس فنه فى أطراف طيبة ، حيث المال موفور ، والسعادة وارفة الظلال ..

وكان اللص نفسه ثملا ، فقال بلهجة الاعتذار :

ــ لست لصا يا سيدى ، ولكننى سائح يضرب الأرض ويشرق ويغرب كما تسوقه قدماه ، فإذا عثرت فى سبيلى بأوزة ضالة أو دجاجة تائهة ، هديتها إلى مأوى ، وهو كوخى فى الغالب ..

ــ وهل تأكلها ؟

ــ معاذ الرب يا سيدى ، إن الطعام الحسن يسمم بطنى ، ولكنى أبيعها لمن يشترى .

ــ ألا تخشى الخفراء ؟

ــ أخشاهم أكبر خشية يا سيدى ، لأنه غير مسموح بالسرقة فى هذا البلد لغير الأغنياء والحكام ..

فأمن طونا على قول اللص قائلا :

ــ القاعدة المتبعة فى مصر أن يسرق الأغنياء الفقراء ، ولكن لا يجوز أن يسرق

الفقراء الأغنياء .

وكان يتكلم وعيناه تحدقان فى القدحين المترعين بنهم وجشع ، فغير مجرى الحديث وقال باستياء :

ـــ لماذا تتركان قدحيكما فتنة للشاربين ؟

فابتسم إسفينيس وقال مسترسلا :

ـــ هما لك يا طونا .

فتحلب ريقه وقبض على القدحين بيديه الغليظتين ، مرسلا لمن حوله نظرات وعيد ، ثم أفرغهما فى جوفه قدحا إثر قدح ، وتنهد بارتياح . وأدرك إسفينيس معنى الوعيد الذى يهدد به ، فطلب للقريبين منه جعة ونبيذا مما يشتهون ، فشرب الجميع وضجوا فرحين ، وانطلقوا فى الأحاديث والغناء والضحك . وكان الشقاء والفقر يرتسمان على وجوههم جميعا ، ولكنهم بدوا فى تلك الساعة سعداء ضاحكين لا يحسبون حسابا للغد . واندمج إسفينيس فى جوهم جذلا مسرورا ، تعتاده الكآبة بين الحين والحين . وقضى بينهم زمنا ليس بالقصير ، حتى دخل الحانة رجل تدل هيئته على أنه منهم ، فحياهم بإيماءة وطلب قدحا من الجعة ، ثم قال لمن حوله بلهجة لا تدل على شىء :

ـــ قبضوا على السيدة إبانا وساقوها إلى المحكمة ..

ولم يعره الأكثرون التفاتا لما أذهل الشراب من عقولهم ، وسأله آخرون :

ـــ ولمه ؟

ـــ يقال إن ضابطا كبيرا من الرعاة اعترض سبيلها على شاطىء النيل ، ورغب فى أن يضمها إلى نسائه ، فقاومته ودفعته عنها .

فزمجر الكثيرون ، وسأله إسفينيس :

ـــ وما عسى أن تصنع بها المحكمة ؟.

فحدجه الرجل بنظرة إنكار ، وقال :

ـــ ستحكم عليها بدفع غرامة لا قبل لها بها حتى تعجزها ، فتأمر بجلدها

بالسياط ، والزج بها فى السجن .

فتجهم وجه إسفينيس وامتقع ، وقال للرجل :

ـــ هل لك أن تدلنا على طريق المحكمة ؟

فقال له طونا بتلعثم :

ـــ الشراب أولى بذهنك ، لأن من يدفع عن هذه المرأة يغضب الضابط الكبير ، ويعرض نفسه لعاقبة غير مأمونة .

وسأله الرجل الذى أذاع الخبر :

ـــ هل أنت غريب يا سيدى ؟

فقال إسفينيس :

ـــ نعم ، وأرغب فى حضور هذه المحاكمة ..

ـــ أكون دليلك إلى المحكمة إذا شئت .

وفى أثناء مفارقتهم للحانة مال لاتو على أذنه ، وقال هامسا :

ـــ إياك والتورط فى أمر يفسد علينا مهمتنا الخطيرة .

فلم يجب إسفينيس ، واقتفى من فوره أثر الرجل .

٦

كانت المحكمة مكتظة بذوى الحاجات وأصحاب القضايا والشهـود ، وامتلأت مقاعد القاعة بالحاضرين من جميع الطبقات ، وفى الصدر جلس القضاة ذوو اللحى المرسلة والوجوه البيض ، وقد تدلى على صدر رئيسهم تمثال صغير لربة العدالة ثمى . فاتخذ الرفيقان مقعدين متقاربين ، وقال لاتو لإسفينيس همسا :

ـــ إنهم يقلدون أنظمتنا فى ظاهرها .

وتفرسا فى الوجوه ، فأدركا أن أغلب الحاضرين من الهكسوس . وكان القضاة يستدعون المتهمين ويستجوبونهم على عجل ، ويصدرون الأحكـام بسرعة وبلا رحمة ، وأصوات الشكوى والعويل تتصاعد من العـراة ذوى الأجسام النحاسية والوجوه السمر . وجاء دور السيدة المنشودة ، فنادى المنادى قائلا :

ـــ السيدة إبانا .

وتطلع الرجلان فى لهفة ، فرأيا سيدة تقترب من المنصة فى خطى متزنة ، يدل مظهرها على الوقار والحزن ، وتتجلى قسماتها عن حسن بالرغم من بلوغها الأربعين . وتبعها رجل من الهكسوس يرتدى لباسا فخما ، فانحنى للقاضى باحترام وقال :

ـــ سيدى القاضى الجليل ، أنا وكيل القائد رخ ـــ الذى اعتدت عليه هذه المرأة ـــ وأدعى خم ، وسأنوب عن عظمته أمام القضاء .

فهز القاضى رأسه موافقا ، مما أثار دهشة لاتو وإسفينيس ، ثم قال

ـــ بماذا يتهم مولاك هذه المرأة ؟

فقال الرجل بإنكار وامتعاض :

ـــ يقول مولاى إنه التقى بهذه المرأة صباح اليوم ، فرغب فى أن يضمها إلى جواريه ، فقابلت صنيعه بالإنكار والجحود ، ودفعته بوقاحة عدها اعتداء على شرفه العسكرى ..

فأثار حديث الرجل ضجة بين الحاضرين واستياء ، وتقاربت الرءوس فى همس واستنكار . وأشار القاضى للقوم بصولجانه ، فساد السكون ، ثم وجه سؤاله إلى المرأة قائلا :

ـــ ما قولك يا امرأة ؟

وكانت المرأة محافظة على هدوئها ، كأن اليأس من الإنصاف أكسبها أمانا من الخوف ، فقالت بهدوء :

ـــ إن قول هذا الرجل لا ينطبق على الحقيقة ..

فغضب القاضى ، وقال منتهرا إياها :

ـــ حاذرى أن تقولى قولا ينال من مقام المشتكى العظيم فتضاعف جريمتك ، قصى ودعى الحكم لنا ..

فاحمر وجه المرأة ارتباكا ، وقالت وهى ما تزال تحافظ على هدوئها :

ـــ كنت أسير فى طريقى إلى حى الصيادين ، فإذا عربة تعترض سبيلى وينزل منها ضابط فيدعونى إلى الركوب دون إمهال ولا سابق معرفة . فارتعت وأردت أن أتحاماة ، ولكنه أمسك بيدى وقال لى إنه يشرفنى بضمى إلى نسائه فقلت له إنى أرفض ما يعرضه على . ولكنه سخر منى ، وقال لى إن رفض المرأة الظاهرى عين القبول ..

وأشار إليها القاضى إشارة أسكتتها ، وكأنما ساءه أن تأتى على تفاصيل تخرج مقام الضابط ، فسألها :

ـــ أجيبى هل اعتديت عليه ؟

ـــ كلا يا سيدى ، لقد أصررت على رفضى ، وحاولت التملص من يده ، ولكنى لم أعتد عليه لا بيدى ولا بلسانى ، ويشهد على قولى هذا جمع غفير من أهل الحى .

ـــ أتعنين الصيادين ؟

ـــ نعم يا سيدى .

ـــ هؤلاء لا تقبل شهادتهم فى هذا المكان المقدس .

فسكتت المرأة ، ولاحت فى عينيها نظرة حيرة وارتباك ، فسألها القاضى :

ـــ أليس لديك ما تقولينه غير ذلك ؟

ـــ كلا يا سيدى ، وأقسم أنى ما آذيته بقول أو فعل ..

ـــ إن المدعى عليك شخص كبير ، وقائد من قواد الحرس الفرعونى ، وقوله حق حتى تقيمى الدليل على نقضه .

ـــ وكيف لى بنقضه ، وقد رفضت المحكمة الإصغاء إلى شهودى ؟.

فقال القاضى بغضب :

ـــ إن الصيادين لا يدخلون هذا المكان ، إلا إذا سيقوا إليه متهمين ..

وأعرض الرجل عنها ، وعدل إلى رفاقه القضاة وتبادل معهم الرأى حينا ، ثم اعتدل فى جلسته وقال موجها كلامه إلى السيدة إبانا :

ـــ أيتها المرأة ، لقد أراد بك القائد خيرا فجازيته أسوأ الجزاء ، والمحكمة تخيرك بين دفع خمسين قطعة من الذهب ، أو السجن ثلاثة أعوام والجلد ..

وأصغى الحاضرون إلى الحكم فبدا الرضى على الوجوه جميعا ، إلا واحدا صاح بصوت ثائر كأنما أفلت منه الزمام :

ـــ سيدى القاضى .. هذه السيدة مظلومة بريئة .. فأطلق سراحها .. اعف عنها إنها مظلومة ..

ولكن القاضى استولى عليه الغضب ، وحدج الصارخ بنظرة أسكتته ، وتوجهت إليه الأنظار من كل صوب فعرفه إسفينيس ، وقال لصاحبه دهشا :

ـــ إنه الشاب الذى أغضبه حديثنا معه ، واتهمنا بأننا عبيد الرعاة ..

وكان إسفينيس مغضبا متألما ، فاستدرك يقول :

ـــ لن أدع هذا القاضى الأحمق يزج بهذه السيدة فى السجن .

فقال لاتو بقلق :

ـــ إن مهمتنا أكبر من نصرة امرأة مظلومة ، فاحذر أن ينقلب علينا عملك ..

ولكنه لم يصغ إلى صاحبه ، وتريث حتى سمع القاضى يسأل المرأة قائلا :

ـــ هل تدفعين ما يطلب إليك دفعه ؟

فقام واقفا ، وقال بصوت جميل عذب النبرات :

ـــ نعم يا سيدى القاضى ..

وانعطفت نحوه الرءوس تتفحص الكريم الجسور الذى تقدم لإنقاذ المرأة فى آخر لحظة ، ونظرت إليه المرأة فى ذهول ، وكذلك الشاب الذى دافع عنها بالبكاء والاستعطاف . أما وكيل القائد فصوب نحوه نظرة نارية بـرق فيها الوعيد ، ولكن الشاب لم يبال أحدا وسار نحو منصة القضاة بقامته الطويلة الرشيقة ، ومحياه الجميل الفاتن ، وأدى الغرم المطلوب إلى المحكمة ..

وتفكر القاضى مرتبكا ، وهو يسائل نفسه من أين لهذا الفلاح بالذهب ؟ ومن أين له هذه الشجاعة ؟.. ولم يجد بدا مما ليس منه بد ، فأقبل على المرأة قائلا :

ـــ يا امرأة .. اذهبى طليقة .. وليكن لك مما كدت تتردين فيه موعظة ودرسا .

٧

وغادروا المحكمة جميعا ، لاتو وإسفينيس والسيدة إبانا والشاب الغريب ، وفى الطريق نظرت المرأة إلى إسفينيس ، وقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ــ سيدى ، لقد أنقذتنى مرءوتك من ظلمات السجون ، فملكت عنقى بجميل صنيعك ، وحملتنى دينا لا أستطيع الوفاء به .

وخطف الشاب الغريب يده فقبلها وعيناه مغرورقتان بالدموع ، وقال بصوت متهدج :

ــ فليعف الرب عما سلف من سوء ظنى ، وليجزك أجمل الجزاء على ما أوليتنا بإنقاذك أمى من غيابات السجن وآلام الجلد .

فغلب التأثر إسفينيس وقال برقة :

ــ لا عليكما من هذا ، لقد ابتليت أيتها السيدة بظلم قبيح . والظلم وإن وقع على نفس بعينها يسىء إلى النفوس العادلة جميعا ، وما فعلت إلا أن غضبت فنفست عن غضبى ، فلا دين هناك ولا وفاء ..

ولم يقنع هذا القول السيدة إبانا ، فظلت على تأثرها تتعثر فى ارتباكها وتقول :

ــ يا له من عمل نبيل .. يا له من عمل يجل عن الوصف ويعلو على المديح .

وأما ابنها فكان لا يقل عنها تأثرا ، ورأى إسفينيس ينظر إليه فقال كالمعتذر :

ــ ظننت حين التقينا أنكما من صنائع الرعاة ، لما يبدو عليكما من مظاهر الثراء ، فإذا بكما مصريان كريمان لا أدرى من أين جئتما . وقد أقسمت ألا أفارقكما حتى تتفضلا بزورة كوخنا الصغير ، لنشرب معا قدحا من الجعة احتفالا بتشرفنا بمعرفتكما ، فماذا تقولان ؟..

وراقت الدعوة إسفينيس الذى كان يرغب فى الاختلاط ببنى جلدته ، وكانت شهامة الشاب وجماله يجذبانه إليه ، فقال :

ـــ إننا نقبل هذه الدعوة ببالغ السرور .

وابتهج الشاب كما ابتهجت أمه ، ولكنها قالت :

ـــ أرجو المعذرة لأنكما لن تجدا كوخنا يليق بمقامكما الرفيع .

فقال لاتو بلباقة :

ـــ إن فى صاحبى الكوخ غنى عن كل شىء ، ومع هذا فنحن تجار متعودون شظف العيش ووعثاء الطريق .

ثم ساروا جميعا يشملهم شعور واحد بالمودة ، كأنهم أصدقاء من عهد قديم .

وفى أثناء الطريق قال إسفينيس لابن إبانا :

ـــ كيف ندعوك يا صاحبى ؟. أما أنا فإسفينيس ، وأما صاحبى فيدعى لاتو .

فحنى الشاب رأسه إكراما ، مبتسما وقال :

ـــ ادعونى أحمس .

فخيل إلى إسفينيس كأن أحدا يناديه ، ونظر إلى الشاب نظرة غريبة ..

وبلغوا الكوخ بعد مسير نصف ساعة ، وكان ساذجا كأكواخ الصيادين ، يتكون من ردهة خارجية وحجرتين صغيرتين متداخلتين ، ولكنه كان على سذاجة أثاثه وفقره الواضح نظيفا حسن الترتيب . فجلس أحمس وضيفاه فى الردهة ، وفتحا الباب على مصراعيه ليخلص لهم نسيم النيل ومنظره ؛ على حين ذهبت إبانا لتعد الشراب ، ولبثوا هنيهة صامتين يتبادلون النظرات ، ثم قال أحمس بعد تردد :

ـــ إنه من العجب أن يجد الإنسان مصريين فى مثل مظهركما الوجيه ، فكيف تركـكما الرعاة تثريان ولستما من صنائعهم ؟

فقال إسفينيس :

— نحن من مصريى النوبة ، ودخلنا طيبة اليوم ..

فصفق الشاب بيديه دهشة وسرورا ، وقال :

— النوبة .. لقد فر إليها كثيرون فى أثناء غزو الرعاة لبلادنا ، فهل أنتما من المهاجرين ؟..

وكان لاتو بطبعه شديد الحذر ، فقال بسرعة قبل أن يجيب إسفينيس :

— بل نحن من الذين هاجروا قبل ذلك للتجارة ...

— وكيف استطعتما الدخول إلى مصر ، وقد أغلق الرعاة الحدود ؟

فأدرك الرجلان أن أحمس على حداثة سنه يعرف أشياء كثيرة، وكان إسفينيس يشعر نحوه بمودة واطمئنان ، فقص عليه قصة دخولهما مصر ، وفى أثناء حديثه عادت إبانا تحمل أقداح الجعة ، وسمكا مشويا ، فوضعت الشراب والطعام أمامهم ، وجلست تصغى إلى قصة إسفينيس حتى ختمها بقوله : « إن الذهب يذهل القوم عن نفوسهم ويخلب ألبابهم ، وسوف نمضى إلى حاكم الجنوب ونعرض عليه نفائس ما نحمل ، وأملنا أن يوافق أو ينال لنا الموافقة على تبادل التجارة بين مصر والنوبة ، لنعود إلى سابق عملنا وتجارتنا » .. فقدمت لهما أقداح الجعة والسمك ، وقالت :

— إذا وفقتما إلى غرضكما فستقومان بأعباء عملكما منفردين ، فلا الرعاة يرضون بالعمل فى التجارة ، ولا المصريون فى حالتهم الراهنة من الفقر والبؤس بقادرين على المشاركة فيها ..

وكان لدى التاجرين ما يقولان فى ذلك ، ولكنهما آثرا السكوت عليه . وأقبلا على السمك يأكلان وعلى الجعة ينهلان ، وأثنيا على السيدة أجمل الثناء ، وأطريا مائدتها الساذجة ، فتورد وجهها ، ولهج لسانها بشكر الشاب على جميل صنيعه . وبلغ منها التأثر مبلغا عظيما فقالت :

— لقد مددت إلى يدك الكريمة فى الوقت المناسب ، وكم من مصريين بائسين تطحنهم رحى الظلم فى الصباح والمساء دون أن يظفروا بمعين ..

وبدا أحمس سريع التأثر . فما كاد يسمع أمه تقول هذا القول حتى تضرج وجهه باحمرار الغضب ، وقال بحدة :

ـــ المصريون عبيد ، يلقى إليهم بالفتات ويضربون بالسياط .أما الملك والوزراء والقواد والقضاة والموظفون والملاك جميعا فمن الرعاة . السلطان اليوم للبيض ذوى اللحى القذرة ، والمصريون عبيد فى الأراضى التى كانوا بالأمس أصحابها ..

وكان إسفينيس يرمق أحمس فى أثناء تدفقه بالكلام بعينين يلوح فيهما الإعجاب والعطف ، على حين ظل لاتو خافضا عينيه ليخفى تأثره ، وسأله إسفينيس :

ـــ وهل يوجد كثيرون يغضبون لهذه المظالم ؟

ـــ نعم ، ولكننا جميعا نكظم الغضب ونحتمل الإساءة ، شأن الضعيف الذى لا حيلة له . وإنى لأتساءل أما لهذا الليل من آخر ؟ فقد انقضت عشرة أعوام منذ رضى الرب الغاضب علينا أن يسقط التاج عن رأس مليكنا سيكننرع ..

وخفق قلب الرجلان خفقة عنيفة ، وامتقع إسفينيس . ونظر لاتو إلى الشاب دهشا ثم سأله :

ـــ كيف تعرف هذا التاريخ على حداثة سنك ؟

ـــ تحفظ ذاكرتى صورا قليلة قائمة ، ولكنها واضحة لا تزول ، لأيام الشقاء الأولى . ولكنى أدين لأمى بمعرفة تاريخ قصة طيبة الأسيفة التى لا تفتأ ترددها على مسمعى ...

فنظر لاتو إلى إبانا نظرة غريبة اضطربت لها المرأة ، فأراد أن يسرى عنها فقال لها :

ـــ أنت سيدة فاضلة وابنك شاب نبيل ..

وقال لاتو لنفسه إن السيدة ما تزال تحاذر بالرغم من كل شىء ، وكان فى نيته أن يسأل عن بعض أمور تهمه ، فعدل عن هذا إلى المستقبل . وغير الشيخ مجرى

الحديث بلباقة وصرفه إلى وجوه تافهة ، فأعاد الطمأنينة إلى النفوس ، وشملهم الصفاء وتبادلوا جميعا شعور المودة الخالصة ، وحين هم التاجران بمبارحة الدار قال أحمس لإسفنينس :

— متى تذهب يا سيدى إلى حاكم الجنوب ؟

فقال إسفينيس وهو يعجب للسؤال :

— ربما ذهبت غدا .

— لى رجاء .

— ما هو ؟

— أن أصحبك إلى ضيعته .

فسر إسفينيس لذلك ، وقال للشاب :

— أتعرف الطريق إليها ؟

— حق المعرفة .

وحاولت إبانا الاعتراض على ابنها ، ولكنه أسكتها بإشارة عصبية من يده ، فابتسم إسفينيس وقال :

— إذا لم يكن عندك مانع ، فستكون الدليل إليها ..

٨

وانقضى النصف الأول من اليوم الثانى فى الإعداد لزورة الحاكم ، وكان إسفينيس يقدر قيمة هذه الزورة حق قدرها ، ويعلم أن حياة آماله جميعا رهينة ببعض عواقبها ، وكذلك آمال من خلفهم وراءه فى نباتا يعترك فى نفوسهم الكبيرة اليأس والأمل . فشحن سفينته بصناديق التحف واللآلئ ، وأقفاص الحيوان الغريب والقزم زولو ، وعدد كبير من العبيد . وقبيل الأصيل وافاهما أحمس ، فحياهما بفرح وقال :

ـــ أنا منذ الساعة من عبيدكما ..

فتأبط إسفينيس ذراعه ، ومضوا ثلاثتهم إلى المقصورة . ثم أبحرت السفينة صوب الشمال فى جو رائق وريح مؤاتية ، وقد صمت من فى المقصورة ، واستغرق كل منهم فى تأملاته ، مرسلا بناظريه إلى شاطئ طيبة . وعبرت السفينة أحياء الفقراء ، وأقبلت على القصور الشم الغارقة بين أدواح النخيل وأشجار الجميز ، تهفو عليها الأطيار من كل نوع ولون ، وتفصل بينها وتترامى وراءها الحقول ذات الخضرة ، تشقها الجداول الفضية والوديان والنخيل والكروم ، وترعاها الثيران والبقر ، ويعكف عليها الفلاحون العراة الصابرون . وعلى الشاطئ أقيمت المنازف تغرف من النيل على أنغام الأناشيد الرقيقة . وكانت النسائم تعابث الأشجار حاملة فى حناياها هسيس النبات وزقزقة العصافير وخوار الثيران ، وشذا الأزهار والرياحين ، فأحس إسفينيس أن أنامل الذكريات تداعب جبينه المحترق ، وذكر أيام الربيع حين كان يخرج إلى الحقول محمولا على هودجة الملكى ، يسير بين يديه العبيد والحرس والفلاحون يحيونه فرحين بطفولته الطاهرة ، ناثرين الورد فى طريقه السعيد .

وأيقظه صوت أحمس وهو يقول :

— ها هو ذا قصر الحاكم .

فتنهد إسفينيس ونظر إلى حيث يشير الشاب ، ونظر معهما لاتو وقد لاحت فى عينى الشيخ نظرة دهشة وإنكار .

وعرجت السفينة نحو القصر وقد سكنت مجاديفها ، فاعترض سبيلها زورق حربى غاص بالجنود ، وصاح بهم ضابط فى عنف وعجرفة :

— ابتعد بسفينتك القذرة أيها الفلاح .

فقفز إسفينيس من المقصورة ، ودنا من حائط السفينة وحيا الضابط باحترام وقال :

— معى رسالة خاصة إلى صاحب العظمة حاكم الجنوب .

فحدجه الضابط بنظرة حادة وحشية ، وقال :

— أعطنيها وانتظر .

فأخرج الشاب الكتاب من جيب عباءته وأعطاه للضابط . وتفحصه هذا بأناة ، ثم أمر رجاله فوجهوا الزورق نحو درج الحديقة ، ونادى حارسا فناوله الرسالة . فأخذها الحارس ومضى ناحية القصر ، وغاب زمنا يسيرا وعاد مسرعا إلى الضابط وأسر إليه كلمات ، فأشار الضابط إلى إسفينيس أن يدنو بسفينته ، فأمر الشاب ملاحيه بالجدف حتى رست السفينه فى مرفأ القصر ، وقال له الضابط :

— إن صاحب العظمة ينتظرك ، فاحمل إليه بضاعتك ..

وأصدر الشاب أمره إلى النوبيين ، فحملوا الصناديق وبينهم أحمس ، ورفع آخرون أقفاص الحيوان وهودج زولو . وقال لاتو للشاب وهو يودعه :

— فليكتب الرب لك التوفيق .

ولحق إسفينيس بالقافلة ، يقطعون جميعا أرض الحديقة المعشوشبة فى سكون شامل .

٩

مضى التاجر لمقابلة الحاكم ، فقاده خادم إلى بهو الاستقبال ، وتبعه عبيده بأثقالهم ، ووجد الشاب نفسه فى بهو فائق الترف عظيم الأناقة ، يتجلى الفن فى أرضه وحوائطه وسقفه ، وفى الصدر منه جلس الحاكم على متكأوثير ، فى جلباب فضفاض كأنه كتلة من بنيان متين . وكانت ملامح وجهه الكبير قوية واضحة ، أما نظرة عينيه الحادتين فتدل على الشجاعة والبسالة والصفاء . فأشار إسفينيس إلى رجاله فوضعوا الصناديق والأقفاص أمامهم . واقترب من وسط البهو خطوات ، ثم انحنى إجلالا للحاكم وقال :

ـــ حياك الرب المعبود ست أيها الحاكم الأجل .

فألقى عليه الحاكم نظرة من نظراته القوية النافذة ، فراقه منظره النبيل وطوله الفارع ، وبدا على وجهه الارتياح لرؤيته ، وسأله :

ـــ أقادم أنت حقا من بلاد النوبة ؟

ـــ نعم يا مولاى .

ـــ وماذا تبغى من وراء رحلتك هذه ؟

ـــ أطمع أن اهدى إلى سادة مصر تحفا مما يوجد فى بلاد النوبة ، آملا أن تروقهم فيطلبوا المزيد منها .

ـــ وماذا تطلب أنت لقاء ذلك ؟

ـــ بعض ما يفيض عن حاجة مصر من الغلال .

فهز الحاكم رأسه الكبير ، وقد لاحت فى عينيه نظرة ساخرة ، وقال بصراحة :

ـــ أراك حديث السن ولكنك جسور مغامر ، ومن حسن طالعك أنى أحب

المغامرين ... والآن أرنى ما تحمل من التحف ..

ودعا إسفينيس أحمس فاقترب الشاب من الحاكم ووضع عند موضع قدميه صندوقه ، وفتحه التاجر فبدا ما بداخله من الياقوت صيغ حليا مختلفة أشكالها ، فتفحصها الحاكم بعينين لاح فيهما الجشع والطمع والإعجاب ، ومضى يقلبها بين يديه ، ثم سأل الشاب قائلا :

— هل يوجد من هذه الحلى كثير فى النوبة ؟

فأجاب إسفينيس بلباقة ، وكان أعد الجواب من قبل أن يدخل مصر :

— إنه لمن أعجب الأمور يا مولاى أن توجد هذه الأحجار الكريمة فى أقاصى أدغال النوبة ، حيث تأوى الوحوش الضارية وتنتشر الأوبئة الفتاكة ..

ثم عرض على الحاكم صندوقا من الزمرد ، وثانيا من المرجان ، وثالثا من الذهب ، ورابعا من اللؤلؤ . وتفحصها الرجل على مهل مبهورا حتى بدا فى النهاية كالثمل النشوان ، وعرض عليه بعد ذلك أقفاص الغزلان والزرائف والقرود وهو يقول :

— ما أجمل هذا الحيوان فى حديقة القصر .

فابتسم الحاكم وهو يقول لنفسه : « يا له من شاب كالشيطان لا يقاوم .. » وبلغت دهشة الحاكم نهايتها حين رفع الستار عن الهودج ، وبدا زولو بخلقه الغريب ، فلم يتمالك الحاكم أن قام واقفا ، ودنا من الهودج ودار حوله وهو يتساءل :

— يا للعجب .. أحيوان هو أم انسان ؟.

فقال إسفينيس مبتسما :

— بل إنسان يا مولاى من شعب جم العدد .

— هذا أعجب ما رأيت وما سمعت ..

ونادى الرجل عبدا وقال له :

— ادع الأميرة أمنريدس وزوجى وأختى .

١٠

وجاء الذين دعاهم الحاكم ، ورأى إسفينيس أن يخفض بصره تأدبا ، ولكنه سمع صوتا رخيما زلزلت له نفسه زلزالا شديدا يقول :

ـــ لماذا أزعجت مجلسنا أيها الحاكم ؟..

فاختلس نظرة إلى الداخلين ، فرأى فى مقدمتهم الأميرة التى زارت بالأمس قافلته وانتقت القلب الزمردى ، وكان منظرها كما عهده يغشى العيون ، ويفعل بها ما يفعله الوهج الشديد ، فأيقن الشاب أن الحاكم خنزر وزوجه من الأسرة الفرعونية لا محالة . على أنه رأى وجها آخر ليس بالجديد عليه ، وهو وجه الرجل الذى تبع الأميرة وزوج الحاكم ، فقد كان القاضى الذى حكم على إبانا بالأمس ، وقد وضح له ما بينه وبين الحاكم من شبه قريب وما من شك فى أن الأميرة والقاضى عرفاه كذلك ، لأنهما ألقيا عليه نظرة ذات معنى . وكان الحاكم يجهل ما يحدث حوله من التعارف الصامت ، فانحنى للأميرة وقال :

ـــ تعالى يا صاحبة السمو انظرى إلى أنفس ما حوت بطون الأرض وأغرب ما حمل سطحها . ودار على الصناديق المحملة بالأحجار الكريمة وأقفاص الحيوان وهودج زولو ، فأقبلوا عليها فى شغف ودهشة وأعجاب . ونال القزم قسطه من الإنكار والغرابة ، وكانت زوج الحاكم أكبرهم دهشة وإعجابا ، وكانت مغرمة بالجواهر غراما يضرب به المثل ، فأقبلت على صناديق العاج أيما إقبال . أما القاضى فتحول إلى إسفينيس وقال له :

ـــ كنت بالأمس أسائل نفسى عن مصدر ثروتك ، وقد عرفت اليوم كل شىء ..

فقلب الحاكم وجهه فيهما ، وقال لشقيقه :

ـــ ماذا تعنى أيها القاضى سنموت ؟.. هل عرفت هذا الشاب قبل الآن ؟

ـــ نعم يا سيدى الحاكم ، رأيته بالأمس فى المحكمة ، والظاهر أنه عظيم الاعتداد بنفسه وبثروته ، فقد تبرع بخمسين قطعة من الذهب لينقذ فلاحة متهمة بإهانة القائد رخ من السجن والجلد ، فترى يا سيدى أن القائد أصيب فى يوم واحد بفلاحة تتطاول عليه وبفلاح يتحدى غضبه ..

فضحكت الأميرة أمنريدس ضحكة رقيقة ساخرة ، وقالت وهى تلقى نظرة على وجه الشاب :

ـــ وما وجه العجب فى ذلك أيها القاضى سنموت ؟.. أليس من الطبيعى أن يشمر فلاح للدفاع عن فلاحة ؟..

ـــ الحق يا مولاتى أن الفلاحين لا يقوون على شىء ، ولكنه الذهب وسحره . وقد صدق من قال إنك إذا رغبت فى أن تنتفع بالفلاح فأفقره ثم اضربه بالسوط .

أما الحاكم فكان بطبعه عظيم الإعجاب بأعمال الجسارة والبسالة ، فقال :

ـــ إن التاجر شاب جسور ، وما اقتحامه حدود بلادنا إلا آية من آى شجاعته . مرحى .. مرحى .. ليته كان رجل قتال لأقاتله ، فقد صدئ سيفى من طول انزوائه فى غمده ..

فقالت الأميرة أمنريدس بلهجتها الساخرة :

ـــ كيف لا تأخذك به الرحمة أيها القاضى سنموت وهو يديننى ؟

ـــ أتقولين يدينك يا صاحبة السمو ؟.. يا لها من كلمة ..

وضحكت من دهشة الحاكم ، وقصت عليه كيف رأت القافلة ، وكيف جذبها زولو إلى السفينة حيث انتقت العقد الجميل ، وكانت تروى قصتها بلهجة دلت على ما تتمتع به من حرية وجسارة ، وميل إلى السخرية والفكاهة ، فزالت دهشة الحاكم خنزر ، وقال لها مداعبا :

ـــ لماذا اخترت قلبا أخضر يا صاحبة السمو ؟.. فإنا نعلم معنى القلب

الأبيض والقلب الأسود ، ولكن ما معنى القلب الأخضر ؟

فقالت الأميرة ضاحكة :

— وجّه سؤالك إلى بائع القلب ؟

وكان إسفينيس صامتا منصتا تعلوه الكآبة ؛ فقال :

— القلب الأخضر يا صاحبة العظمة رمز الخصب والحنان ..

فقالت الأميرة :

— ما أشد حاجتى إلى هذا القلب ، لأنى أحس أحيانا أنى قاسية حتى ليلذ لى أن أقسو على نفسى ..

وكان القاضى سنموت يطيل النظر فى تلك الأثناء إلى زولو ، وحاول أن يحول انتباه زوج شقيقه إليه ، ولكنها أبت أن تتحول عن صناديق الأحجار الكريمة ، فقال القاضى وقد تأفف من منظر القزم :

— يا له من مخلوق قبيح .

فقال إسفينيس :

— إنه من شعب من الأقزام ، لا تروقهم صورتنا ، ويعتقدون أن الخالق شوه ملامحها وقبح أطرافها ..

فضحك الحاكم خنزر ضحكة عظيمة ، وقال :

— إن قولك هذا أعجب من زولو نفسه ، ومن كل ما تحمل من غريب الحيوان والنفائس .

وقال سنموت وهو يحدج إسفينيس بنظرة ارتياب :

— أرى هذا الشاب يدع أفكارنا تضطرب بأخيلته ، فمن المؤكد أن أولئك الأقزام لا يمكن أن يدركوا معنى للحسن أو القبيح ..

ورنت الأميرة أمنريدس إلى القزم كالمعتذرة ، وقالت :

— هل تستقبح النظر إلى وجهى يا زولو ؟

فعاد خنزر إلى قهقهته ، واختلج قلب إسفينيس لما رآه من روعة حسنها وفتنة دلالها ، وقد تمنى فى تلك اللحظة أن يديم إليها النظر . وساد الصمت بعد ذلك ، فأدرك الشاب أنه قد آن وقت الانصراف وخشى أن يصرفه الحاكم دون أن يطرق الموضوع الذى يهمه ، فقال للحاكم :

— هل من الممكن أيها الحاكم الجليل أن أطمع فى تحقيق آمالى فى ظل رعايتك الكريمة ؟

ففكر الحاكم وعبثت يده بلحيته الغزيرة السوداء ، ثم قال :

— لقد مل قومنا الحرب والغزو ومالوا إلى الترف والنعيم ، وإنهم ليترفعون بطبعهم عن التجارة ، فلا سبيل إلى هذه الدرر الثمينة إلا بالمغامرين من أمثالك . ولكنى لا أحب أن أعطيك كلمتى الآن ، فينبغى أن أحدث قبل ذلك مولاى الملك . وسأرفع إلى ذاته العليا أجمل هذه النفائس عسى أن يوافقنى على رأيى .

فانشرح صدر إسفينيس وقال :

— سيدى الحاكم ، إنى أحتفظ لمولانا فرعون بهدية نفيسة صنعت خاصة لذاته العليا .

فتفرس الحاكم فى وجهه مليا ، وخطرت له فكرة يتقرب بها إلى مولاه فقال :

— فى ختام هذا الشهر يحتفل فرعون بعيد النصر كعادته منذ عشرة أعوام ومن الممكن أن أجعل منك ومن أقزامك مفاجأة سارة للمليك ، فتقدم إليه هديتك التى لا شك أنها لائقة بالمقام الأعلى .. فأخبرنى عن اسمك ومقامك ..

— أدعى يا مولاى إسفينيس ، وأقيم حيث ترسو قافلتى على شاطئ حى الصيادين جنوب طيبة .

— سيأتيك رسولى فى يوم قريب .

وانحنى الشاب فى إجلال عظيم ، وبرح المكان يتبعه عبيده . وكانت الأميرة تنظر فى وجهه وهو يحدث الحاكم عن آماله ، ويصغى إليه ، وتبعته بنظرها وهو

يبرح المكان ، فعجبت لآى النبل والحسن البادية على وجهه وقامته ، وأسفت أن يكون حظه من الدنيا التجارة وحمل الأقزام . أواه .. كم تمنت أن تجد هذه القامة فى جسم واحد من قومها الميالين إلى البدانة والقصر ، ولكنها وجدتها فى جسم مصرى أسمر يتجر فى الأقزام .. وأحست أن صورة هذا الفتى الجميل تحرك عاطفة فى نفسها .. فبدت كالغاضبة ، وولت الحاكم وآله ظهرها وفارقت البهو ..

١١

وعاد إسفينيس والعبيد فى أثر مرشدهم إلى الحديقة ، فتنسم نسمة من ريح طيبة هدأت من وجدانه الثائر ، وتنفس تنفسة عميقة امتلأ بها صدره ، وكان يعد نتيجة رحلته هذه توفيقا عظيما . ولكنه كان يفكر فى الأميرة أمنريدس ويتمثل وجهها النورانى وشعرها الذهبى وشفتيها القرمزيتين ، والقلب الزمردى المدلى على صدرها الناهد .. رباه !.. ينبغى أن يتعامى عن المطالبة بثمنه ليظل قلبه وقلبها معا .. وقال لنفسه : إنها ربيبة النعيم والحب ، تظن على غير شك أن الدنيا ما فيها رهن إشارة من أصبعها ، وجسورا ضحوكا : ولكنه ضحك مترف لا يخلو من القسوة ، تضاحك الحاكم وتهزأ بتاجر غريب ولما تبلغ التامنة عشرة ، ولو رأيتها غدا على متن جواد تريش سهما ما حق لى العجب ..

ثم نصح نفسه ألا يستسلم للتفكير فيها ، ولكى يعمل بنصيحته عاود التفكير فى توفيقه فأثنى على الحاكم خنزر . إنه حاكم جبار قوى عظيم الشجاعة ، ولكنه طيب القلب ، وربما كان عظيم الغباوة أيضا . وإن نزوعه إلى الذهب عظيم كعامة قومه ، وقد هضمت معدته الهدايا الكثيرة من الذهب واللؤلؤ والزمرد والياقوت والحيوان والمسكين زولو بغير كلمة شكر .. ولكن هذا الجشع هو الذى فتح له أبواب مصر ، وبلغ به قصر الحاكم ، وسينتهى به قريبا إلى قصر فرعون . وكان أحمس يسير على مقربة منه ، فسمعه يهمس بصوت لا يكاد يسمع قائلا : « شارف » فظنه يخاطبه . فالتفت إليه فوجده ينظر إلى شيخ هرم يحمل سلة أزهار ويضرب فى الحديقة بخطى واهنة ، وسمع الشيخ الصوت الذى يناديه ، فتلفت فيما حوله يبحث ببصره الضعيف عمن يناديه .. ولكن أحمس تحاماه وولاه قفاه ، فدهش إسفينيس وألقى عليه نظرة متسائلة ، ولكن الفتى خفض نظره ولم

ينبس بكلمة .

وبلغوا السفينة وصعدوا إليها فوجدوا لاتو فى انتظارهم ، يلوح على وجهه الذابل الاهتمام الشديد . فابتسم إسفينيس وقال له :

— وفقنا بفضل الرب آمون .

ثم رفعت المرساة وتحركت المجاديف ، فأقبل الشاب عليه يحدثه حديث المقابلة ، حتى قطع عليهما الحديث صوت بكاء . فالتفتا إلى مصدره فرأيا أحمس متكئا على حائط السفينة ينتحب كالأطفال ، فراعهما منظره ، وتذكر إسفينيس ما غمض عليه من سلوكه فى الحديقة ، فدنا منه يتبعه لاتو ، ووضع يده على منكبه وقال له :

— أحمس ما الذى يبكيك ؟

ولكن الفتى لم يجبه و لم يع مما قال شيئا ، واستسلم للبكاء فى حزن عميق غلبه على أمره وأفقده وعيه فانزعج الرجلان وأحاطا به ، وأخذاه إلى المقصورة وأجلساه بينهما ، وأحضر إسفينيس له قدحا من الماء وقال له :

— ما الذى يبكيك يا أحمس ؟.. هل تعرف ذاك الشيخ الهرم الذى دعوته شارف ؟

فقال أحمس وهو يرتجف من حرارة البكاء :

— كيف لا أعرفه ؟. كيف لا أعرفه ؟.

فسأله فى غرابة :

— من هو ؟. ولماذا تبكى هذا البكاء ؟.

وأخرجه الحزن عن صمته ، فباح بما فى صدره قائلا :

— آه يا سيدى إسفينيس ، إن هذا القصر الذى دخلته خادما من خدمك هو قصر والدى ..

فبدت الدهشة على وجه إسفينيس ، وتفرس لاتو فى وجهه باهتمام شديد ، أما الشاب فاستدرك قائلا وهو فى غيبوبة الحزن الشديد :

— هذا القصر الذى اغتصبه الحاكم خنزر هو مهد طفولتى ومرتع صباى ، وبين جدرانه العالية قضت أمى البائسة عهد الشباب والنعيم فى كنف والدى قبل أن تقع القارعة فى أرض مصر ، وتطأ أرض طيبة المقدسة أقدام الغزاة .

— ومن كان أبوك يا أحمس ؟

— كان أبى قائد جيش مليكنا الشهيد سيكننرع . .

فقال لاتو :

— القائد بيبى ؟.. يا إلهى .. حقا هذا قصر القائد الباسل .

فنظر أحمس إلى لاتو بدهشة وسأله :

— هل كنت تعرف أبى أيها السيد لاتو ؟

— وهل وجد فى جيلنا من يجهله ؟

— إن قلبى يحدثنى بأنك من السادة الذين شردهم الغزو ..

فسكت لاتو رغبة عن أن يكذب على ابن القائد بيبى وسأله :

— وكيف انتهت حياة القائد الباسل ؟

— استشهد يا سيدى فى الدفاع الأخير عن طيبة ، أما والدتى فعملت بوصيته وفرت بى فى جمع من السادة إلى حى الفقراء حيث نعيش الآن ، لقد تشتت سادة طيبة الأقدمون . وتخفى قوم منهم فى أسمال بالية وهاجروا إلى حى الصيادين ، وركبت أسرة مليكنا البحر إلى مكان مجهول ، وأغلق معبد آمون أبوابه على كهنته فانقطع ما بينهم وبين العالم ، وخلا الجو للبيض الغرباء ذوى اللحى يمشون فى الأرض مرحا، ويملكون كل شيء. وكان خنزر أسعد القوم حظا فزوجة الملك أخته، ووهبه ضيعة أبى وقصره، ونصبه حاكما على الجنوب جزاء ما اقترفت يداه الأثيمتان..

فسأله لاتو :

— وأى ذنب اقترفه الحاكم ؟

وكان أحمس سكت عن البكاء ، فقال بلهجة تنطوى على الغضب الشديد :

— يده الأثيمة التى أردت مليكنا سيكننرع .

وانتفض إسفينيس كمن مسته نار حامية ، ولم يطق قعودا فانتصب واقفا متوعدا وقد ارتسم الغضب على وجهه بصورة مروعة تبعث الرعب فى الأفئدة ، فى حين أغضى لاتو الطرف ممتقع الوجه لاهث الأنفاس ، وردد أحمس بصره بينهما فوجد أخيرا من يشاركه عواطفه المضطرمة ، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلا :

— ألا فليبارك الرب هذا الغضب القدسى ..

وبلغت السفينة مرفأها ، وكانت الشمس تنغمس فى النيل والشفق يخضب الأفق ، فقصدوا إلى بيت إبانا ، ووجدوا السيدة تشعل مصباحها . فلما شعرت بمقدمهم تحولت إليهم وعلى فمها ابتسامة ترحيب ، فتقدم منها لاتو وإسفينيس وانحنيا لها فى إجلال ، وقال الشيخ فى صوت رزين :

— طيب الرب مساء أرملة قائدنا العظيم بيبى ...

فغاضت الابتسامة من شفتيها ، واتسعت حدقتاها دهشة وانزعاجا ، وحدجت ابنها بنظرة لوم وتأنيب ، وأرادت الكلام فامتنع عليها ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، فدنا منها أحمس ووضع يدها بين راحتيه ، وقال لها بحنان :

— أماه لا تخافى ولا تحزنى ، وقد علمت ما أولانى هذان السيدان من الجميل ، واعلمى إلى هذا أنهما كما ظننت من سادة طيبة الأقدمين الذى شردهم الطغيان ، نازعهما الشوق إلى اجتلاء وجه الوطن مرة أخرى ..

فسكنت نفس المرأة ومدت لهما يدها فطالعاها بوجهين ينطقان بالصفاء والإخلاص ، وجلسوا جميعا متقاربين ، وقال إسفينيس :

— إن فخرنا العظيم بالجلوس إلى أرملة قائدنا الباسل بيبى ، الذى قضى فى الدفاع عن طيبة ولحق بمولاه من أنبل السبل ، إلى ابنه الشاب المتحمس أحمس ..

فقالت إبانا :

— وإنى لجد سعيدة أن تلقى إلى المصادفات السعيدة رجلين كريمين من رجال

العهد القديم ، فنتذاكر معا أيامنا الخوالى . ونشعر بحاضرنا شعورا واحدا . أما أحمس فهو شاب عظيم الحماسة جدير باسمه ، وقد دعاه أبوه تيمنا باسم أحمس حفيد مليكنا سيكننرع وابن ملكنا كاموس — وقد ولدا فى يوم واحد — طيب الرب مساءه حيثما كان ..

وبسط لاتو كفيه مؤمنا على قولها ، وقال بصدق وإخلاص :

— ليحفظ الرب صديقنا أحمس ، وليحفظ سميه العظيم حيثما كان ...

١٢

وتوطدت المودة بين التاجرين وأسرة إبانا ، فعاشوا جميعا أسرة واحدة لا يفترقون إلا فى الثلث الأول من الليل ، وعلم الرجلان أن حى الصيادين مكتظ بالسادة المختفين من تجار طيبة وأصحاب ضياعها ومزارعها السابقين ، فسر لذلك الرجلان ، وأرادا أن يتعرفا إلى بعض البارزين منهم ، وأفضيا برغبتهما إلى أحمس بعد أن استوثقا من إخلاص القوم ، ورحب الفتى برغبتهما ، واختار أربعة من أقرب المقربين إلى والدته هم : سنب وهام وكوم وديب ، وأسر إليهم بحقيقة التاجرين ، ودعاهم يوما إلى داره حيث وافاهم لاتو وإسفينيس . وكان الرجال يرتدون لباس الفقراء ، وزرة وسترة من الكتان بالية ، فرحبوا جميعا بالتاجرين وتبادلوا التحيات بحرارة دلت على الصدق والمودة ، قال أحمس :

ـــ إن من ترون مثلكما من سادة مصر الأقدمين ، وجميعهم يعيشون عيشة الصيادين المنبوذة البائسة ، على حين يستأثر بأرضهم الرعاة الملعونون ..

وسأل هام التاجرين :

ـــ هل أنتما من طيبة أيها السيدان ؟

فقال لاتو :

ـــ كلا يا سيدى . ولكنا كنا يوما من ملاك أمبوس ..

فقال سنب :

ـــ وهل هاجر إلى النوبة كثيرون مثلكما ؟...

فقال لاتو :

ـــ نعم يا سيدى ، وفى نباتا خاصة يوجد مئات من المصريين ، ومن أمبوس وسيين وهابو ومن طيبة نفسها ..

فتبادل الرجال النظرات ، و لم يكن يرتاب منهم أحد فى التاجرين بعدما قص عليهم أحمس ما صنع إسفينيس لأمه فى المحكمة ، فتساءل هام :

ـــ وكيف تعيشون فى نباتا أيها السيد لاتو ؟

ـــ عيشة الضنك كالنوبيين أنفسهم ، ففى النوبة تجود الأرض بالذهب وتشح بالغلال ...

ـــ ولكنكم سعداء ما دمتم لا تمتد إليكم أيدى الرعاة .

ـــ دون شك ، ولذلك لا نفتأ نذكر مصر وأهلها الأسرى المستعبدين .

ـــ ألا يوجد لنا فى الجنوب قوة حربية ؟

ـــ بلى ، ولكنها قوة صغيرة يستعين بها رؤوم حاكم الجنوب المصرى على حفظ الأمن فى البلاد .

ـــ وما عسى أن يكون شعور النوبيين نحونا بعد الغزو ؟

ـــ إن النوبيين يحبوننا ويرضون بحكمنا طائعين ، ولذلك لا يلقى رؤوم أية مشقة فى حكم البلاد بقوة صغيرة لا يعتد بها ، ولو شقوا عصا الطاعة ما وجدوا قوة تؤدبهم ...

فلاحت الأحلام فى أعين الرجال ، وكان أحمس قص عليهم كيف تمكن التاجران من اجتياز الحدود وزيارة الحاكم ، وكيف أن إسفينيس سيقدم إلى أبو فيس هدية يوم الاحتفال بعيد النصر ، فتساءل هام بامتعاض :

ـــ وما تبغى من وراء تقديم هديتك إلى أبو فيس ؟

فقال إسفينيس :

ـــ أن أثير جشعه ، فيأذن لى بالاتجار بين النوبة ومصر وتبادل الذهب بالحبوب ...

فسكت الرجال ، وسكت إسفينيس ساعة يفكر ، وبدا له أن يخطو خطوة جديدة فى سبيل مشروعه ، فقال باهتمام :

ـــ أصغوا إلى أيها السادة ، ليس هدفنا الذى نرمى إليه التجارة ، وما ينبغى أن

تكون التجارة هدف قوم قدموا إليكم فى بيت أرملة قائدنا العظيم بيبى ، ولكننا نأمل أن تصل قافلتنا مصر بالنوبة ، وأن نستعين بقوم منكم كعمال فى الظاهر فنحملكم إلى إخواننا فى الجنوب . سنحمل الذهب إلى مصر ونعود بالحبوب والرجال ، وربما كررنا يوما بالرجال فقط ...

فاستمع الجميع فى دهشة ممزوجة بفرح ، وأشعت أعينهم نورا خاطفا ، وصاحت إبانا قائلة :

ـــ رباه !. ما هذا الصوت الجميل الذى يحيى فى أنفسنا هامد الأمل .!

وصاح هام قائلا :

ـــ يا إلهى ... إن الحياة تدب فى مقبرة طيبة .

وهتف كوم :

ـــ أيها الشاب الذى يبعث صوته القلوب الميتة ، لقد كنا نعيش حتى الساعة بلا أمل ولا مستقبل ، يئودنا شقاء حاضرنا فلا نجد منه مهربا إلا فى تذكر الماضى المجيد والتحسر عليه ، وها أنت ذا تزيح الستار عن مستقبل باهر ...

فانشرح صدر إسفينيس وأفعم قلبه أملا ، وقال بصوته الجميل المثير :

ـــ لا ينفع البكاء يا أيها السادة ، فإن الماضى يوغل فى القدم والفناء ما دمتم تقنعون بالتحسر عليه ، وما يلبث مجده أن يصبح قريبا إذا توثبتم للعمل له . فلا يحزنكم أن تكونوا اليوم تجارا ، فإنكم فى القريب تصيرون جنودا تضيق بهم الأرض وتذل لهم الحصون ، ولكن أصدقونى هل تثقون بإخوانكم جميعا ؟

فقالوا فى نفس واحد :

ـــ ثقتنا بأنفسنا ..

ـــ ألا تخشون العيون ؟

ـــ إن الرعاة جبابرة بغير عقول ، وقد اطمأنوا بقوتهم إلى استعبادنا عشر سنين فهم لا يحاذرون .

فصفق إسفينيس بيديه فرحا وقال :

ـــ اذهبوا إلى إخوانكم المخلصين وبشروا بالأمل الجديد ، واجمعوا بيننا وبينهم في كل حين لنتبادل الرأى والشورى ولنبلغهم رسالة الجنوب ، وإذا كان مصريو نباتا الآمنون غاضبين ، فأولى بكم الغضب .

فأمن الرجال على قوله متحمسين ، وقال نايب :

ـــ نحن غاضبون أيها الشاب النبيل ، سيثبت لك كفاحنا أننا أشد غضبا من إخوان نباتا ...

وحيوا التاجرين ومضوا وقد داخلتهم ثورة غضب وتحفز لا تهدأ ولا تسكن ، وسمع الرجلان إبانا تتنهد وتقول :

ـــ رباه !.. من يدلنا على أسرة مليكنا الشهيد ؟.. وفى أى ركن من الأرض هو ؟..

ومضت أسابيع وكان إسفينيس وزميله الشيخ لا يذوقان طعم الراحة . كانا يجتمعان برجال طيبة المتخفين فى بيت إبانا ، وكانا يكاشفانهم بآمال المصريين المهاجرين فيبثان فى نفوسهم الأمل والحياة ، ويصبان فى عزائمهم القوة والجلاد ، حتى بات حى الصيادين جميعه ينتظر على لهفة وجزع الساعة التى يدعى فيها إسفينيس إلى القصر الفرعونى .

وتوالت الأيام حتى كان يوم جاء حى الصيادين أحد حجاب حاكم الجنوب يسأل عن قافلة المدعو إسفينيس ، ثم سلمه كتابا من الحاكم يجيز له دخول القصر الفرعونى فى ساعة سماها من يوم العيد ، ورأى كثيرون الرسول فابتهجوا وشملهم السرور ، وأشرق فى نفوسهم الأمل ..

وفى ذلك المساء نامت القافلة ، ولبث إسفينيس منفردا على ظهر السفينة فى هدأة وجلال الليل الساكن ، يغمره نور القمر ويسيل على وجهه النبيل دررا ولؤلؤا لامعا متوهجا ، فدخلته رقة ، وأثلج صدره الرضا ، وطاب لخياله أن يتردد بين الماضى القريب والحاضر الغريب . فتمثل ساعة الوداع فى نباتا ، وجدته توتيشيرى تبشره بأن روح آمون أوحت إليها أن ترسله إلى مصر ، وقد

وقف أبوه كاموس قرزيبا منه يوصيه بصوته الجهورى المؤثر . وذكر أمه الملكة ستكيموس وهى تلثم جبينه ، وزوجه نيفرتارى وهى تلقى عليه نظرة الوداع من خلال أهدابها المبتلة .. فلاحت فى عينيه نظرة حنان كنور القمر فى صفائه وحيائه .. ونفذت قطرات من الحسن المنبث ما بين السماء وماء النيل إلى قلبه . فانتعش وانتشى بخمر إلٰهية . ولكن طرقت مخيلته خلسة صورة من النور والبهاء ، فاقشعر بدنه ، وأغمض جفنيه كأنما يفر منها فرارا ، وهمس لنفسه بامتعاض : « يا إلٰهى .. إنى أذكرها أكثر مما ينبغى .. وما ينبغى لى أن أذكرها بتاتا .. » .

١٣

وجاء يوم العيد ، فلبث إسفينيس فى السفينة نهار اليوم ؛ وعند المساء لبس أجمل ما عنده من الثياب ، ورجل جمته ومس طيبا ، وبرح السفينة يتبعه عبيده يحملون صندوقا من العاج . وهودجا مسدل الستائر ، وساروا فى طريق القصر . وكانت طيبة ساهرة تضج أجواؤها بنقر الدفوف وسجع الأغانى ، وينير القمر منها سبلا اكتظت بجماعات الجنود السكارى المنشدين ، وعربات الأعيان والنبلاء تقطع الطريق صوب القصر الفرعونى يتقدمها الخدم حاملين المشاعل ، فتولت الشاب كآبة ثقيلة ، وقال لنفسه محزونا : « قضى على أن أشارك القوم عيدهم الذى يحيون به ذكرى سقوط طيبة ومقتل سيكننرع » . وصوب نحو الجنود المتهافتين نظرة مغضبة ، وذكر قول الحكيم قاقمنا : « الجنود إذا تعودوا الشراب ، وهنت سواعدهم وعافوا القتال » .

ثم تابع تيار السائرين حتى شارف ميدان القصر ، ولاحت لعينيه أسواره ونوافذه نورا فوق نور ، فشقت عليه الرؤية وخفق قلبه بعنف ، ونسمت على رأسه المحموم ريح عبقة عاطرة من ذكريات الصبا ، وجدت قلبه حزينا ونفسه والهة . ومضى تزداد شجونه كلما أدناه المسير من مهد الطفولة ومرتع الصبا .

واقترب الشاب من أحد الحجاب وأبرز له كتاب خنزر . فنظر فيه بإمعان ، ثم نادى أحد الحراس وأمره أن يقود التاجر وقافلته إلى مكان الانتظار بالحديقة . فتبعه الشاب وعرج وراءه إلى أحد ممرات الفناء الجانبية لازدحام الممر الوسيط بالمدعوين والحجاب والحراس . وكان إسفينيس يذكر المكان جيد الذكرى ، وكأنما فارقه أمس آخر مرة . وحين بلغوا ممر الأعمدة الكبير المؤدى إلى الحديقة ، اشتد وجيب قلبه وعض على شفته السفلى من شدة التأثر ، وذكر كيف كان

يلعب فى هذا الممر مع نيفرتارى ، فيشد على عينيه حتى تخفى نفسها وراء أحد الأعمدة الهائلة ، ثم يحل العصابة ويجد فى البحث عنها حتى يظفر بها . وخال فى اللحظة أنه يسمع وقع قدميها الصغيرتين ، وبسمع رجع ضحكتها الحلوة . وكانا يحفران اسميهما على بعض العمد ، ترى هل تحتفظ بآثار اسميهما حتى الآن ؟.. وقد ود لو يغافل حارسه ويعاين أثر الماضى الجميل ، ولكن الرجل كان يوسع الخطى غير شاعر بالقلب المنصهر على قيد ذراع منه .. فبلغوا الحديقة ، وأشار الحارس إلى أريكة وقال للشاب :

— انتظر ها هنا حتى يأتيك الرسول .

وكانت الحديقة مضاءة بالمصابيح الوهاجة ، والنسيم يهب من أنحائها بشذى الريحان وريا الزهور ، فبحثت عيناه عن الموضع الذى كان يقوم فيه تمثال سيكننرع عند نهاية الممر المعشب الذى يشق الحديقة نصفين ، فوجد مكانه تمثالا جديدا لا روح فيه ؛ يمثل شخصا ربعة ضخم الهيكل كبير الرأس مقوس الأنف ذا لحية طويلة وعينين واسعتين جاحظتين ، فلم يشك فى أنه أمام أبو فيس ملك الرعاة . فأدام إليه النظر شزرا ، ثم ألقى على الحراس نظرة قاسية يستعر فيها الغضب والحنق ، وكان كل شيء من القصر والحديقة كعهده به . ولاحت لعينيه الحجرة الصيفية على هضبة عالية ، تحنو عليها أدواح النخيل بقاماتها الرشيقة الطويلة ، فذكر أيامها السعيدة ، حين كانت تهرع إليها الأسرة جميعا فى فصلى الصيف والربيع ، فينهمك جده وأبوه فى لعب الشطرنج ، وتجلس نيفرتارى بين الملكة ستكيموس وجدتها الملكة أحوتبى ، أما هو فيقعد فى حجر توتيشيرى ، ثم تمضى الساعات وهم فى شغل عنها بالسمر الرقيق ومطالعة الاشعار وأكل الفاكهة الناضجة . جلس إسفينيس فترة غير قصيرة من الليل يطالع ذكرياته على صفحات الحديقة والممرات والأروقة ، فلم يتململ ولم يجزع ، حتى جاءه الرسول وسأله :

— هل أنت مستعد ؟..

فقام واقفا وهو يقول :

— على تمام الاستعداد يا سيدى .

فقال وهو يهم يالعودة :

— اتبعنى .

فتبعه ورجاله على الأثر ، وارتقوا أدراج السلم ، وقطعوا الرواق الفرعونى حتى شارفوا باب البهو الملكى ، فلبثوا ينتظرون أن يؤذن لهم بالدخول ، وبلغ سمعيه أصوات ضحك عالية ، ووقع الأقدام الراقصة ، وسجع الموسيقى العنيف ، وشاهد زرافات السقاة يحملون الأباريق والأقداح والأزهار ، فأدرك أن القوم لا يتحرجون فى لهوهم ولا يعتدلون فى أعيادهم ، وأن الملك يعفيهم من الوقار والتأدب ليعودوا إلى فطرتهم الوحشية الأولى . ثم نادى باسمه أحد العبيد ، وتقدم بخطى متئدة ، ورأى وسط البهو خاليا ، والقوم جلوسا حوله فى ثيابهم الرسمية الفاخرة يتطلعون إليه باهتمام ، فدخله شيء من الارتباك ، وأيقن أن الحاكم عرف كيف يثير اهتمام القوم بما حدثهم عنه وعن هداياه لتعظم مآثره فى عين الملك ، واستبشر بذلك خيرا . ولما جاوز منتصف البهو أمر أتباعه بالوقوف ، ودنا وحده من العرش وحنى هامته إجلالا ، وقال بصوت الخضوع والعبودية :

— مولاى الرب المعبود ، سيد النيل ، فرعون مصر العليا والسفلى وأمير المشرقين .

فقال له الملك بصوت جهورى قوى النبرات :

— إنى أمنحك السلام أيها العبد .

واعتدلت قامة إسفينيس ، واستطاع أن يختلس نظرة سريعة إلى الرجل المتربع على عرش آبائه وأجداده ، فعرف فيه صاحب تمثال الحديقة بلا شك .

ولكنه أدرك من شدة احمرار وجهه ونظرة عينيه وكأس الخمر الموضوعة أمامه أنه ثمل . وكانت الملكة تجلس إلى يمينه ، والأميرة أمنريدس إلى شماله ، وقد لحظها الشاب فرآها فى لباسها الملكى كالكوكب المتألق ، وكانت تنظر إليه فى

هدوء وكبرياء ..

وألقى الملك عليه نظرة فاحصة فراقه منظره وابتسم قائلا بصوته الغليظ :

ـــ وحق الرب إن هذا الوجه لجدير بأحد رجالنا النبلاء ..

فأحنى إسفينيس رأسه وقال :

ـــ شاء الرب أن يجعله لمولى من موالى فرعون .

فقهقه الملك ضاحكا وقال :

ـــ أراك تحسن القول ، وبالقول الحسن يستجلب قومك عطفنا ونقودنا . وهى حكمة ست أن يعطى السيف للسيد القوى ، وحسن البيان للعبد الضعيف . ولكن لا عليك من هذا فقد قال لى صديقنا خنزر إنك تحمل لنا هدية من بلاد النوبة .. أرنا هديتك .

فحنى الشاب رأسه وانتحى جانبا ، ثم أشار إلى رجاله فتقدم اثنان منهم بالصندوق العاجى ووضعاه أمام العرش ، ودنا الشاب منه وفتحه واستخرج منه تاجا فرعونيا مزدوجا من الذهب الخالص مرصعا بالياقوت والزمرد واللؤلؤ والمرجان ، ورفعه بين يديه فخطف الأبصار ، وانبهر له القوم جميعا وضجوا بالدهشة والاستحسان . وأما أبو فيس فقد حملق فيه بعينين جاحظتين جشعتين ، وخلع تاجه دون شعور منه ، وتناول التاج الجديد بين يديه الكبيرتين ووضعه على رأسه الأصلع ، فتبدى صورة جديدة من الجلال . واغتبط الملك ولاح فى وجهه الرضا ، فقال للشاب :

ـــ أيها التاجر ، إن هديتك حازت القبول .

فانحنى إسفينيس إجلالا ، والتفت إلى رجاله وأشار إليهم إشارة خاصة فأزاحوا الستار المسدل على الهودج ، ورئى الأقزام الثلاثة جالسين متلاصقين . وقد أثار ظهورهم دهشة عظيمة فى نفوس القوم جميعا ، فقام أكثرهم واقفين ، واشرأبت الأعناق ، وصاح بهم التاجر الشاب أن حيوا مولاكم فرعون ، فقفز الأقزام الثلاثة قفزة واحدة فصاروا صفا ، ثم اقتربوا من العرش فى خطى ثابتة

وئيدة ، وسجدوا بين يدى فرعون ثلاثا ، ووقفوا ساكنين لا تبين وجوههم عن شيء . وهتف الملك قائلا:

— أيها التاجر ، ما عسى أن تكون هذه المخلوقات ؟.

— هى أناس يا مولاى تعيش قبائلها فى أقاصى النوبة الجنوبية ، ولا يصدقون أن العالم يشتمل على أقوام سواهم . فإذا رأوا واحدا منا عقدت الدهشة ألسنتهم وتنادوا متعجبين . وقد ربيت هؤلاء الثلاثة فأحسنت تربيتهم ، وسيجدهم مولاى مثالا للطاعة والعبودية ، ونوعا من التسلية والتلهية .

فهز الملك رأسه الكبير ، وضحك ضحكته العظيمة ثم قال :

— جهل من يدعى العلم كله ، أما أنت أيها الشاب فقد أدخلت السرور على قلوبنا ، وإنى أمنحك رضاى ..

وحنى إسفينيس هامته ، ثم ارتد بظهره راجعا . وعند منتصف البهو اعترض سبيله إنسان ما ، فقبض على ذراعه . والتفت إسفينيس إلى صاحب اليد الغليظة ، فرأى رجلا فى الثياب العسكرية الفخمة ، جميل العثنون غليظ الشارببن منتفخ الأوداج . دل احتقان الدم بوجهه وبريق الجنون فى نظرة عينيه على شدة سكره ، وقد حيا مولاه وقال :

— إنه ليسر مولاى من غير شك أن يشاهد فنون القتال الباسل فى الحفلات القومية ، كما تقضى به تقاليدنا المقدسة . وإنى أدخر لذات مولاى المقدسة مبارزة دموية تسر الناظرين .

فقال الملك وهو يرفع كأسه إلى شفتيه الغليظتين :

— ما أجمل أن تراق دماء الفرسان على أرض هذا البهو لتنفض عن النفوس ما ران عليها من سأم ، ولكن من السعيد الذى شرفته بعداوتك أيها القائد رخ ؟

فأشار القائد الثمل إلى إسفينيس وقال :

— هذا غريمى يا مولاى .

فعجب الملك وعجب كثيرون من النبلاء ، وسأله الملك :

ـــ كيف استجلب غضبك هذا التاجر النوبى ؟

ـــ أنقذ امرأة فلاحة ـــ تجاسرت على توجيه الإهانة إلى شخصى — من العقاب ، بدفعه خمسين قطعة من الذهب بدلا منها .

فضحك الملك ضحكته العظيمة المجلجلة ، وسأل القائد :

ـــ ولكن أترضى أن يكون غريمك فلاحا ؟

ـــ أراه يا مولاى متين البنيان مفتول العضلات ، فإذا لم يكن قلبه من قلوب الطير فإنى أغضى عن وضاعة جنسه ، مرضاة لمولاى ومشاركة فى سرور العيد .

ولكن الحاكم خنزر لم يرض عن المبارزة ، وقد رمق شقيقه القاضى سنموت بنظرة لوم ، لأنه أدرك أنه هو الذى دل القائد على إسفينيس دون تقدير منه للموقف ، وأشفق من أن يضيع سيف رخ عليه كنوز النوبة الثمينة ، فدنا من القائد رخ وقال له بحزم :

ـــ لا يجوز أن تخدش أوسمتك بمنازلة تاجر فلاح أيها القائد .

فقال رخ يقطع على الحاكم سبيله :

ـــ إذا كان من العيب أن أقاتل فلاحا ، فمن العار أن أترك عبدا يتحدانى دون أن أنزل به العقاب الذى يستحقه .. ولما رأيت فرعون يمنح هذا التاجر عطفه ، آثرت أن أنصفه وأن أتيح له فرصة للدفاع عن نفسه ..

وظن من سمع قول القائد أنه حق وعدل ، وتمنوا صادقين أن يقبل التاجر النزال ليشهدوا المبارزة وليتموا سرورهم بالعيد . وكان إسفينيس يكابد حيرة شديدة لا يجد لنفسه منها مخرجا ، وكان يشعر بتلهف القوم على استماع كلمته ، ويحس نظرة التحدى والاحتقار التى يصوبها نحوه القائد الشمل العنيد ، فيغلى الدم فى عروقه . ثم يذكر نصائح توتيشيرى ولاتو ، وكيف أن قتله هذا القائد الفظ قد يضيع من يديه الثمرة الدانية القطوف ، ويفوت على أسرته الفرصة السانحة ، فيبرد دمه وتخذله عزيمته . رباه .. لا محيد عن النكوص ، ولا محيص عن الهرب ، سيتهكم به القائد ، وترمقه الأعين بالاحتقار ، ويفارق المكان منكس الذقن

كسير الفؤاد ، ولكن يظفر بغرضه الأسمى . وهنا سمع القائد يقول له :

— لقد تحديتنى أيها الفلاح ، فهل تستطيع مواجهتى ؟

فسكت إسفينيس شاعرا بانهيار وتخاذل ، وسمع صوتا يقول : « دعوا الشاب إنه لا يعرف القتال » . وقال صوت آخر : « دعوا الشاب فإن الفارس يقاتل بنفسه لا بجسمه .. » فدخله الحنق ، وأحس يدا توضع على كتفه وصوتا يقول له : « لست فارسا ولا عار عليك إذا اعتذرت » . فنظر فرأى خنزر . فشعر بقشعريرة تسرى فى أعضائه من لمس اليد التى فتكت بجده . ولاحت منه نظرة فى تلك اللحظة الراهبة نحو العرش فرأى الأميرة أمنريدس تنظر نحوه باهتمام ، فغلبه الغضب وفقد وعيه ، فقال بصوت مسموع :

— إنى أشكر القائد على نزوله لمبارزتى ، وأقبل اليد التى يمدها لى .

وسرى الفرح فى النفوس ، وضحك الملك وشرب كأسا أخرى ، وتطلعت الرءوس من كل حدب وصوب للغريمين . وبدا الارتياح على وجه القائد وابتسم ابتسامة التشفى والانتقام ، ثم سأل إسفينيس :

— هل تضارب بالسيف ؟

فحنى رأسه أن نعم ، فأعطاه سيفا . ثم خلع إسفينيس عباءته عن سترته وسرواله فبدا جسمه الطويل القوى يجذب الأبصار برشاقته واعتدال قامته وجمال وجهه . وأعطى ترسا ، فقبض على السيف بيمناه ، ووضع الترس على يسراه ، ووقف على بعد أذرع من القائد كأحد التماثيل التى أغلقت عليها أبواب المعابد ..

وأذن الملك بالقتال ، فشهر كل منهما سيفه . وبدأ القائد الغاضب الهجوم فسدد نحو خصمه ضربة قاتلة ظنها القاضية ، ولكن الشاب تفادى منها بخفة عجيبة فضاعت فى الهواء ، و لم يمهله القائد فوجه إلى رأسه ضربة أشد من الأولى بسرعة البرق ، فتلقاها الشاب بترسه بحركة خاطفة ، فتعالت أصوات الإعجاب من أنحاء البهو جميعا ، وأدرك القائد أنه يقاتل رجلا يجيد الطعان ، فأخذ حذره ، وعاود القتال متبعا خطة جديدة ، فتصاولا ، واشتبكا وانفصلا ، وكرا وفرا ،

القائد فى غضب وعنف ، والشاب فى هدوء عجيب . وكان يصد هجمات عدوه بسهولة ويسر وثقة ، وكان كلما أطاش ضربة بمهارته الرائعة زاد غضب عدوه اهتياجا وجنونا . وأدرك الجميع أن إسفينيس يكتفى بالدفاع ولا يكاد يهجم إلا إذا أراد بهجومه إفساد خطة أو تفويت ضربة ، فتجلى فنه ، وبرع على خصمه فى الخفة والمهارة بدرجة أشعلت حماسة القوم الذين تنسيهم لذة القتال فوارق الأجناس . فجن جنون رخ . ووالى هجماته عليه بشدة وعنف لا ينى ولا يتوانى ، وصوب نحوه الضربة تلو الضربة ، فصد بترسه ما صد ، وتفادى بفنه ما تفادى منه ، ولبث سليما مطمئنا ذا ثقة لا حد لها ، لا يغضب ولا يؤخذ ، وكأنه حصن منيع . فأخذ اليأس يستولى على القائد الحانق ، وشعر بدقة موقفه وشدة حرجه ، وحدثه اليأس على المغامرة ، فرفع ذراعه بالسيف ، وجمع كل ما أعطى من قوة وعزم ليضرب ضربة الموت الزؤام ، وكان مطمئنا إلى خطة عدوه المقصورة على الدفاع . فما هو إلا أن وجه إلى قبضة سيفه ضربة رائعة فجرح سنان السيف كفه ، وارتجفت يده ، فضرب الشاب السيف ضربة أخرى أطاحت به بعيدا ، فسقط قريبا من عرش فرعون . ولبث رخ أعزل والدم يقطر من يده ، لا يكف عن حنقه . فضج القوم مسرورين متعجبين من بسالة التاجر وجميل عفوه ، ثم صاح به القائد :

ــ لماذا تبطىء فى الإجهاز على أيها الفلاح ؟

فقال إسفينيس بهدوء :

ــ ليس لدى من الأسباب ما يحملنى على ذلك ..

فصر القائد بنواجذه وانحنى للملك تحية ، ثم دار على عقبيه وبرح البهو ، وعلت ضحكة الملك طويلا حتى اضطرب لها جسمه ، ثم أشار إلى إسفينيس فأعطى الشاب سيفه وترسه إلى أحد الحجاب ، واقترب من العرش وانحنى للملك ، فقال له :

ــ إن قتالك لا يقل غرابة عن أقزامك .. كيف تعلمت القتال ؟

ـــ أيها الملك المعبود ، فى بلاد النوبة لا يأمن التاجر على قافلته إذا لم يعرف كيف يدافع عن نفسه ورفاقه ..

فقال الملك :

ـــ يا لها من بلاد .. وقد كنا مقاتلين أشداء رجالا ونساء حين كنا نجوب أطراف الصحراء الشمالية الباردة ، فلما أن احتوتنا القصور وتقلبنا فى ظلال الترف والنعيم ، وشربنا بدل الماء الخمور ، طاب لنا السلام ، ورأيت واحدا من قواد جيشى ينهزم فى قتاله مع تاجر من الفلاحين ..

وكان الملك يتكلم متهلل الوجه ضاحك الفم ، فدنا من عرشه الحاكم خنزر وانحنى له تحية وقال :

ـــ مولاى هذا الشاب باسل وحقيق بالأمان .

فهز فرعون رأسه الثمل وقال :

ـــ صدقت يا خنزر ، كان القتال عادلا شريفا ، وإنى أمنحه الأمان .

فوجد الحاكم الفرصة سانحة فقال :

ـــ مولاى .. إن هذا الشاب لعلى استعداد أن يؤدى للعرش أجل الخدمات ، بأن يحمل إليه الثمين المعجب من كنوز النوبة لقاء ما يعود به من حبوب مصر .

فنظر الملك إلى الحاكم مليا . وذكر التاج الذى يتوج رأسه ، فقال بلا تردد :

ـــ قد أذنا له فى ذلك .

فانحنى خنزر شاكرا ، وسجد إسفينيس بين يدى فرعون ، ومد يده فلثم حاشية ثوبه الملكى . ثم وقف فى خشوع وهو يقاوم رغبة فى النظر إلى شمال العرش ، ورجع القهقرى حتى غيبه باب البهو الكبير . وكان مسرورا مبتهجا ، ولكنه كان يسائل نفسه : « ترى ماذا يقول لاتو إذا علم بقصة المبارزة ؟.. » .

وبلغ إسفينيس والعبيد السفينة بعد منتصف الليل ، فوجدوا لاتو ساهرا يترقب ، فأقبل على الشاب قلقا متشوقا إلى سماع أخباره ، فقص عليه إسفينيس ما صادفه فى القصر من النجاح والمتاعب ، فقال لاتو :

ـــ لنحمد الرب آمون على ما أولانا من نجاح ، ولكنى أخون واجبى إذا لم أصارحك بأنك اقترفت خطأ كبيرا باستسلامك للغضب والكبرياء ، وما كان ينبغى لك أن تعرض آمالنا الكبار لخطر الانهيار من أجل ثورة غضب . أفما كان من الجائز أن يظفر القائد بك ؟.. أوَ ما كان من المتوقع أن يبطش الملك بك ؟.. ينبغى أن تذكر دائما أننا هنا عبيد وهم سادة ، وأننا طلاب فضل هم أصحابه وذووه ، فليكن رائدك أن تتظاهر بالشكر والإخلاص لهم ، وعلى رأسهم ذلك الحاكم الذى وجه إلى جدك العظيم وإلى مصر جميعا الضربة القاضية . افعل هذا من أجل مصر ، ومن أجل من تركناهم وراءنا فى نباتا يخشون ويرجون .

ولم يتمالك الرجل فأجهش فى البكاء ، ثم مضى إلى مخدعه فصلى صلاة حارة ..

وفى صباح اليوم التالى قصدا إلى كوخ السيدة إبانا كما وعدا أصحابهما من قبل ، فاستقبلتهما السيدة وابنها أحمس وبعض الأصدقاء ، بينهم سنب وهام وديب وكوم ، وكانوا جميعا قلقين متلهفين على سماع الأخبار ، فقال لهما هام :

ـــ إن قلوبنا قلقة يعذبها الخوف ويلهبها الأمل . وقد تركنا وراءنا فى الأكواخ القريبة المئات من الأصدقاء ممن لم يغمض لهم جفن طوال الليلة الماضية .

فابتسم إسفينيس ابتسامة حلوة ، وقال :

ـــ أبشروا يا أصدقاء ، لقد أذن لنا الملك فى الاتجار بين مصر والنوبة .

فلاح البشر فى وجوههم ، وتألقت أعينهم بنور الرجاء وقال لاتو بحزم :

ـــ جاء وقت العمل فلا تضيعوا الوقت هباء ، واعلموا أن الطريق طويل فينبغى أن نحمل أكثر ما نستطيع من الرجال . لا تتوانوا عن إغراء العامة بالاشتراك فى رحلتنا ، ومنوهم بالربح الوفير دون أن تصارحوهم بالحقيقة ، حتى نبلغ هدفنا فيما وراء الحدود . وسنجدهم بغير شك من المخلصين كعهدنا برجال طيبة ومصر جميعا .. هلموا جميعا فاحزموا أمتعتكم ..

وانتشرت فى الخفاء حركة واسعة النطاق يضطرم فى جوانبها الحماسة

والإيمان ، وهرع الرجال المتخفون فى ثياب الصيادين إلى السفن ، وشغلوا كل مكان يمكن أن يشغل من أسطحها وبطونها . ثم واجهت إسفينيس مشكلة عسيرة وهي أرجال النساء والأطفال ، وشغلهن أماكن أحق بها الرجال والشبان ، أو تركهن وحدهن على ما فى هذا من إيلام لهن ولذويهن . ورأى الشاب أن يثير المسألة فشاور فيها أصدقاءه الأقربين ، وطال الأخذ والرد ، حتى انبرى أحمس بن إبانا فقال :

ـــ أيها السيد إسفينيس ، نحن فى حاجة إلى جيش عرمرم من الرجال ، فلا يجوز أن يؤخر النساء تجنيد هذا الجيش العظيم ، وما يضيرهن أن يمكثن فى طيبة حتى نعود إليهن عودة الظافرين . وإنه لأدعى إلى حماستنا أن نقاتل وفى البلاد نساؤنا ، من أن نخلفهن وراءنا فى النوبة ، وإذا كان فى هذا الرأى ألم لنا ، فليؤد كل منا نصيبه من ضريبة الألم والتفدية فى سبيل غرضنا الأسمى .

وبلغ التأثر بإبانا مبلغا عظيما فقالت :

ـــ نعم الرأى الحكيم ... إن مكاننا هنا ، وسنقاسم أهل طيبة حظهم : إن موت فموت ، وإن حياة فحياة ...

ولم يتردد أحد عن القبول ، ورضى النساء بفراق الأزواج والأبناء ، وكان جنوب طيبة يذوب من حرارة الوداع وذرف الدموع واضطرام الدعاء والآمال ..

وكان إسفينيس لا يذوق الراحة فى تلك الأيام القلائل الحافلة بجلائل الأعمال والتفديات الصامتة ، كان يستقبل الرجال ويزور الأسر وينظم الراحلين . وكان إلى هذا يعلل نفسه بالآمال ، ويذكر الحاضر والمستقبل ، ويعالج بالصبر فورة الغضب والرغبة فى الانتقام . وكان إلى هذا وذاك يكتم أشواقا تضطرم فى فؤاده . ويغالب لواعج الوجدان التى باتت تأكل صدره وكبده ، ويضنى بما يعترك فى نفسه من أسباب البغضاء وقوى المحبة .. فلشد ما جاهد وتحمل فى الأيام القلائل ، ولشد ما تجلد وتصبر ...

١٤

وأذن أخيرا حاكم الجنوب لإسفينيس بالرحيل ، وأعطاه جوازا لعبور الحدود فى أى وقت يشاء . فرفعت القافلة مراسيها وأبحرت مع الفجر الرطيب ، وكان إسفينيس ولاتو وأحمس بن إبانا يأخذون مجالسهم فى مقصورة السفينة الأولى وفى قلوبهم شوق وحنين ، وفى عينى أحمس دموع هى آخر ما ودع به أمه . وكان إسفينيس يغرق فى أحلامه ، فذكر طيبة وأهل طيبة ، طيبة أعظم مدن الأرض ، المدينة ذات الأبواب المائة ، والمسلات التى تناطح الجوزاء ، والمعابد الهائلة والقصور الشم ، والسبل الطويلة والميادين العظيمة ، والأسواق التى لا تهدأ ولا تسكن آناء الليل وأطراف النهار ، طيبة المجيدة ، طيبة آمون الذى قضى أن تغلق أبوابه دون عباده عشرة أعوام من الأسر ، طيبة التى حكمها الهمج أخيرا وجلسوا منها مجلس الوزراء والقضاة والقواد والنبلاء واستعبدوا أهلها فالدهـــر يمرغ وجوههم فى ثرى من كان بالأمس لهم عبدا . وتنهد الشاب من قلب مكلوم ، ثم ذكر الرجال الجاثمين فى بطون سفنه يحدوهم أمل واحد ، ويدفعهم إلى الأهوال حب لمصر مكين توارثوه جيلا بعد جيل . كم يعانون من ألم الفراق لمن خلفوا وراءهم بين أيدى أعدائهم من زوجات وبنات وأطفال ، وكأنهم جميعا هذا الفتى الباسل أحمس الذى يكظم أشواقه ويكتم حنينه ويبدو على وجهه العزم والقوة .. ثم طافت بذهنه فى حشد الذكريات صورة ذات بهاء ، فأطرق ليخفى عينيه عن لاتو الثاقب البصر ، ولو علم الرجل فيما يفكر لغضب مرة أخرى ، ولكبر عليه أن يشغل قلبه بابنة الشيطان كما دعاها أول مرة . وعجب لنفسه كيف تحوم حول صورتها ، وكيف لا تنفك تنزع إليها . وتساءل متحيرا : هل يمكن أن يجتمع الحب والكراهية لشىء واحد ؟. ولاحت فى عينيه نظرة حزينة ، وقال

لنفسه : مهما يكن أمرى فلن تقع عيناى عليها مرة أخرى فلا داعى للقلق ، وهل وجد فى الدنيا شىء يعز على النسيان ؟. وقطع عليه أحلامه لاتو وهو يقول بلهجة دلت على القلق :

ـــ انظر إلى الشمال ... أرى قافلة قادمة على عجل ...

فنظر الشابان إلى الوراء فرأيا قافلة من خمس سفن تشق عباب الماء بسرعة ، ولم تستطع الأعين رؤية من فيها ولكنها أخذت تدنو بسرعة وتستبين أجزاؤها فعاين إسفينيس رجلا يقف فى مقدمة القافلة فعرفه ، وقال بقلق :

ـــ هذا القائد رخ ...

فامتقع وجه لاتو ، وقال وقد تزايد اضطرابه :

ـــ ترى هل يبغى اللحاق بنا ؟

فلم يدر الآخر كيف يجيبه ، وراقبوا القافلة باهتمام وحذر ، وساور لاتو بعض المخاوف فقال بحنق :

ـــ هل يجىء هذا الأحمق ليعوق مسيرنا ؟

وأدرك إسفينيس أنه لم يخلص بعد من عواقب خطئه ، وأن الخطر يوشك أن يحيق بقافلته وقد شارفت بر الأمان والسلامة . وصوب بصره نحو قافلة رخ فرآها تقترب بسرعة حتى جاوزت بعض سفن قافلته . وإذا بها خمس سفن حربية يقف على أسطحها فصائل من جند الحرس ولم تجىء لخير بلا شك . ثم اتجهت سفينة القيادة نحو سفينته فحاذتها ، ورأى القائد يحدجه بنظرة قاسية ، وسمعه يصيح به بصوته الغليظ :

ـــ قف وألق مراسيك .

وغيرت السفن اتجاهها لتحاصر القافلة ، فأمر إسفينيس بحارته أن يكفوا عن التجديف وأن يلقوا المراسى ، فأذعنوا لما أمروا ، وقد تولاهم الخوف رأوا سفن الرعاة تحمل الجنود الشاكى السلاح كأنهم يتأهبون لمعركة حربية . واشتد القلق بإسفينيس ، وأشفق من أن ينكل القائد الحقود بقافلته فيئد أمل قومه

جميعا ، وقال لرفيقه :

ــ إذا كان هذا الرجل يريد رأسي فلا بأس أن أكون أول صرعى الكفاح الجديد ، وما عليك يا لاتو إذا قضيت إلا أن تستأنف المسير ، دون أن تمكن للغضب من نفسك فتقضي على آمالنا جميعا ...

فشد الشيخ على يده وقد اسودت الدنيا فى عينيه ، واستدرك إسفينيس قائلا بحزم :

ــ إنى أوصيك يا لاتو بما أوصيتنى به بالأمس من تجنب الغضب غير الحكيم . دعنى أدفع ثمن خطئى . ولئن تعد غدا إلى أبى فتعزيه عن موتى وتهنئه بمن حملت إليه من جنود مصر ، لخير من أن تعود بى إليه وقد خسرنا أملنا إلى الأبد ...

وسمع القائد رخ يصيح به قائلا :

ــ اخرج إلى وسط السفينة أيها الفلاح .

فشد الشاب على يد لاتو ومضى بقدمين ثابتتين ، فقال له القائد وكان يقف على سطح سفينته :

ــ لقد أطحت بسيفى أيها العبد المفتون وأنا ثمل أترنح وهأنذا أنتظرك وقلبى ثابت وساعدى غير مرتعش .

فأدرك أن القائد ذو طبيعة انتقامية ، وأنه يريد أن ينازله ليغسل العار الذى لحقه منه ، فقال له بهدوء وقد دخله شىء من الطمأنينة على قافلته :

ــ هل ترغب فى أن تعيد الكرة أيها القائد ؟

فقال بقحة :

ــ نعم أيها العبد ، وسأقتلك بيدى هذه المرة شر قتلة .

فسأله إسفينيس فى هدوء :

ــ وأنا لا أخشى نزالك ، ولكن هل تعد بألا تمس قافلتى بسوء مهما تكن عاقبة المبارزة ؟...

فقال القائد باحتقار :

— سأترك القافلة احتراما لمشيئة مولاى فتسير دون جثتك .

— وأين تريد القتال ؟

— على ظهر سفينتى .

فلم ينبس الشاب بكلمة ، وقفز إلى قارب وجدف بساعديه القويين حتى بلغ سفينة القائد ، ثم ارتقى السلم إلى سطحها ووقف أمام عدوه وجها لوجه . فألقى عليه القائد نظرة قاسية وقد أغضبه ما يبدو على وجهه الجميل من الهدوء والثبات والاستهانة ، وأشار إلى جندى من الجنود فأعطى الشاب سيفا وترسا ، وقال له القائد وهو يتحفز للقتال :

— لا رحمة اليوم فدافع عن نفسك . ثم هجم عليه كالوحش الضارى فاشتبكا فى قتال عنيف وسط دائرة واسعة من الجنود المدججين بالسلاح ؛ وعلى مقدمة السفينة الأخرى وقف لاتو وأحمس يشاهدان المعركة ببصر زائغ ... وتتابعت ضربات القائد فصدها إسفينيس بمهارته الفائقة . ثم وجه إلى خصمه ضربة شديدة سقطت على ترسه فصكته بعنف بدا عليه أثره ، فانتهز الشاب الفرصة وبدأ هجومه عليه بشدة وحذق ، فاضطر القائد إلى التقهقر ، وجعل يدفع عن نفسه الضربات التى يسددها له خصمه المقتدر الذى لم يهيىء له فرصة يستريح فيها أو يعاود الهجوم ، وتبدى الحنق على وجه الرجل وصر بنواجذه بغضب جنونى ، فارتمى على خصمه يائسا . ولكن الشاب تفادى منه ووجه إليه ضربة رشيقة أصابت عنقه ، فتخاذلت يداه ، وكف عن القتال ، وترنح كالثمل ثم سقط على وجهه يتخبط فى دمه . فصرخ الجنود صرخة غاضبة ، وسلوا سيوفهم الطويلة وتحفزوا للانقضاض على الشاب لدى أول إشارة تصدر من الضابط الذى على رءوسهم . فأيقن إسفينيس بالهلاك وأدرك عبث المقاومة ولا سيما أن كثيرين كانوا يسددون نحو قلبه قسيهم ، فلبث يترقب مذاق الموت مستسلما وعيناه لا تفارقان القائد الطريح أمامه . وفى تلك اللحظة المزعجة الراهنة سمع صوتا قريبا يصيح بغضب :

ـــ أيها الضابط مر جنودك أن يغمدوا سيوفهم ..

وخيل إليه أنه يعرف الصوت فانخلع قلبه فى صدره ، والتفت إلى مصدر الصوت فرأى سفينة فرعونية تكاد تلتصق بسفينة الموت وعلى حائطها تتكىء الأميرة أمنريدس ، تلوح على وجهها الجميل آى الغضب .

* * *

وأغمد الجنود سيوفهم وأدوا التحية ، فحنى إسفينيس هامته إجلالا قبل أن يفيق من دهشته ويصدق حقا أنه نجا من الموت ، وسألت الأميرة الضابط قائلة :

ـــ هل قتل القائد رخ ؟

فاقترب الضابط من القائد ووضع يده على قلبه وتفحص عنقه ، ثم وقف قائلا :

ـــ أرى جرحه شديد الخطر يا صاحبة السمو ، ولكن به نفس يتردد .

فسألته ببرود :

ـــ وهل كان القتال عادلا ؟

ـــ نعم يا صاحبة السمو .

فقالت الأميرة بغضب :

ـــ كيف إذن سولت لكم نفوسكم الهم بقتل رجل أعطاه الملك الأمان ؟..

ولاح الارتباك فى وجه الضابط ولم ينبس بكلمة ، فقالت الأميرة بلهجة آمرة :

ـــ أطلقوا سراح هذا التاجر وعودوا بالقائد الجريح إلى أطباء القصر ..

وأذعن الضابط لما أمر فترك إسفينيس حرا ، فهبط الشاب إلى قاربه ووجهه إلى السفينة الفرعونية ، وهو يقول لنفسه بارتياح : « كيف جاءت الأميرة فى الوقت المناسب ؟.. » . ثم صعد إلى سطحها فلم يمنعه أحد من الحراس ، وصادف الأميرة قد عادت إلى مقصورتها فمضى إليها بقدمين ثابتتين ، وطلب من جارية أن تستأذن له فى الدخول .. فغابت فى الداخل لحظة ثم جاءت بإذن ،

فدخل خافق القلب ، ورأى الأميرة تجلس إلى متكأ وثير مسندة ظهرها فى رخاوة إلى نمرقة محشوة بالقز ووجهها يشع نورا سنيا ، فانحنى بين يديها فى إجلال صادق ، ورأى وهو يعتدل واقفا عقده ذا القلب الزمردى حول عنقها ، فتورد وجهه . ولم يغب عنها شيء مما ينطق به وجهه وعيناه ، فقالت بصوت رخيم عذب وهى تشير بأنملتها إلى العقد :

— أجئت تسألنى ثمن هذا العقد ؟

فاطمأن الشاب إلى لهجتها العذبة ، وسر بدعابتها وقال بإخلاص :

— بل جئت يا صاحبة السمو لأشكر سموك مخلصا على ما أوليتنى من نعمة الحياة ، التى سأظل مدينا لك بها ما حييت ..

فابتسمت ابتسامة مشرقة لاحت فى ثغرها كومضة البرق ، وقالت :

— نعم أنت مدين لى بحياتك . ولا تعجب إذ أقول هذا فلست ممن يأخذهم الرياء بتصنع الكذب والتواضع ، فلقد علمت صباح اليوم أن القائد أبحر بأسطول صغير ليتعرض لقافلتك فلحقت به فى السفينة وشهدت جانبا من قتالكما ، ثم تدخلت فى الوقت المناسب لإنقاذ حياتك ..

فوقع هذا المن من قلبه موضع الماء من الصادى، ووجد فى نظرة عينيها الناعستين وما أعلنت من رغبتها فى إنقاذ حياته، ما جعله ينتشى بخمر السعادة، وسألها :

— هل أطمع فى أن تصارحنى مولاتى ، بما أعهده فيها من كراهية للرياء والتصنع ، بالسبب الذى جعلها تجشم نفسها تعب إنقاذ حياتى ؟..

فقالت فى استرسال وكأنها تسخر مما ظن أنه أحرجها به :

— أن أجعلك تدين لى بحياتك ..

— هو دين يسعدنى ولا يفقرنى ..

فرفعت له عينيها الزرقاوين حتى أحس أنه على وشك أن يترنح ويقع على قدميها ، وقالت :

— يا لك من مراء كذوب .. أهذا كلام يقوله مدين لدائنه وهو يوليه ظهره

لسفرة لا رجعة منها ؟..

— كلا يا مولاتى بل لسفرة لها معاد قريب ..

فقالت وكأنها تحدث نفسها :

— إنى أسائل نفسى عما عسى أن يكون انتفاعى بهذا الدين ؟..

ووجب قلبه ، ونظر إلى زرقة عينيها فرأى نظرة استسلام وحنو أعذب من الحياة التى وهبته إياها ، وأحس أن ما بينهما من هواء ينتفض بحرارة عميقة بسحر يجذب إليه روحيهما ليلتقيا ويمتزجا ، ففقد لبه وهوى على قدميها ..

ثم سألته وقد هفت ذؤابات من شعرها الذهبى على جبينها الأغر وأذنبها :

— هل تغيب طويلا ؟

فقال وهو يتنهد :

— شهرا يا مولاتى .

فلاحت فى عينيها نظرة حزن وقالت :

— ولكنك تزمع العودة .. أليس كذلك ؟

— نعم يا مولاتى وحق حياتى التى هى لك .. وحق هذه المقصورة المقدسة ..

فمدت إليه يدها وقالت :

— إلى الملتقى ..

فلثم يدها وقال :

— إلى الملتقى ..

* * *

واستقبله لاتو بذراعين مفتوحتين وعينين دامعتين وضمه إلى صدره ، وتعلق أحمس بعنقه ولثم جبينه ، ورفعت القافلة مراسيها وأطلقت لنفسها العنان ، ووقفوا يودعون سفينة الأميرة بأبصارهم وهى توغل فى الشمال وهم يوغلون فى الجنوب ، حتى ارتدت عنها الأبصار وهى كليلة .

وعادوا إلى المقصورة وأخذوا مجالسهم وكأن شيئا لم يقع .

وجعل إسفينيس يعلل نفسه بمشاهدة القرى ورجالها الأشداء ذوى الأجسام النحاسية ، ولكن قلبه كان ينزع به إلى المقصورة ، هل يداخل لاتو شك ؟.. إن لاتو رجل كريم شاخ قلبه وزهد كل شيء إلا حب مصر ، وهو نفسه لا يخلو من هم يساوره ولا يدرى أأخطأ أم أصاب ، ولكن مَن مِن بنى الإنسان يستطيع أن يبلغ هدفه كما قدر له من قبل دون حسبان لما يجد من الأمور ؟.. فلرب قاصد إلى جبل يجد نفسه منحدرا فى واد عميق ، ولرب مزمع صيد أراش له نبلا يلقى الصيد منقضا عليه ومطارده .

١٥

وآجتازت القافلة حدود مصر فى سلام ، فصلى رجالها للرب آمون صلاة جامعة حارة ، وشكروا ربهم على ما هيأ لهم من سبل النجاة ، ودعوه أن يدنى إليهم آمالهم ويحفظ نساءهم من كل سوء . وصعدت القافلة فى النهر أياما وليالى حتى رست عند جزيرة صغيرة للراحة والاستجمام ، فدعا لاتو الرجال إلى النزول إلى أرض الجزيرة ، ووقف بينهم وإسفينيس إلى يمينه ثم قال لهم :

ــ أيها الإخوان ، دعونى أصارحكم بسر أخفيته عنكم لحكمة لن تخفى عليكم ؛ ألا فاعلموا أننا رسولا أسرة مليكنا الشهيد سيكننرع إليكم ، وأن مليككم كاموس ينتظر مقدمكم الآن فى نباتا ...

فلاحت الدهشة فى وجوه الرجال ، وسأل البعض وهم لا يملكون أنفسهم من الفرح :

ــ أحق أيها السيد لاتو أن أسرتنا الفرعونية فى نباتا ؟

فحنى رأسه بالإيجاب مبتسما ، فسأله آخرون :

ــ هل توجد هناك أمنا المقدسة توتيشيرى ؟

ــ نعم .. وستبارككم فى الغد القريب .

ــ ومليكنا كاموس بن سيكننرع ؟

ــ نعم وسوف ترونه بأعينكم ، وتسمعون إليه بآذانكم .

ــ وولى العهد أحمس ؟..

فابتسم لاتو وأشار إلى إسفينيس ، ثم حنى هامته قائلا :

ــ إليكم أيها السادة ولى عهد المملكة المصرية ، حضرة صاحب السمو الفرعونى الأمير أحمس .

وتصايح كثيرون :

ـــ التاجر إسفينيس ولى عهد مصر الأمير أحمس ؟..

أما أحمس إبانا فقد سجد بين يدى الأمير وهو يبكى ، فسجد الجميع وراءه ، منهم من يبكى ومنهم من يهتف فيتصاعد الهتاف من أعماق قلبه ..

واستأنفت القافلة رحلتها والفرح يشمل وحداتها جميعا ، يود رجالها لو تطير بهم طيرانا إلى نباتا حيث ينتظرهم مليكهم المعبود كاموس وأمهم المقدسة توتيشيرى .. ومضت أيام وليالى ، ثم لاحت فى الأفق نباتا بأكواخها الساذجة ومبانيها المتواضعة ، وما زالت تقترب وتدنو وتظهر معالمها حتى رست القافلة إلى مرفئها . وشعر بالقافلة بعض الجنود فقصدوا إلى قصر الحاكم ، وتجمع حشد النوبيين على الشاطىء ليشاهدوا السفن والقادمين عليها . ونزل المصريون إلى الشاطىء يتقدمهم الأمير أحمس والحاجب حور ، ثم جاءت عربة مسرعة ونزل منها حاكم الجنوب رؤوم ، فحيا الأمير والقادمين معه ، وأبلغهم تحية الملك وأسرته ، وأخبرهم أن جلالته ينتظرهم فى القصر . وهتف الرجال للملك طويلا ، ثم ساروا فى جموع غفيرة وراء أميرهم يتبعهم جمع غفير من النوبيين ..

وكانت الأسرة الفرعونية تجلس تحت مظلة كبيرة فى فناء قصر الحاكم ، وقد غيرت تلك السنوات العشر منها ما غيرت ، فترك الجد والصرامة والحزن فى نفوسهم جميعا آثارا لا تمحى أبد الدهر ، وكان أكبرهم تأثرا بالدهر ، الملكتان توتيشيرى وأحوتبى ، فجف عود الأم المقدسة ومالت قامتها إلى الانحناء قليلا ، وحفرت الآلام فى جبينها الوضاء تجعداتها ، ولم يبق من توتيشيرى القديمة سوى بريق عينيها ونظراتها الدالة على الحكمة والصبر ، وأما أحوتبى فقد جلل رأسها المشيب ، وارتسمت على وجهها الحسن مسحة حزن ووجوم .

ولما رأى الشعب مليكه ، سجد له ، ثم تقدم أحمس من أبيه وقبل يد والدته الملكة ستكيموس وجدته أحوتبى وتوتيشيرى ، وقبل جبين زوجته الأميرة نيفرتارى ، ثم وجه خطبته إلى الملك قائلا :

— مولاى لقد تعهد آمون عملنا بالنجاح ، فإلى جلالتكم أقدم أول كتائب جيش الخلاص ..

فلاح السرور فى وجه الملك ، وقام واقفا ورفع الصولجان تحية لقومه ، فهتفوا له طويلا ، ثم أقبلوا عليه يقبلون يده رجلا رجلا ، ثم قال لهم كاموس :

— حياكم الرب أيها الطيبيون الشجعان الذين فرق البغى بيننا وبينهم ، فقضى عليهم أن يساموا الخسف ، كما قضى علينا أن نذوق مرارة الغربة عشرة أعوام كاملة . ولكن أراكم رجالا تأبون الضيم وتؤثرون مشقة الاغتراب وتعب الكفاح عن الرضى بالسلامة فى ظل الذل ، كما عهدتكم دائما وكما عهدكم أبى من قبل ، فجئتم تصلون جناحى بعد أن تمزق أو كاد ، وتثبتون قلبى وقد أرعشه جفاء الدهر ، وكان من رحمة الرب آمون أن جاء أطهرنا قلبا وأعظمنا أملا الأم توتيشيرى فى المنام ، وأمرها أن تبعث بابنى أحمس إلى أرض الآباء والأجداد ليأتى بالجنود الذين يخلصون مصر من عدوها ومذلها ، فبعثت بابنى كما أمر الرب وأتى بكم ، فمرحبا بكم جنود مصر وجنود كاموس ، وسيأتى غدا آخرون ؛ فلنستوص بالصبر ولنعد إلى العمل ؛ وليكن شعارنا الكفاح ، وأملنا مصر ، وإيماننا آمون ..

فصاحوا جميعا كرجل واحد : « الكفاح ومصر وآمون .. » ثم قامت توتيشيرى واقفة وتقدمت خطوات متوكئة على صولجانها ، ثم قالت للرجال بصوت قوى سليم النبرات :

— يا أبناء طيبة المجيدة الحزينة ، تقبلوا تحيات أمكم الكبيرة ، ودعونى أقدم لكم هدية صنعتها بيدى لكم لنعمل جميعا تحت ظلها .

وأشارت إلى أحد الجنود بصولجانها ، فاقترب من الرجال وقدم إليهم علما كبيرا عليه صورة معبد آمون يحيط به سور طيبة ذو الأبواب المائة ، فتلقفته الأيدى بحماسة ، ودعوا لأمهم دعاء حارا وهتفوا لها ولطيبة المجيدة ، فابتسمت توتيشيرى وأضاء وجهها نور بهيج ، وقالت :

— يا أبنائى الأعزاء ، أصارحكم بأنى لم أستسلم إلى اليأس أبدا ، وقد أوصانا سيكننرع يوم الوادع بأن نحذر اليأس . وما زلت أدعو الرب أن يمد فى أجلى حتى أرى طيبة مرة أخرى ترفرف على قصرها أعلامنا ، ويجلس على عرشها كاموس فرعون مصر العليا والسفلى ، وقد أصبحت اليوم أدنى إلى أملى بعد أن ضممت إلىّ سواعدكم الفتية .

فتعالى هتاف القوم مرة أخرى ، وجعل الملك يسأل عن رجالات مصر وكاهن آمون ومعبد الرب ، والحاجب يجيبه بما عرف ، ثم قدم الأمير أحمس إلى أبيه أحمس إبانا ابن القائد بيبى ، فرحب به الملك وقال له :

— أرجو أن تكون لى كما كان أبوك لأبى قائدا باسلا ، فعاش لواجبه ومات فى سبيله ..

ثم دعا الملك القادمين إلى وليمة غداء ، فأكلوا هنيئا وشربوا مريئا ، ثم مضوا جميعا يفكرون فى الغد القريب والغد البعيد ، وباتت نباتا أول مرة منذ عشرة أعوام فرحة مستبشرة يعمر قلبها الأمل ..

كفاح أحمس

١

لم تكن حياة الأسرة الفرعونية فى المهجر حياة دعة وخمول ، ولكنها كانت حياة عمل وإعداد للمستقبل البعيد ، ومدارها جميعا قلب توتيشيرى الذى لا يعرف اليأس أو الراحة . فطلبت منذ بدء قدومها إلى رؤوم حاكم الجنوب أن يدعو إلى نباتا مهرة الصناع النوبيين والفنيين المصريين المقيمين بالنوبة ، فبعث الرجل برسله إلى أرقو وأطلال وغيرهما من بلاد النوبة ، وجاءوه بالصناع والعمال . وأوجبت الملكة الكبيرة على ابنها أن يعهد إليهم بصنع السلاح والخوذات والثياب الحربية ، وبناء السفن وعجلات القتال ، وقالت له تشجعه : « ستعمد يوما إلى الهجوم على العدو الذى اغتصب عرشك وامتلك بلادك ، فينبغى إذا جاء هذا اليوم أن تهجم بأسطول كبير ، وقوة عجلات لا تقهر كما فعل العدو مع أبيك » .

وتحولت نباتا فى أثناء السنوات العشر إلى مصنع كبير لصناعة السفن والعجلات والآلات الحربية بأنواعها جميعا ، ونمت ثمارها على مر الأيام فكانت دعائم الأمل الجديد . ولما جاء الرجال مع القافلة الأولى ، وجدوا ما يحتاجون إليه من السلاح والعتاد راهنا موفورا ، فأقبلوا على التدريب بقلوب تملؤها الحماسة والأمل الصادق ، فانخرطوا جميعا غداة وصولهم إلى نباتا فى سلك الجندية ، وتدربوا على فنون القتال واستعمال الأسلحة المتنوعة تحت إشراف ضباط الحامية المصرية ، فلم تأخذهم فى التدريب هوادة ، فكانوا يعملون من مطلع الفجر حتى غروب الشمس .

كانوا يعملون جميعا لا فرق بين كبير وصغير ، فكان الملك كاموس يشرف بنفسه على تدريب الجند وتكوين نواة الفرق المختلفة ويختار الصالحين للأسطول ، يعاونه ولى العهد أحمس ، وأبت الملكات الثلاث والأميرة الصغيرة إلا أن يعملن مع العاملين ، فكن يثقفن السهام ويرشنها ، أو يشتغلن بحياكة الثياب الحربية ، وكن لا يفتأن يختلطن بالجنود والصناع ويؤاكلنهم ويشاربنهم ليشجعنهم ويثبتن قلوبهم . وما كان أروع منظر الأم توتيشيرى وهى مكبة على عملها بهمة لا تعرف الملل ، أو سائرة بين الجنود تشاهد تدريبهم وتلقى عليهم كلمات الحماسة والرجاء ، وكان الرجال يرونها فينسون أنفسهم وينتفضون حماسة وإقبالا ، فتبتسم المرأة استبشارا ، وتقول لمن حولها :

— إن السفن والعجلات تنقلب مقابر لمن عليها إذا لم تدفعها قلوب أشد صلابة من حديدها ... انظروا إلى رجال طيبة كيف يعملون ... ؟ ... سوف ينقض الواحد منهم على عشرة من الرعاة ذوى اللحى القذرة والبشرة البيضاء ، فيطير أفئدتهم ...

والحق قد انقلب الرجال بقوة الحماسة والحب والبغضاء وحوشا ضوارى ..

وانصرف الحاجب حور إلى إعداد القافلة الثانية ، فضاعف لها السفن ، وملأها بالذهب والفضة والأقزام وغريب الحيوان ، وارتأت الأم توتيشيرى أن يحمل معه جماعات من النوبيين المخلصين ليهديهم إلى سادة طيبة ليكونوا عبيدا فى الظاهر وأعوانا فى الباطن ، يطعنون العدو من الخلف إذا اشتغل يوما باشتباك معهم ، وقد راقت الفكرة الملك كما راقت الحاجب حور ، وعمل على تحقيقها بغير تردد ..

وانتهى حور من الإعداد لقافلته واستأذن فى السفر ، وكان الأمير أحمس ينتظر تلك الساعة بقلب أضناه الشوق وعناه الجوى ، فاستأذن فى الرحيل على رأس القافلة ، ولكن الملك وقد علم بما وقع له من الأحداث وما تعرض له من الأخطار ، أبى أن يجارف بسفره مرة أخرى بغير داع ، فقال له :

— أيها الأمير ، إن واجبك الآن يدعوك إلى البقاء فى نباتا ..

فبغت الأمير بقول أبيه الذى ألقى على الأمل المضطرم فى صدره كما يلقى الماء البارد على الجمرة المستعرة ، وقال له برجاء صادق :

— إن رؤية مصر والاختلاط بأهلها شفاء من أدواء ابتلى بها قلبى ..

فقال الملك :

— ستجد الشفاء التام يوم تدخلها غازيا على رأس جيش الخلاص ...

فعاود الشاب الرجاء قائلا :

— أبى ، طالما عللت نفسى برؤية طيبة قريبا .

فقال الملك بحزم :

— لن يطول انتظارنا ، فاصبر حتى تأذن ساعة الكفاح .

وأدرك الشاب من لهجة الملك أنه قال كلمته الأخيرة ، فأشفق من إغضابه إذا عاوده الرجاء ، وحنى رأسه دلالة على التسليم والقبول وقد أحس الألم يقطع قلبه ويكتم أنفاسه ، ولكنه تماسك وتجلد ومضى إلى المعسكر حيث يتدرب الرجال والقلب حزين كئيب ، وكان نهاره ينقضى فى العمل الشاق فلم يظفر من يومه إلا بساعة قصيرة قبيل النوم فينادى فى خلوته حلو الذكريات ، ويحوم بخياله حول المقصورة الجميلة فى السفينة الفرعونية التى شاهدت ساعة الوداع أبدع الحسن وألطف الهوى ، فيخال أنه يسمع الصوت الرخيم يتمتم قائلا : « إلى الملتقى » . ثم يتنهد من أعماق قلبه ويقول أسيفا محزونا : أين الملتقى ؟... إنه الوداع الذى لا لقاء بعده .

على أن نباتا فى تلك الأيام كانت حقيقة بأن تنسى الرجل نفسه وهمه ، وتقصره على الاشتغال بما هو أجل وأخطر ، وكان الرجال يعملون جادين يكافحون بغير انقطاع ، فإذا نسمت عليهم ريح طيبة وهزهم الشوق إلى من خلفوهم وراء أسوارها ، تنهدوا حينا ثم انكبوا على ما بين أيديهم بهمة أعظم وعزيمة أشد ، ومرت بهم الأيام لا يصدقون أن فى الدنيا شيئا غير العمل ، أو أن

فى الغد شيئا سوى الأمل ... ثم عادت القافلة برجال جدد يهتفون كما هتفوا يوم مجيئهم ويصيحون متلهفين مثلهم : أين مليكنا كاموس ، وأين أمنا توتشيرى ، وأين أميرنا أحمس ؟.. ثم ينضمون إلى المعسكر يعملون ويتدربون .

وجاء الحاجب حور الأمير أحمس وحياه ، ثم مد له يده برسالة وقال :

— عهد إلى أن أحمل إلى سموك هذه الرسالة ..

فسأله أحمس وهو يتناولها دهشا :

— من مرسلها ؟

ولكن حور لازم الصمت فى وجوم ، فخطر للأمير خاطر فخفق قلبه ، وفض الرسالة وقرأ الإمضاء فارتعدت مفاصله واشتد وجيب قلبه ، وجرت عيناه على الأسطر فإذا هى ما يأتى :

أيها التاجر إسفينيس :

يحزننى أن أخبرك بأنى اخترت قزما من أقزامك ليعيش معى فى جناحى الخاص ، وأنى عنيت به وأطعمته ألذ الطعام وكسوته أجمل الكساء وعاملته أحسن المعاملة ، حتى أنس بى وأنست به ، ثم افتقدته يوما فلم أجده فأمرت الجوارى أن يبحثن عنه فوجدنه قد هرب إلى أخويه فى الحديقة ، فآلمنى غدره وصددت عنه ، فهل لك أن تبعث إلى بقزم جديد يعرف الوفاء ؟..

أمنريدس

وأحس أحمس لدى انتهائه من قراءة الرسالة طعنة نجلاء تصيب قلبه ، وأن الأرض تميد تحت قدميه ، ولاحت منه نظرة إلى حور فرآه ينعم النظر كأنه يحاول أن يعرف الرسالة بمطالعة وجهه .

فتحول عنه وسار فى سبيله محزونا كسير الفؤاد ، يقول لنفسه هيهات أن تدرى بما يمنعه من العودة إليها ، وهيهات أن يستطيع يوما أن يبثها شجوه وعواطفه ، وسترى فيه دائما القزم فاقد الوفاء .

وانطوى على آلامه لا يحس ما يستعر فى فؤاده سوى أقرب الأفئدة إليه : نيفرتارى ، وقد تحيرت من أمره وعجبت لما يكمن وراء ذهوله وشروده ، ونظرة الحزن التى تلوح فى عينيه الجميلتين كلما أرسل النظر غير قاصد شيئا .

فقالت له ذات مساء :

ـــ لست كعهدى بك يا أحمس .

فاضطرب لملاحظتها ، وداعب ضفائرها بأنامله وقال مبتسما :

ـــ إنه التعب يا حبيبتى ، ألا ترين ما نحن فيه من كفاح يهد الجبال الرواسى ؟...

فهزت رأسها و لم تقل شيئا ، وغدا الشاب أشد حذرا ...

على أن نباتا لم تكن لتترك إنسانا يغرق فى حزنه ، لأن العمل قاهر الأحزان وقد شهدت من معجزاته ما لم تشهد من قبل ولا من بعد . فكانت تدرب الرجال ، وتصنع السفن والعجلات والسلاح ، وترسل القوافل محملة بالذهب فتعود محملة بالرجال ، ثم تردها فترتد إليها . ومضت الأيام والشهور الطوال إلى أن جاء اليوم السعيد المرتقب ، فقصد الملك كاموس إلى جدته توتيشيرى وهو لا يتمالك من الفرح ، ولثم جبينها وقال بصوت متهدج :

ـــ أبشرى يا أماه ، لقد تم إعداد جيش الخلاص ...

٢

ودقت طبول الرحيل فانتظم الجيش فرقا ورفع الأسطول مراسيه ، ودعت توتيشيرى إليها الملك وولى العهد وكبار القواد والضباط وقالت لهم :

ـــ هذا يوم من الأيام السعيدة التى طال انتظارى لها ، فأبلغوا جنودكم البواسل أن توتيشيرى تضرع إليهم أن يفكوا أسرها ، ويحطموا الأغلال التى تغل أعناق مصر جميعا . وليكن شعاركم جميعا أن تحيوا حياة أمنمحيت أو تموتوا ميتة سيكننرع . وليباركم الرب آمون وليثبت قلوبكم ..

فقبل الرجال يدها النحيلة ، وقال لها الملك كاموس وهو يودعها :

ـــ سيكون شعارنا جميعا حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع ، وسيموت من يموت منا أشرف ميتة ، ويحيا من يبقى منا أعز حياة .

وخرجت نباتا وعلى رأسها الأسرة الفرعونية والحاكم رؤوم تودع الجيش اللجب . ودقت الطبول وعزفت الموسيقى وتحرك الجيش متبعا نظامه التقليدى . فتقدمته قوة الكشافة تحمل الأعلام ، وسار الملك كاموس فى طليعة الجيش وسط هالة من الحاشية والحجاب والقواد يتبعها الحرس الفرعونى فى عجلاته الأنيقة ، ثم تقدمت فرقة العجلات تسير صفوفا صفوفا لا يحدها البصر ، تبعث عجلاتها فى الجو صلصلة تصم الآذان وتصهل جيادها كزفزفة الرياح ، وتليها فرقة القسى الثقيلة بقسيها ودروعها وجعبات السهام ، تتأثرها فرقة الرماح المدربة برماحها وتروسها ، ثم فرقة الأسلحة الخفيفة ، تتبعها عربات السلاح والمؤن والخيام تحرسها الفرسان . وأبحر كذلك الأسطول بسفنه الجبارة وقد تهيأ الجنود عليه بكامل معداتهم من القسى والرماح والسيوف ...

وتقدمت هذه القوات على أنغام الموسيقى تستعر الحماسة فى قلوبها الفتية

الغاضبة ، ويلقى منظرها الراهب الرعب فى الأفئدة والنفوس ، وتقطع النهار ضاربة فى الأرض وتهجع إذا ما خيم الظلام لا تكل ولا يصيبها الإعياء ، مستعينة على مشاق الطريق وطول الرحلة بعزائم تزحزح الجبال ، فمروا فى سبيلهم بسمنة وبون وابسخليس وفتنزيس ونافس ، وما زالوا يضربون فى الأرض حتى بلغوا دابود آخر بلدان النوبة ، ونسمت على وجوههم ريح مصر الطيبة ، فعسكروا وأقاموا الخيام ليستريحوا من وعثاء السفر ويأخذوا أهبتهم للنضال ..

ودبر الملك ورجاله خطة الغزو الأولى فأحكموا التدبير . وعهد إلى أحمس إبانا — وكان أمهر رجال الأسطول كافة — بقيادة جزء من الأسطول ليسير به إلى حدود مصر ، باعتباره قافلة مما ألف الحراس اجتيازها للحدود فى العهد الأخير . وعند فجر اليوم الرابع لوصول الجيش إلى دابود أبحر الأسطول الصغير فبلغ الحدود المصرية عند إسفار الصبح . وكان أحمس إبانا يقف على ظهر السفينة فى ثياب التجار الفضفاضة ، فأبرز جواز الدخول للحراس ودخل بأسطوله فى سلام ، وكان الضابط يعلم أن حرس الحدود مكون من سفن قلائل وحامية صغيرة ، فكانت خطته ترمى إلى مفاجأة السفن الآمنة والاستيلاء عليها ، ثم ضرب الحصار حول جزيرة بيجة حتى يدخل الجيش والأسطول أرض مصر ، فيسهل عليه ضرب سيين ولما تأخذ أهبتها . وتقدمت القافلة فى خط أفقى ، فلما دنت من شاطئ بيجة الجنوبى حيث ترسو سفن الرعاة ظهر الجنود على سطحها وبأيديهم القسى ، وخلع أحمس عباءة التجار فبدا فى ثياب الضباط ، وأمر بإطلاق السهام على حرس السفن ، واقترب الأسطول من السفن الراسية بسرعة ، وانقض عليها قبل أن يأتيها مدد من البر ، وألقى عليها شباكه ، وقفز الجنود إلى سطحها ليستولوا عليها ، فاشتبكوا مع من وجد فيها من الحراس القليلين ، فى معركة صغيرة فأبادوهم فى زمن يسير . وفى أثناء هذه الحركة كانت سفينة أحمس تطلق سهامها على حرس الشاطئ وتمنع الجنود من معاونة زملائهم فى السفن ، فتم الاستيلاء على السفن بسرعة دون أن يكلف المهاجمين ثمنا غاليا ،

وضرب الأسطول الحصار حول الجزيرة ليمنع الاتصال بالمدن الشمالية ، وتنبهت حامية بيجة إلى الحركة الخاطفة فجرت إلى الشاطئ ، ولكنها وجدت نفسها حبيسة محصورة ، وأن أسطولها الصغير أسير ...

ولم يمض إلا قليل وقت على انتهاء المعركة حتى بدت وحدات الأسطول المصرى فى الأفق تمخر عباب الماء متجهة صوب الحدود ، ثم اجتازتها دون أن تجد مقاومة ، وانضمت إلى أسطول أحمس إبانا ، فصارت الجزيزة وسط دائرة من السفن الضخمة ، مما اضطر حامية بيجة إلى التقهقر إلى قلب الجزيرة بعيدا من مرمى سهام الأسطول التى انهالت عليها من جميع الجهات .

وما هى إلا أن دخلت طلائع الجيش الحدود وانهالت على الجانب الشرقى ، تتبعها الفرق ذات اللجب ، فأدرك المحاصرون فى بيجة أن القادمين غزاة لا قراصنة كما توهموا أول الأمر . ثم أصدر قائد الأسطول قمكاف أمره بالهجوم على الجزيرة ، فانقضت عليها السفن من جميع الجهات ، وأنزلت الجنود المدججين بالسلاح تحت حماية القسى ، وزحف الجنود من جميع النواحى نحو الحامية المحاصرة فى الوسط ، وكان جنودها — إلى وقوعهم فى مركز دقيق — قد رأوا تدفق القوات المصرية فى البر والنيل فخذلتهم سواعدهم وخانتهم شجاعتهم ، وألقوا السلاح وسلموا أنفسهم وأخذوا أسرى . وكان أحمس إبانا على رأس المهاجمين ، فدخل قصر الحاكم دخول المنتصر ، ورفع عليه الأعلام المصرية ، وأمر بالقبض على الموظفين الرعاة والأعيان أسوة بالجنود ..

ورأى أهل الجزيرة من الفلاحين والعمال والخدم الجنود المصريين فلم يصدقوا أعينهم ، وهرعوا نساء ورجالا إلى قصر الحاكم الجديد وتجمعوا أمامه ليروا ما الخبر ، تصطرع فى نفوسهم الآمال والمخاوف ، فخرج إليهم أحمس إبانا ، وقد تطلعوا إليه صامتين ، فقال لهم :

— حياكم الرب آمون حامى المصريين وقاهر الرعاة .

فوقعت كلمة آمون من آذانهم موقعا جميلا ساحرا ، وقد حرموا سماعها

عشرة أعوام ، وأضاء وجوههم الابتهاج فتساءل بعضهم :

ـــ هل أتيتم حقا لإنقاذنا ؟

فقال أحمس إبانا بصوت متهدج :

ـــ لقد جئنا لإنقاذكم وإنقاذ مصر المستعبدة فأبشروا ، ألا ترون هذه القوات الهائلة ؟ إنها جيش الخلاص ، جيش مولانا الملك كاموس ابن مليكنا الشهيد سيكننرع ، الذى جاء لتحرير شعبه واستعادة عرشه .

فنطق القوم باسم كاموس كالذاهلين ، ثم غمرهم الفرح والحماسة فهتفوا له طويلا ، وجثا كثيرون يصلون للرب آمون المعبود ، وسأل بعض الرجال أحمس إبانا قائلين :

ـــ هل انتهت عبوديتنا حقا ؟ وهل نرد اليوم أحرارا كما كنا من قبل سنوات عشر ؟.. هل مضى زمن السوط والعصا وتعييرنا بأننا فلاحون ؟.. .

فاهتاج أحمس إبانا غضبا وقال بحنق :

ـــ ثقوا أن عهد الظلم والعبودية والسوط قد مضى إلى غير رجعة ، وأنكم ستعيشون منذ الساعة سادة أحرارا فى كنف مليكنا كاموس فرعون مصر الشرعى ، وسترد إليكم أرضكم وبيوتكم ويلقى بمن اغتصبوها هذا الدهر فى غيابات السجون .

فشمل الفرح النفوس المعذبة ، وانتظمتهم صلاة جامعة تصاعد فيها الدعاء إلى آمون فى السماء ، وكاموس فى الأرض ...

٣

وفى رونق الضحى نزل الملك كاموس وولى عهده أحمس والحاجب حور وأفراد الحاشية جميعا إلى أرض الجزيرة فاستقبله الأهلون استقبالا حماسيا ، وخروا سجدا يقبلون الأرض بين يديه ، وتعالى هتافهم لذكر سيكننرع ولتوتيشيرى وللملك وللأمير أحمس ، فحياهم كاموس بيديه ، وتحدث إلى جمع غفير من رجالهم ونسائهم وأطفالهم ، وأكل ما قدموه له من الدوم والفاكهة ، وشرب وحاشيته وقواده أقداحا مترعة بنبيذ مريوط ، ذهبوا جميعا إلى قصر الحاكم ، وأصدر الملك أمره بتعيين أحد رجاله المخلصين المدعو سمار حاكما على الجزيرة وعهد إليه فى نشر العدالة وتطبيق القوانين المصرية . وفى ذلك الاجتماع أجمع القواد على وجوب مفاجأة سيين عند الفجر ، لتضرب الضربة القاضية قبل أن تفيق من ذهولها ..

ونام الجيش مبكرا واستيقظ قبيل الفجر . ثم زحف نحو الشمال ومعه الأسطول يسد منافذ النيل ، فشق الظلماء والنجوم ساهرة يقظى تراقبه بأعين لامعة ، والغضب يتأجج فى الصدور فتتلهف على الانتقام والقتال . واقتربوا من سيين وقد اختلطت ظلمة آخر الليل بنور الصباح الأزرق الخجول ، وشف الأفق الشرقى عن طلائع الشمس ، وأصدر كاموس أمره إلى قوات العجلات بأن تزحف على المدينة من الجنوب والشرق تؤيدها قوات من فرقتى القسى والرماح ، وأمر أسطوله بضرب الحصار على الساحل الغربى للمدينة ، وهجمت القوات على المدينة من ثلاث جهات فى وقت واحد ، وكان يقود العجلات ضباط قدماء يعرفون المدينة ومواقعها ، فوجهوا العجلات نحو الثكنات ومراكز الشرطة . تبعتها قوات المشاة شاكية السلاح فأوقعوا بالعدو مذبحة سالت فيها

الدماء أنهارا . واستطاع الرعاة أن يقاتلوا فى بعض المواقع فدافعوا عن أنفسهم دفاع اليائس ، وتساقطوا كأوراق الخريف اليابسة هبت عليها ريح عاصفة .. أما الأسطول فلم يلق مقاومة و لم يلتق فى طريقه بسفن حربية فاستولى على الشاطىء وأنزل قوات من جنوده فهجموا على القصور المشرفة على النيل وقبضوا على أصحابها ، وكان بينهم حاكم المدينة وقضاتها وكبار الأعيان ، ثم اخترقت القوات الحقول صوب المدينة ...

وكانت المفاجأة عاملا فاصلا فى المعركة قصر مدتها وكثر صرعاها من الرعاة ، فما ارتفعت الشمس فى الأفق وأرسلت نورها إلى المدينة حتى رئيت جموع الغزاة وهى تحتل الثكنات والقصور وتسوق الأسرى ، وشوهدت الجثث ملقاة فى السبل وأفنية الثكنات وقد سالت دماؤها ، وذاع فى أرجاء المدينة والحقول القريبة أن كاموس ابن سيكننرع اقتحم سيين بجيش جرار واستولى عليها ، فاستعرت على الأثر ثورة دموية ، وهاجم الأهلون بيوت الرعاة وقتلوهم فى مخادعهم ، ومثلوا بهم وضربوهم بالسياط ضربا مبرحا ، فهام كثيرون على وجوههم فزعين كما فعل المصريون حين زحف أبو فيس على الجنوب بعجلاته ورجاله ... ثم هدأت النفوس وقبض الجيش على ناصية الحال ودخل الملك كاموس على رأس جيشه تخفق على رأسه الأعلام المصرية وتسير بين يديه قوات الحرس بموسيقاها ، فهب الأهلون يستقبلونه ، وكان يوما مجيدا ...

ونقل الضباط للملك أن عددا غفيرا من الشبان — ومنهم من كانوا جنودا فى الجيش القديم — يقبلون على التطوع فى الجيش بحماسة فائقة ، فسر كاموس وولى على المدينة أحد رجاله المدعو شاو ، وأمره بأن ينظم المتطوعين ويدربهم لينضموا إلى الجيش جنودا متأهبين ، وأحصى القواد للملك ما غنموه من العجلات والجياد ، فإذا هو شىء عظيم .

واقترح الحاجب حور على الملك أن يتقدموا دون توان حتى لا يدعوا للعدو مهلة للتأهب وحشد الجيوش ، وقال :

ـــ سنخوض أول معركة حقيقية فى أمبوس ..

فقال كاموس :

ـــ نعم يا حور ، ولا يبعد أن يكون قد طرق أبواب أمبوس الآن عشرات الفارين ، فلا مجال للمفاجأة بعد الآن ، وسنلقى عدونا مستعدا ، وربما استطاع أبو فيس أن يلقانا بقواته الغاشمة فى هيراكونوليس .. فهيا إلى المسير ...

وزحفت القوات المصرية ـــ البرية والنيلية ـــ صوب الشمال فى طريق أمبوس ، ودخلت فى قرى كثيرة فلم تلق مقاومة ألبتة ، و لم تعثر برجل واحد من الرعاة ، وعلم الملك أن رجال العدو يحملون متاعهم ويسوقون حيوانهم فارين إلى أمبوس ، وخرج الفلاحون يستقبلون جيش الخلاص ويحيون مليكهم المظفر ويدعون له من قلوب أنعشها الفرح والأمل . وجد الجيش فى المسير حتى شارف أمبوس ، وهناك جاءت طلائع الكشافة تقرر أن العدو معسكر جنوب المدينة متأهبا للقتال ، وأن أسطولا متوسط العدد يرسو غرب أمبوس ، فعلم كاموس أن أول معركة مهمة باتت على الأبواب . ورغب الملك فى أن يعرف عدد جنوده عدوه ، ولكن تعذر ذلك على جنود الكشف لأن العدو كان يعسكر فى سهل منبسط لا تسهل مراقبته ، فقال قائد شاب يدعى محب :

ـــ لا أظن يا مولاى أن قوة أمبوس تعدو بضعة آلاف ...

فقال الملك كاموس :

ـــ أئتونى بكل ضابط أو جندى من أمبوس ...

وفطن الحاجب حور إلى ما يريد الملك فقال :

ـــ عفوا يا مولاى ، لقد تغير وجه أمبوس فى عشرة الأعوام المنقضية ، فأنشئت بها ثكنات لم تكن من قبل ، رأيتها بعينى فى بعض رحلاتى التجارية ، ومن المرجح أن الرعاة جعلوا منها مركزا للدفاع عن البلاد المتاخمة للحدود ...

فقال القائد محب :

ـــ على أى حال يا مولاى أرى أن نهجم بقوات خفيفة ، حتى لا نتكبد

خسارة فادحة ...

ولم يستحسن الأمير أحمس هذا الرأى ، فقال لأبيه :

— مولاى أرى خلاف هذا الرأى ، أرى أن نهاجم بقوات كثيفة لا تقاوم ، وأن نقذف جل قواتنا فى المعركة لنضرب العدو الضربة القاضية فى أقصر وقت ، فنذهل القوات التى تحشد فى طيبة الآن لقتالنا ، ونقاتل من الغد رجالاً يرون الموت ماثلا فى قتالنا . ولا خوف علينا من المخاطرة بجنودنا ، فسيتضاعف جيشنا بما ينضم إليه من المتطوعين فى كل بلد نغزوه ، ولن يجد عدونا لخسارته عوضا ..

وراق هذا الرأى الملك فقال :

— إن رجالى يجودون بأنفسهم عن طيب خاطر فى سبيل طيبة ...

وكان الملك يعلم بما لانتصار الأسطول من أثر حاسم فى كسب الموقعة ، للدور الخطير الذى يلعبه فى ضرب الحصار على شواطىء المدن الغنية أو إنزال جنود فى مؤخرة العدو ، فأصدر أمره إلى القائد قمكاف بالهجوم على سفن الرعاة الراسية غرب أمبوس ...

وغدا الجيشان لا يفصل بينهما سوى ميدان فسيح ، وكان الرعاة رجال حرب وجلاد ، ذوى بأس ومقدرة ، وكانوا يستهينون بالمصريين استهانة متأصلة ، فبدءوهم بالهجوم وهم يجهلون قوتهم ، وأرسلوا عليهم فرقة العجلات المكونة من مائة عجلة حربية . وأصدر كاموس أمره بالهجوم ، فاندفعت قوات من العجلات تزيد على ثلاثمائة ، وأطبقت على قوة العدو فثار النقع وصهلت الخيل وعزفت القسى . ودار قتال عنيف ، وعزم الأمير أحمس على أن يقضى على العدو القضاء المبرم فاندفع بمائتى عجلة جديدة على قوات المشاة التى تنتظر نتيجة معركة العجلات أمام أبواب أمبوس ، وتبعته قوات من فرقة القسى وأخرى من حملة الرماح . وانقضت العجلات على المشاة فاخترقت صفوفهم وألقت فيها الاضطراب والفزع ، وانهالت عليهم بالسهام كالمطر ، فتشتت شملهم بين جريح وقتيل وهارب فتلقتهم قوة المشاة المهاجمة فى كثرة لا تقاوم وقضت عليهم القضاء

الأخير . وذهل العدو الذى لم يكن يتوقع أن يلاقى قوات بهذا العدد ، وانهارت قواته سريعا ، وتساقط فرسانه وحطمت عجلاته . وسيطر المصريون على الميدان فى زمن يسير لا يصدق ، بعد أن قاتلوا بغضب وحنق ، وضربوا بسواعد يشد أعصابها حقد مؤرث وسخيمة مستعرة ..

واقتحمت قوات مسلحة أبواب أمبوس ودخلتها عنوة لتحتل الثكنات وتطهرها من بقايا جنود العدو ، ومضى الضباط فى الميدان ينظمون فرقهم ويحملون الجرحى والقتلى . ووقف الملك كاموس فى وسط الميدان على عجلته يحيط به القواد إلى يمينه الأمير أحمس وإلى يساره الحاجب حور ، وكانت الأنباء جاءته بأن أسطوله كر على سفن العدو وهجم عليها بشدة ، وأنها تقهقرت أمامه دون انتظام ... فسر الملك وقال لمن حوله مبتسما :

ـــ بدء موفق ..

فقال الأمير أحمس ، وكان معفر الثياب مغبر الوجه متصبب الجبين عرقا :

ـــ إنى أتوق لخوض معارك أشد هولا ..

فقال كاموس وهو يلقى على وجهه الجميل نظرة إعجاب :

ـــ لن يطول انتظارك ..

ثم نزل الملك عن عجلته وتبعه رجاله ، وسار خطى حتى صار وسط جثث الرعاة ، وألقى عليها نظرة وقد انبجست الدماء منها فخضبت جلدها الأبيض ومزقتها السهام والرماح ، ثم قال :

ـــ لا تظنوا هذه الدماء دماء أعدائنا ، بل هى دماء قومنا التى امتصوها وتركوهم يتضورون جوعا .

وامتقع وجه كاموس واكتسى بلون قاتم من الحزن ، فرفع رأسه إلى السماء وتمتم قائلا :

ـــ لتنعم روحك يا أبت بالسلام والغبطة ..

ثم نظر إلى من حوله وقال بصوت دلت نبراته على القوة والبأس :

— ستمتحن قوتنا فى معركتين شديدتين فى طيبة وهواريس ، فإذا آزرنا النصر فيهما طهرنا الوطن من الرعاة إلى الأبد ، ورددنا مصر إلى عهد أمنمحيت المجيد ، فمتى نقف موقفنا هذا على جثث المدافعين عن هواريس ؟..

وتحول الملك ليرجع إلى عجلته ، وفى تلك اللحظة انتصبت جثة من بين الجثث واقفة بسرعة البرق وسددت قوسا نحو الملك وأطلقت ... ولم يكن فى الوسع منع القضاء ولا ضرب القاتل قبل أن يطلق ، فأصاب السهم صدر الملك ، وقد صرخ الرجال صرخة الفزع وأطلقوا السهام على الهكسوسى ، وهرعوا إلى الملك بأفئدة يملؤها الرعب والإشفاق ، وصعدت من صدر كاموس آهة عميقة ، ثم ترنح كالثمل وسقط بين يدى ولى عهده ، وصاح الأمير :

— أحضروا هودجا وادعوا الطبيب .

ومال برأسه على أبيه وقال بصوت متهدج :

— أبتاه .. أبتاه ألا تستطيع أن تكلمنا ..

وجاء الطبيب على عجل ومعه الهودج ، فحملوا الملك وأناموه عليه فى عناية فائقة . وركع الطبيب إلى جانبه ، ومضى يخلع درع الملك وسترته ليكشف عن صدره ، وأحاطت الحاشية بالهودج فى سكون ، يرددون أعينهم بين وجه الملك الشاحب ويدى الطبيب . وذاع الخبر فى الميدان ففشت الضوضاء ، ثم ساد صمت ثقيل كأنما لحق الفناء بذلك الجيش العرمرم ..

نزع الطبيب السهم وكان الدم يتدفق من الجرح بغزارة ، فتقلص وجه الملك من الألم ، فأظلمت عينا الأمير من الحزن ، وتمتم حور قائلا :

— رباه .. إن الملك يتألم ..

وغسل الرجل الجرح ووضع عليه الحشائش ، ولكن الملك لم يبد عليه أى تحسن ، وارتعشت أطرافه بصورة جلية ، ثم تنهد تنهدة عميقة ، وفتح عينيه فلاحت فيهما نظرة قاتمة لا تدل على الحياة ، فازداد صدر أحمس انقباضا ، وقال لنفسه شاكيا « لشد ما تغيرت يا والدى .. » . وحرك الملك عينيه حتى استقرتا

على وجه أحمس ، فلاحت فيهما ابتسامة ، وقال بصوت ضعيف لا يكاد يسمع .

— ظننت قبل حين أنى بالغ هواريس ، ولكن الرب يريد أن تنتهى رحلتى على أبواب أمبوس ..

فصاح أحمس بصوته الحزين :

— فدتك نفسى يا أبتاه ..

فقال الملك بصوته الضعيف :

— كلا صن نفسك فما أكبر الحاجة إليها .. وكن أشد حذرا منى ، واذكر دائما أنه لا يجوز أن تكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس حصن الرعاة الأخير ، ويجلو القوم عن ديارنا جميعا ..

وخشى الطبيب على الملك من الجهد الذى يبذله فى الكلام وأشار عليه بالسكوت ، ولكن الملك كان يندمج فى إحساس علوى هو الفاصل بين الفناء والخلود ، فقال بصوت تغيرت نبراته وبدا غريب الوقع :

— قل لتوتيشيرى إنى لحقت بأبى باسلا مثله .

ومد يده لابنه ، فجثا الأمير على ركبتيه وضمها إلى صدره ، وقبض الملك على منكبه حينا يودعه ، ثم تراخت أصابعه وأسلم الروح ...

٤

وسجى الطبيب الجثة ، وسجد الرجال حولها وصلوا صلاة الوداع ، ثم قاموا وكأنهم من الحزن سكارى ، واستدعى الحاجب حور قواد الفرق وكبار الضباط ، فلما مثلوا بين يديه خاطبهم قائلا :

ـــ أيها الرفاق ، يؤسفنى وحق الرب أن أنعى إليكم مليكنا الباسل كاموس ، فقد استشهد فى ميدان الكفاح وفى سبيل مصر كما استشهد أبوه من قبل ، وانتقل إلى جوار أوزوريس منتزعا من صميم نفوسنا ، بعد أن أوصانا بألا نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو العدو عن ديارنا . وإنى بوصفى حاجب هذه الأسرة الكريمة أعزيكم فى مصابنا الجلل ، وآذنكم بتولية مليكنا الجديد وقائدنا المجيد أحمس بن كاموس بن سيكننرع حفظه الرب وأيده بالنصر المبين ..

فحيا القواد جثة كاموس وانحنوا لأحمس الملك الجديد ، وأذن لهم الحاجب بالعودة إلى جنودهم لإعلان الوفاة والتولية ..

وأمر حور الجنود أن يرفعوا الهودج الملكى على الأعناق وقد غلبه الحزن ، فقال وهو يجفف عينيه :

ـــ لتنعم نفسك العالية بالغبطة والسلام فى جوار أوزوريس ، كنت على وشك أن تدخل أمبوس على رأس جيشك المظفر ، ولكن قضى الرب أن تدخلها محمولا على نعشك ، وإنك لأكرمنا على الحالين ...

ودخل الجيش أمبوس فى نظامه التقليدى يتقدمه نعش الملك كاموس . وكان الخبر الفاجع قد شمل المدينة كلها ، فجرعت لذة النصر ولوعة الحزن فى شربة واحدة . وجاءت الجموع الغفيرة من كل مكان تستقبل جيش الخلاص وتودع مليكها الراحل بقلوب تحيرت بين الفرح والحزن . ولما رأى الناس الملك الجديد

أحمس سجدوا فى سكون وخشوع ، ولم يتعال فى ذلك اليوم هتاف قط ..
وتسلم كهنة أمبوس الجثمان العظيم وخلا أحمس إلى نفسه فكتب رسالة إلى توتيشيرى كما أوصاه أبوه ، وبعث بها مع رسول ...

وجاءت رسل الاستطلاع بأخبار سارة ومؤسفة عن الأسطول ، قالوا : إن الأسطول المصرى هزم أسطول الرعاة وأسر بعض وحداته ، ولكن القائد قمكاف سقط قتيلا ، وأن الضابط أحمس أدار دفة المعركة بعد سقوط القائد ، وحاز النصر النهائى ، وقتل قائد الرعاة بيده فى معركة عنيفة . وأراد الملك أن يكافىء أحمس إبانا ، فأصدر أمره بتوليته قيادة الأسطول ...

واتبع سياسة أبيه الحكيمة فولى صديقه هام حكم أمبوس ، وعهد إليه بتنظيمها وتجنيد القادرين من أهلها ، وقال الملك لحور :

ـــ سنتقدم بقواتنا سريعا ، لأنه إذا كان الرعاة يعذبون قومنا فى وقت السلام فإنهم سيضاعفون لهم العذاب فى وقت الحرب . فينبغى أن نقصر عهد العذاب ما وسعنا الجهد ..

واستدعى الملك الحاكم هام ، وقال له أمام حاشيته وقواده :

ـــ اعلم أننى آليت على نفسى منذ اليوم الذى سعيت فيه إلى أرض مصر فى ثياب التجار أن أجعل مصر للمصريين ؛ فليكن هذا شعارك فى حكم هذا البلد ؛ وليكن رائدك أن تطهره من البيض ، فلن يحكم بعد اليوم إلا مصرى ، ولن يملك إلا مصرى ، والأرض أرض فرعون والفلاحون نوابه فى استثمارها ، لهم ما يكفيهم ويكفل لهم حياة رغدة ، وله ما يفيض عن حاجتهم ينفقه فى الصالح العام ، والمصريون متساوون أمام القانون ، لا يرفع الأخ منهم إلا فضله ، ولا عبد فى هذا البلد إلا الرعاة ... وأوصيك أخيرا بجثة أبى فأد إليها واجبها المقدس ...

٥

وغادر الجيش أمبوس عند الفجر ، وأبحر الأسطول ، ومضت الطلائع تدخل القرى ، فاستقبل فيها أحر استقبال وأجمله حتى شارفوا أبولبتوبوليس مجنا ، فتأهبوا لخوض معركة جديدة . ولكن الطلائع لم تلق أية مقاومة ودخلت المدينة بسلام . وكانت وحدات الأسطول تنحدر مع مياه النيل فى ريح مؤاتية فلا تجد أثرا لسفن العدو . فأشار حور الحذر بطبعه على الملك أن يرسل بعض قواته الكشفية إلى الحقول الشرقية خشية أن يقعوا فى كمين . وبات الجيش والأسطول فى أبولبتوبوليس مجنا ، وفارقاها مع الفجر ، وكان الملك وحرسه يسيرون فى مقدمة الجيش وراء القوات الاستطلاعية ، وإلى يمين الملك عجلة الحاجب حور يحيط بهما رجال الحاشية الخبراء بطبيعة البلاد ، وسأل الملك حور :

ــ ألسنا سائرين الآن إلى هيراكونبوليس ؟

فقال الحاجب :

ــ بلى يا مولاى ، وهى مركز الدفاع الأمامى عن طيبة نفسها ، وستنشب فى واديها أول معركة شديدة بين قوتين متعادلتين .

وحين الضحى جاءت أنباء كشفية بأن الأسطول المصرى اشتبك مع أسطول للرعاة يظن لضخامته وكثرة وحداته أنه الأسطول الكامل للعدو ، وأن المعركة تدور بقوة وعنف . فعطف الملك رأسه نحو الغرب وبدا على وجهه الجميل الرجاء والأمل ، وقال حور :

ــ إن الرعاة يا مولاى حديثو عهد بحرب الأساطيل ...

فصمت الملك ولم يجب ، ومضت الشمس ترتفع إلى كبد السماء والجيش يتقدم بفرقه ومعداته ، فاستسلم أحمس للتأمل والتفكير ، وتمثلت له أسرته وهى

تتلقى نبأ مقتل كاموس ، وكيف تفزع أمه ستكيموس وتنفجع جدته أحوتبى وتئن الأم الصابرة توتيشيرى وتبكى زوجه نيفرتاى التى أصبحت ملكة مصر .. رباه ... لقد سقط كاموس غدرا وخسر جيشه بسالته ودرايته وأورثه تركة مثقلة بجلائل الواجبات . ثم سرى خياله إلى الأمام ، إلى طيبة حيث يملك أبو فيس ويعانى الشعب ألوان العذاب والذل ، وذكر خنزر الحاكم الهائل الباسل الذى لن تهدأ نفسه حتى ينتقم لجده الشهيد منه ويرديه قتيلا ، ثم لاحت لخاطره الأميرة أمنريدس وذكر المقصورة التى أصلاهما الهوى فيها نارا مقدسة ، وتساءل : أما تزال تتعلق بالتاجر الجميل إسفينيس وتأمل أن يبر لها بوعده ؟

وهنا سعل حور فذكره بأنه لا ينبغى له أن يتشوق إلى أمنريدس وهو على رأس الجيش الزاحف لتطهير مصر من قومها ، فأراد أن يطرد الفكر : فألقى ببصره على جيشه العرمرم الذى ينطبق الأفق على الأرض دون مؤخرته ، فسرى عنه وعاد إلى التفكير فى المعركة الدائرة فى النيل .. وعند منتصف النهار جاءت رسل الاستطاع يقولون : إن الأسطولين مشتبكان فى قتال عنيف ، وإن القتلى تسقط بكثرة من الجانبين ، وإن القوتين ما تزالان متعادلتين بحيث يستحيل التكهن بنتيجة المعركة . فلاح العبوس فى وجه الملك ولم يخف قلقه ، فقال حور :

ــ لا داعى للقلق يا مولاى فأسطول الرعاة قوة لا يستهان بها ، وأسطولنا يخوض الآن المعركة الفاصلة فى النيل .

فقال أحمس :

ــ إذا خسرناها خسرنا نصف الحرب .

فقال حور بيقين :

ــ وإذا كسبناها يا مولاى كما أتوقع كسبنا الحرب كلها .

وأمسى الجيش على مسير بضع ساعات من هيراكونبوليس فوجب التوقف للراحة والاستعداد ، على أنه ما كاد يمكث وقتا قصيرا حتى جاءت الأخبار بأن الطلائع تقاتل قوات متفرقة من جيش العدو ، فقال أحمس :

ـــ إن الرعاة مستريحون ، ولا شك أنهم يرحبون بالاشتباك معنا الآن .

وأمر الملك بأرسال قوة من العجلات لتؤيد قوات الاستطلاع إذا هاجمتها قوات تفوقها عددا ، واستدعى قواده وأمرهم بالاستعداد لخوض المعركة فى أى وقت كان ..

وكان أحمس يحس التبعة الخطيرة التى يتحملها بقيادته الجيش لأول مرة فى حياته ، وشعر بأنه حامى هذا الجيش العظيم والمسئول عن مصير مصر إلى الأبد ، فقال لحور :

ـــ ينبغى أن نوجه قوتنا لتحطيم عجلات الرعاة .

فقال الحاجب :

ـــ هذا ما سيحاوله كلا الجيشين . وإذا حطمنا عجلات العدو وسيطرنا على الميدان ، أصبح جيشه تحت رحمة قسينا ..

وفى تلك الساعة وأحمس يتأهب لخوض غمار المعركة ، جاء رسول من ناحية النيل وأخبر الملك أن الأسطول المصرى تلقى ضربات شديدة ، فرأى أحمس إبانا أن يتقهقر بوحداته الأساسية ليعيد تنظيمها ، وأن القتال مستمر على أشده . فساور القلق الشاب وأشفق من ضياع أسطوله العظيم ، ولم يجد مهلة للتفكير إذ أخبر أن جيش العدو بدأ هجومه . فحيا حور والحاشية وتقدم بحرسه وأمر فرقة العجلات بالهجوم ؛ فهجم الجيش فى قلب وجناحين اندفعوا صفوفا متراصة فى سرعة وجلبة زلزلت الأرض زلزالا . وما لبثوا أن رأوا جيش الرعاة يتقدم منقضا كالريح العاصفة فى جموع كثيفة من العجلات ، فعلموا أن عدوهم يلقاهم بقواته الوحشية التى طالما سامتهم الخسف ، فثار الغضب فى نفوسهم وصاحوا بصوت كهزيم الرعد ، : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وألقوا بأنفسهم فى المعركة بقلوب تتعطش إلى القتال والانتقام ، فقاتل الفريقان بقــوة وقسوة ووحشية . وخضبت الأرض بالدماء . واختلط صياح الجنود بصهيل الخيل وعزيف القسى . واستمر القتال قاسيا عنيفا حتى مالت الشمس نحو الأفق

وذابت فى بحيرة من دماء . وحلقت فى الفضاء أشباح الظلام ، فكف الجيشان ورجع كل إلى معسكره ، وكان أحمس يسير وسط دائرة من حرسه الذى دافع عنه فى أثناه كره وفره ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم حور فقال لهم :

ـــ كان قتالا عنيفا كلفنا أبطالا بواسل ...

ثم تساءل الملك :

ـــ ألم تجد أخبار عن معركة النيل ؟

فقال الحاجب :

ـــ ما يزال الأسطولان يعتركان ...

ـــ أما من جديد عن أسطولنا ؟

فقال حور :

ـــ قاتل فى أثناء النهار وهو يرتد ، ثم التحمت أكثرية السفن مع وحدات العدو بالسلا لم فلم تستطع انفصالا حين خيم الظلام ، والقتال ما يزال مستمرا وإنا لفى انتظار ما يجد من الأخبار .

فتجهم وجه الملك التعب ، وقال لمن حوله :

ـــ لندع الرب جميعا أن ينصر إخواننا الذين يقاتلون على متن النيل ...

٦

واستيقظ الجيش مع طلوع الفجر وأخذ فى الاستعداد والتأهب ، وجاءت العيون بأنباء مهمة فقالوا : إن الحركة لم تسكن طوال الليل فى معسكر العدو . وقرر بعض من جازفوا بالتوغل فى الحقول المحيطة بميدان القتال أن قوات جديدة من الرجال والعجلات جعلت تتدفق على هيراكونبوليس طوال الليل وأن تدفقها إلى ما قبيل طلوع الفجر . وتفكر حور مليا ثم قال :

ـــ إن العدو يا مولاى يجمع لنا جل قواته هنا ليلقانا بجيشه كاملا ، ولا أعجب لذلك لأننا إذا اقتحمنا أبواب هيراكونبوليس فلن يعوق تقدمنا سوى أسوار طيبة المجيدة ...

وجاءت أخبار سارة من جانب النيل ، فعلم الملك أن أسطوله قاتل قتال المستيئس فلم يتمكن منه عدوه كما اشتهى ، وأنه على العكس طرد جنوده من كثير من سفنه بعد أن وطئتها أقدامهم فاضطر أسطول الرعاة أن ينفصل عنه وقد خسر ثلث قوته . وكف الأسطولان عن القتال ساعات ثم اشتبكا فى عراك جديد بعيد مطلع الفجر ، وكان أسطول أحمس إبانا البادىء بالهجوم ، فانشرح صدر الملك وتوثب للقتال بقلب جذل ...

وحين سفور الصبح تقدم الجيشان للقتال ، وبرزت صفوف العجلات وصاح المصريون صيحتهم المعروفة : حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع . ثم قدموا بأنفسهم فى معترك الموت لا يلوون على شىء ، فالتقوا بالعدو فى صدمات قاتلة واشتدوا عليه كما اشتد عليهم ، وقاتلوا بالقسى والرماح والسيـوف . ولاحظ الملك أحمس بالرغم من اشتداد القتال أن قلب جيش العدو يدير المعركة بمهارة فائقة ويرسل القوات هنا وهناك بانتظام ودقة ، فعاين القائد البارع فإذا به

غير حاكم هيراكونبوليس ، وإذا به الملك أبو فيس نفسه الذى أهدى إليه التاج المرصع بالجواهر فى قصر طيبة بجسمة البدين ولحيته الطويلة وبصره الحاد فتحفز أحمس لهجمات شديدة ، وقاتل قتال الأبطال البواسل وحرسه يرد عنه هجمات العدو ، فلم يلق فارسا من القوم إلا جندله فى غمضة عين ، حتى هابوا نزاله ويئسوا من التغلب عليه . وطال أمد القتال ، واندفعت إلى الميدان قوات جديدة من الجانبين ، فاستمر القتال على عنفه وشدته حتى أوشك النهار أن يزول . وفى تلك الساعة وقد نهكت قوى الطرفين انقضت قوة من عجلات الرعاة على جناح المصريين الأيسر بقيادة رجل شديد البأس، وضغطته ضغطا شديدا لم تفد معه المقاومة المنهوكة القوى ، ومضت تصنع لنفسها ثغرة تندفع منها لتطويق القوة المحاربة أو للهجوم على المشاة ؛ فأدرك أحمس أن ذاك القائد ذا البأس تحين فى تعبهم فرصة مناسبة ، وأنه ادخر قوته ليضرب ضربة قاضية . وخشى أن يظفر الرجل بغرضه فيوقع الاضطراب فى صفوف جيشه المتراصة ، أو يوقع مذبحة فى مشاته ؛ فرأى أن يقتحم قلب العدو بقوته ليضيق عليه ، فيجد القائد الداهية نفسه شبه محاصر . ولم يتردد لأن الموقف كان خطيرا دقيقا ، فأمر جنوده بالهجوم وهجم على القلب بحركة فجائية قوية ، واشتد القتال إلى درجة مروعة مفزعة ، واضطر العدو أن يتقهقر تحت الضغط الشديد . وحينذاك أرسل أحمس قوة من العجلات لتطويق القوة التى تشتد على جناحه الأيسر ، ولكن القائد كان داهية بارعا ؛ فعدل خطته بعد أن كاد يحدث الثغرة المطلوبة ورمى بقوة صغيرة من عجلاته تهجم على العدو ، وتقهقر هو وبقية القوة بسرعة إلى جيشه . وفى أثناء هذه العملية الدقيقة استطاع أحمس أن يرى القائد الجسور وأن يعرف فيه خنزر حاكم الجنوب الجبار ببنيانه المتين وعضلاته الفولاذية ؛ وقد كلفت هجمته الجبارة المصريين صرعى كثيرين من زهرة فرسان العجلات . وانتهى القتال بعد ذلك بقليل فعاد الملك وجيشه إلى معسكرهم ، وكان أحمس يقول متوعدا غاضبا : « لا بد أن نلتقى يا خنزر وجها لوجه ... » واستقبله رجاله بالدعاء . ووجد بينهم شخصا جديدا

هو أحمس إبانا ، فتفاءل من وجوده فى المعسكر وسأله :

ـــ ماذا وراءك أيها القائد ؟

فقال أحمس إبانا :

ـــ النصر يا مولاى ، لقد أوقعنا بأسطول الرعاة الهزيمة وأسرنا أربع سفن كبيرة من وحداته وأغرقنا نصفه ، وفرت سفن لا تغنى ولا تعين .

فتهلل وجه الملك ، ووضع يده على مَنكب القائد وقال :

ـــ لقد كسبت لمصر بهذا النصر نصف الحرب ، وإننى بك جد فخور .

فتورد وجه أحمس إبانا وقال بسرور :

ـــ ما من شك يا مولاى فى أننا دفعنا ثمن النصر غاليا ، ولكن أصبحت لنا السيادة المطلقة على النيل .

فقال الملك بلهجة رزينة :

ـــ كبدنا العدو خسارة كبيرة أخشى ألا نجد عوضا منها ، والفوز فى هذه الحرب لمن يقضى على فرسان عدوه .

وسكت الملك هنيهة ثم استدرك :

ـــ إن حكامنا فى الجنوب يدربون الجند ويبنون السفن والعجلات ولكن تدريب فرسان العجلات يتطلب زمنا طويلا ، فلن ينفعنا فى المعركة التى نخوض غمارها إلا استبسالنا حتى لا تواجه مشاتنا عجلات العدو مرة أخرى ...

٧

استيقظ الجيش مرة أخرى عند مطلع الفجر وأخذ فى التأهب والاستعداد ، وارتدى الملك لباسه الحربى واستقبل فى خيمته رجاله وقال لهم :

ـــ لقد صح عزمى على مبارزة خنزر ...

فارتاع حور لهذا القول وقال برجاء عظيم :

ـــ مولاى ، ينبغى ألا تشل ضربة طائشة عملنا المجيد .

وتوسل كل قائد إلى الملك أن يأذن له فى قتال حاكم الجنوب ، ولكن أحمس شكرهم وقال لحور :

ـــ لن يشل عملنا خطب وإن جل ، ولن يعوقه مصرعى إذا صرعت ، فلا يفتقر جيشى إلى القواد ولا تعوز بلادى الرجال ، وما كان لى أن أضيع من بين يدى فرصة أواجه بها قاتل سيكننرع ، فدعنى أقاتله حتى أقتله لأوفى دينا فى عنقى نحو روح كريم يراقبنى من العالم الغربى : ولتنزل لعنة الرب بالمترددين الخائرين ...

وأرسل الملك ضابطا ليعرض على خصمه رغبته ، فتوسط الرجل الميدان وصاح :

ـــ أيها العدو ، إن فرعون مصر يرغب فى مبارزة القائد خنزر لتسوية حساب قديم .

فبرز له رجل من كتيبة خنزر :

ـــ قل لمن تدعوه فرعون : إن القائد لا يحرم عدوا شرف الموت بسيفه ...

فامتطى أحمس صهوة جواد كريم ، ووضع السيف فى حاملته والرمح فى قرابه ، ونخسه فعدا به إلى الميدان . ورأى عدوه ينطلق نحوه على جواد أشهب

تياها فخورا يبدو جسمه كأنه كتلة جبارة من الجرانيت ، فتدانيا رويدا رويدا حتى كاد رأسا جواديهما أن يتماسا ، وعاين كل منهما خصمه فلم يتمالك خنزر أن بدت على وجهه الدهشة وصاح بغرابة :

— رباه .. من أرى أمامى ... أليس إسفينيس تاجر الأقزام واللالىء ؟ يا لها من دعابة ، أين تجارتك أيها التاجر إسفينيس ؟

وكان أحمس ينظر إليه فى هدوء وسكينة فقال له :

— انتهى إسفينيس أيها القائد خنزر ، وليس لى من تجارة الآن سوى هذا ...

وأشار إلى سيفه . فملك خنزر عواطفه وسأله :

— فمن تكون إذا ؟

فقال أحمس ببساطة وهدوء :

— أحمس فرعون مصر .

فضحك خنزر ضحكة عالية دوت فى الميدان ، وقال ساخرا :

— ومن الذى ولاك مصر وهذا ملكها يحمل التاج المزدوج الذى أهديته إلى ساجدا ؟..

فقال أحمس :

— ولانى الذى ولى آبائى وأجدادى من قبل ، فاعلم أيها القائد أن الذى سيقاتلك هو حفيد سيكننرع ...

فبدا الجد على وجه الحاكم وقال بهدوء :

— سيكننرع .. إنى أذكر ذلك الرجل الذى قضى سوء حظه يوما أن يرغم على منازلتى ، وإنى أكاد أدرك كل شىء فاعذرنى على بطء فهمى . فإننا معشر الهكسوس أبطال ميدان لا نحسن المكر ولا نعرف غير لغة السيف ، أما أنتم معشر مدعى الملك من المصريين فتتخفون طويلا فى ثياب التجار قبل أن تؤاتيكم شجاعتكم على ارتداء لباس الملوك ... فليكن ما تريد ، ولكن هل ترغب فى مبارزتى يا إسفينيس ؟

فقال أحمس بحدة :

ـــ فلنرتد من الثياب ما نشاء فهى ثيابنا أما أنتم فما تعلمتم ارتداء الثياب حتى آوتكم مصر . ولا تدعنى إسفينيس ما دمت تعرف أنى أحمس بن كاموس بن سيكننرع ، أسرة عريقة فى النبل والقدم انحدرت من صلب طيبة المجيدة ، فلم تعرف التشرد فى الصحارى ولا رعى القطعان ، وإنى لأرغب حقا فى مبارزتك وإنه لشرف تكتسبه كى أؤدى دينا فى عنقى نحو أجل إنسان عرفته طيبة ...

فصاح خنزر قائلا :

ـــ أرى الغرور يعميك عن معرفة قدر نفسك ، فظننت أن انتصارك على القائد رخ مسوغا للوقوف أمامى ... فوارحمتاه لك أيها الشاب الغرير ... ماذا تختار أن يكون سلاحك ؟.

فقال أحمس وقد ارتسمت على فمه ابتسامة ساخرة :

ـــ السيف إذا شئت ...

فقال خنزر وهو يهز منكبيه العريضين :

ـــ هو أعز الأصدقاء .

ونزل خنزر عن ظهر جواده وأسلم قياده إلى تابعه ، ثم سل سيفه وأمسك بترسه ، ففعل أحمس مثله ووقفا صامتين يفصل بينهما مقدار ذراعين ، ثم تساءل أحمس :

ـــ هل نبدأ ؟

فقال خنزر ضاحكا :

ـــ ما أجمل هذه المواقف التى تتكاشف فيها الحياة والموت ، هلم يا فتى ...

فتوثب الملك وهاجم خصمه الضخم بشجاعة ووجه إليه ضربة شديدة تلقاها الحاكم على ترسه . ثم رد عليه الهجوم وهو يتكلم قائلا :

ـــ يا لها من ضربة صادقة يا إسفينيس ، وما أظن إلا أن رنين سيفك على ترسى ينشد لحن الموت ... مرحى ... مرحى إن صدرى يرحب برسل الموت ، فطالما

طمع الموت ، وأنا ألعب بين مخالبه ، ثم يرتد عنى خائبا وقد أدرك آخر الأمر أنه إنما حضر لغيرى .

وكان الرجل يقاتل دون أن يكف عن الكلام كأنه راقص ماهر يغنى وهو يرقص ، فأرك أحمس أن خصمه عنيد شديد البأس ، فولاذى العضلات ، واسع الحيلة ، خفيف الحركة ، جبار فى الكر والفر ؛ فبذل كل ما لديه من قوة ودراية ، وتفادى من الضربات الموجهة إليه وهو يعلم أنها ضربات قاتلة لا نجاة منها إذا أصابت هدفها . ولكنه تلقى ضربة بترسه أحس ثقلها ، ورأى خصمه يبتسم فى ثقة وطمأنينة فاهتاجه الغضب والحنق ووجه إليه ضربة هائلة تلقاها الرجل بدوره على ترسه وكان يسيطر على أعصابه وإرادته ، فسأل أحمس :

ــ أين صنع هذا السيف المتين ؟

فقال له أحمس وقد تمالك نفسه كذلك :

ــ فى نباتا فى أقصى الجنوب .

فقال الرجل وهو يتفادى من ضربة شديدة وجهت إليه بمهارة فائقة :

ــ أما سيفى فقد صنع فى منف بأيدى صناع مصريين .. وما كان صانعه يعلم أنه يقدم لى ما أقضى به على مليكه الذى تاجر وقاتل فى سبيله :

ــ فقال أحمس :

ــ ما أسعده غدا إذا علم أنه كان شؤما على عدو بلاده ...

وكان أحمس يتحين الفرصة لهجوم عنيف ، فما كاد يتم كلامه حتى وجه إلى خصمه الجبار ثلاث ضربات متوالية بسرعة خاطفة ، فتحاماها خنزر بدرعه وسيفه ولكنه اضطر إلى أن يتقهقر خطوات ، فقفز عليه الملك وهاجمه هجوما قاسيا ووجه الضربة تلو الضربة إلى مقاتله . وأدرك خنزر خطر المصير ، فكف عن مداعبة خصمه وأطبق فمه ، وزال عنه الابتسام فقطب جبينه ودافع هجمات عدوه بقوة جبارة وبسالة هائلة ، وأبدى من ضروب المهارة والشجاعة ما يفوق كل تصور . وأصاب ذباب سيفه خوذة أحمس ، فظن الرعاة أنه قضى على

عدوهم العنيد فتعالى هتافهم حتى تساءل أحمس هنيهة : « ترى هل أصبت ؟ » ولكنه لم يحس تخاذلا ولا وهنا ، فاستجمع وضرب عدوه ضربة قوية عنيفة عرض لها ترسه فصكته بقسوة فتركه يسقط من يده متضعضعا وقد ارتج ساعده . وتعالى الهتاف من الجانبين بين فرح وغضب ، وتوقف أحمس عن القتال ونظر إلى خصمه مبتسما ابتسامة الظفر ، وكان الآخر يشهر سيفه ويتأهب للقتال بغير ترس ، فما كان من أحمس إلا أن خلع ترسه ورمى به جانبا ، فبدت الدهشة على وجه خنزر ونظر إليه نظرة غريبة وهو يقول :

ـــ يا له من نبل حقيق بأخلاق الملوك ..

واستأنفا القتال فى سكون فتبادلا ضربتين شديدتين ، ولكن ضربة أحمس كانت أسرع إلى رقبة خصمه الجبار فسرت فيه رجفة هائلة ، وتراخت يده عن مقبض سيفه ثم سقط على الأرض كأنه بنيان تهدم ، ودنا الملك منه فى خطى بطيئة ، ونظر إلى وجهه بعين ملؤها الاحترام وقال له :

ـــ يا لك من جبار باسل أيها الحاكم خنزر ...

فقال الرجل وهو يصعد أنفاس الحياة الأخيرة :

ـــ بالحق نطقت أيها الملك ... ولن يعترض سبيلك من بعدى مقاتل .

وتناول أحمس سيف خنزر ووضعه إلى جانب جثته ، ثم امتطى جواده وعاد إلى معسكره ، وكان يعلم أن الرعاة سيحاربون بحنق ورغبة فى الانتقام ، فأقبل على فرسانه وصاح بهم :

ـــ أيها الجنود ، رددوا شعارنا الخالد : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . واذكروا أن مصيرنا إلى الأبد معلق بنتيجة هذه المعركة الدائرة ، فلا ترضوا أبدا أن يضيع صبر الأعوام وجهاد الأجيال فى تخاذل ساعة واحدة ...

ثم حمل وحملوا ودار القتال عنيفا حتى مغيب الشمس .

واستمر القتال على هذا النحو عشرة أيام كاملة .

٨

وفى مساء اليوم العاشر من أيام القتال عاد الملك أحمس من الميدان متعبا منهوك القوى ، فاجتمع بحاشيته وقواده ، وكان سقوط خنزر قد ألحق بجيش الرعاة خسارة لا تعوض ، ولكن فرقة عجلاتهم لبثت تقاوم وتصد هجمات المصريين وتوقع بهم الخسائر الفادحة . فساور الملك القلق ، وخشى أن تتحطم فرقة العجلات الجبارة يوما بعد يوم ، وكان فى ذاك المساء غاضبا حزينا لكثرة من سقط من فرسانه البواسل الذين يتصدون للموت بغير مبالاة ، فقال وكأنه يحدث نفسه :

— هيراكونبوليس ... هيراكونبوليس ... ترى هل يقترن اسمك بانتصارنا أم بهزيمتنا ؟.

وكان المجتمعون لا يقلون عن الملك حزنا أو غضبا ، ولكن راعهم ما يبدو على وجهه الجميل من التعب والانفعال ، فقال الحاجب حور :

— مولاى ... إن فرسائنا يقاتلون فرقة عجلات الرعاة بكامل عددها وعددها فلا تهولنا خسائرنا ، وغدا إذا ظهرنا على العدو وحطمنا عجلاته فلن يكون لمشاته قبل بنا ، وسيلوذون بأسوار الحصون فرارا من انقضاض عجلاتنا عليهم .

فقال الملك :

— كانت غايتى الكبرى أن أقضى على عجلات العدو مع الاحتفاظ بقوة عظيمة من عجلاتنا لتسيطر على الميدان دائما ، كما فعل الرعاة فى هجومهم فى طيبة . ولكنى بت أخشى أن يقضى على قوتينا الراكبتين معا ، فنتعرض لحرب طويلة الأمد لا تبقى على مدننا ولا تذر ...

وطلب الملك أن يطلع على الإحصاء الأخير للخسائر ، وجاء ضابط به فإذا فرقة العجلات المصرية قد خسرت ثلثي قوتها من العجلات والفرسان .

فامتقع أحمس ونظر فى وجوه رجاله ، فإذا بالوجوم يعلوها جميعا . ثم قال :

ـــ لم يبق لدينا سوى ألفى فارس ... فكيف تقدرون خسائر العدو ؟

فقال القائد ديب :

ـــ لا أتصور يا مولاى أنها تقل عن خسارتنا .. وأرجح أنها تزيد عليها ...

فحنى الملك رأسه ولبث يفكر مليا ، ثم نظر إلى رجاله وقال :

ـــ سيعلم كل شيء غدا ، فغدا يوم الفصل دون شك ، ولعل عدونا يعانى من الحيرة والقلق ما نعانى وأكثر ، وعلى كل حال لن يلومنا أحد ولن نلوم أحدا ، والرب يعلم أننا نقاتل بقلوب كارهة للحياة ..

فقال ديب متسائلا :

ـــ إن أسطولنا لا يحارب الآن ، فلماذا لا ينزل جنودا وراء جيش العدو فيما بين هيراكونبوليس ونخب ؟

فقال أحمس إبانا :

ـــ إن أسطولنا سيطر الآن على النيل سيطرة كاملة ، ولكننا لا نستطيع أن نجازف بإنزال جنود وراء العدو إلا إذا كان جيشه جميعا مشتبكا فى القتال . والواقع أن القتال مقصور حتى الآن على فرقتى العجلات ، أما جيش العدو فرابض وراء الميدان مستريحا يقظا ...

وسأل أحد كهنة أمبوس قائلا :

ـــ أليس لنا يا مولاى قوة احتياطية من الفرسان ؟

فقال أحمس :

ـــ لقد جئنا مصر بستة آلاف فارس هم ثمرة جهاد شاق وصبر طويل ، فخسرنا منهم أربعة آلاف رجل فى اثنى عشر يوما من أيام الجحيم ...

فقال حور :

ـــ مولاى ... إن سيين وأمبوس وأبولينوبوليس مجنا تبنى العجلات وتدرب الفرسان بلا توان .

أما أحمس إبانا فقال بحماسه الذى لا يعرف اليأس :

ـــ حسبنا شعارنا الذى لقنتناه الأم المقدسة توتيشيرى : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » ، وأن فرسانا لا يغلبون ، وأن مشاتنا ليتحرقون شوقا إلى القتال ، ولنذكر دائما أن الرب الذى أرسلك إلى أرض مصر لم يرسلك عبثا .

وأمن الرجال على قول القائد الشاب وابتسم الملك ابتسامة مشرقة ، وبات الجيش ليلته واستيقظ مع الفجر كعادته وتأهب للقتال . وعند سفور الصباح تقدمت فرقة العجلات وفى قلبها الملك وحرسه ، ونظر إلى الميدان فرآه خاليا فعجب غاية العجب ، ثم أمعن فى النظر فرأى على البعد أسوار هيراكونبوليس لا يعترض سبيله إليها رجل من الرعاة . ولم تطل الدهشة بالملك فجاءه بعض رجال الاستطلاع وقرروا بين يديه أن جيش أبو فيس انسحب من الميدان بمجموعة الجرارة وترك هيراكونبوليس فى الليل وجد فى السير نحو الشمال ، ولم يتمالك القائد محب أن قال :

ـــ الآن حصحص الحق ... وما من شك فى أن قوة عجلات الرعاة تحطمت ، وأن أبو فيس آثر أن يفر إلى حصونه على أن يواجه فرساننا بمشاته ...

وقال القائد ديب فرحا :

ـــ مولاى .. لقد كسبنا موقعة هيراكونبوليس الهائلة ...

وكان الملك أحمس يتساءل : ترى هل انكشفت الغمة ؟.. ترى هل حقا زالت المخاوف ؟ ثم التفت إلى ديب وقال :

ـــ بل قل إننا حطمنا عجلات الرعاة وكفى ...

وسرت الأخبار إلى الجيش فشاع الفرح فى النفوس ، وهرع رجال الحاشية يتقدمهم حور إلى الملك وهنأوه بالنصر المبين الذى فتح الرب به عليه . ودخل أحمس مدينة هيراكونبوليس على رأس جيشه ، وهرع معه الأهالى إليها من الحقول

فروا إليها خوفا من انتقام آل الرعاة ، واستقبلوا ملكهم استقبالا حارا وهتفوا لجيش الخلاص هتافا يشق عنان السماء ...

وكان أول شيء فعله الملك أن صلى للرب آمون الذى مد له يد المعونة بعد أن كاد يشفى على اليأس ...

(كفاح طيبة)

٩

واستراح الجيش فى هيراكونبوليس بضعة أيام بعد قتال عنيف دام اثنى عشر يوما ، وأشرف أحمس بنفسه على تنظيم المدينة وإعـادة مصريتها الأولى إلى حكومتها ومزارعها وأسواقها ومعابدها . وواسى الأهالى لما تعرضوا له من ألوان الاضطهاد وما تعرضت له مدينتهم فى أثناء تقهقر الرعاة من النهب والسلب والتخريب .

ثم زحف الجيش نحو الشمال وأبحر معه الأسطول ودخل مدينة نخب فى عصر اليوم نفسه دون مقاومة ، وبات فيها حتى فجر اليوم الثانى . ثم استأنف مسيره دون أن يلتقى بأية قوات للعدو فاحتل القرى ورفع عليها الأعلام المصرية . وشارف وادى لاتوبوليس بعد ثلاثة أيام ، وكان الملك ورجاله يظنون أن العدو سيدافع عنها فأرسل أحمس طلائع جيشه إليها وحاصر أحمس إبانا شطئانها الغربية ولكن الطلائع دخلت المدينة دون مقاومة فدخلها الجيش آمنا . وقص عليهم الأهالى وكيف مر بهم جيش أبو فيس يحمل جرحاه ، وكيف حمل أصحاب الدور والمزارع من الرعاة أثاثهم وأموالهم ولحقوا بجيش ملكهم فى حالة شديدة من الفزع والفوضى ...

وتقدم الجيش بقواته المرهوبة يدخل القرى والمدن دون أدنى مقاومة حتى بلغ ترت ، ثم بعدها هزمنتيس ، وكانوا يتوقون جميعا إلى ملاقاة عدوهم ليشفوا غل صدورهم . ولكن كان السرور يتألق فى وجوههم كلما رفعوا العلم على بلدة أو قرية وشعروا أنهم حرروا قطعة من الوطن الأثير . وكان خبر الهزيمة التى لحقت بفرقة عجلات الرعاة ينعش نفوس الجنود ويذكى فى قلوبهم الأمل والحماسة ، فمضوا ينشدون الأغانى الحماسية ، ويضربون فى أرض الوادى بسيقـانهم

النحاسية ، حتى طالعتهم أسوار مدينة هابو المتوغلة فى منطقة طيبة . وكان الوادى ينحدر نحو جنوبها انحدارا فجائيا شديدا ، فذهبت الطلائع إلى المدينة ولكنها كانت كسابقاتها من المدن بغير حراس ، فدخلها الجيش فى سلام . هز دخول هابو قلوب الجنود جميعا لأنها وطيبة كانتا كأعضاء الجسم الواحد ، ولأن كثيرا من جنود الجيش كانوا من بنيها البواسل ، فتعانقت فى ساحاتها القلوب والأنفس وهتفت الضمائر بأناشيد الشوق والحنين . ثم تقدم الجيش شمالا بقلوب متحفزة وأنفس متوثبة ، وهو يعلم أنه مقبل على العمل الفاصل فى تاريخه والمعركة الخطيرة التى تقرر مصير طيبة ، وانحدر فى الوادى العظيم الذى يطلق عليه الطيبيون « طريق آمون » وكان يتسع كلما أوغلوا فيه حتى بدا لهم السور العظيم ذو الأبواب المتعددة يقطع الطريق عليهم ويمتد شرقا وغربا ، تنطلق من خلفه المسلات وجدران المعابد والأبنية الشاهقة يتمثل فيها جميعا المجد والخلود وتطوف بها الذكريات العظيمة ، فسرت منها إلى النفوس عاصفة من الحماسة والحنين زلزلت القلوب والضمائر ، فتصايحت جنبات الوادى هاتفة : « طيبة .. » « طيبة .. » . وجرى اسمها على كل لسان ولهجت به الأفئدة المضطرمة ، وما زالوا يهتفون حتى جرف الدمع كبرياءهم فبكوا وبكى حور الشيخ ...

وعسكر الجيش العظيم ، ووقف أحمس فى قلبه يرفرف على رأسه علم طيبة الذى حاكته توتيشيرى بيديها ، يرسل ناظريه إلى المدينة وقد لاحت فيهما الأحلام ويقول :

ـــ طيبة ... طيبة ... يا أرض المجد ... ومثوى الآباء والأجداد ، أبشرى فغدا يطلع عليك صبح جديد ...

١٠

واستدعى الملك القائد أحمس إبانا وقال له :

ـــ سأكل إليك أيها القائد ساحل طيبة الغربي فهاجمه أو حاصره كما يتراءى لك ، مستلهما خططك من الملابسات المحيطة بك .

وأنشأ الرجال يفكرون فى طريقة الهجوم على طيبة ، فقال القائد محب :

ـــ إن أسوار طيبة منيعة شديدة البأس تكلف المهاجمين أرواحا غالية ، ولكن ما من مهاجمتها بد ، فأبوابها الجنوبية هى السبيل الوحيد إليها .

وقال القائد ديب :

ـــ إن محاصرة المدن الحصينة وتجويعها أجدى على المهاجمين من مهاجمتها ، ولكننا لا نستطيع أن نفكر لحظة واحدة فى تجويع طيبة ، فلم يبق لدينا سوى مهاجمة أسوارها . ونحن لا تعوزنا وسائل الهجوم على الأسوار من السلالم والقباب الواقية ؛ ولكنها ليست كافية كذلك ، ونرجو أن تصلنا منها كميات وافرة . وعلى أية حال إذا كان ثمن طيبة غاليا فسنبذله عن طيب خاطر .

فقال أحمس :

ـــ هذا هو الرأى ، فينبغى ألا نضيع وقتنا لأن قومنا محصورون داخل أسوار المدينة ، ويحتمل أن يتعرضوا لانتقام عدونا الوحشى .

وفى ذلك اليوم تقدم الأسطول المصرى نحو شاطئ طيبة الغربى والتقى أمامه بأسطول للرعاة جمعوه من السفن الفارة من هيراكونبوليس فأطبق عليه واشتبك الأسطولان فى معركة عنيفة ، ولكن كان تغلب المصريين فى عدد الرجال والسفن كبيرا ، فضيقوا الخناق على عدوهم وأصلوه نارا حامية .

وأرسل أحمس طلائع من فرق القسي والرماح لاختبار القوات المدافعة ،

فأطلقوا قسيهم على نقط متباعدة من السور العظيم ، فإذا بالرعاة قد ملأوا السور بالحراس الأشداء وبأسلحة لا تنفد . وكان القواد المصريون ينظمون قواتهم ، فلما صدر إليهم أمر الهجوم أرسلوا كتائب متتالية من رجالهم فى أرجاء الوادى لتهاجم السور فى نقط متباعدة ، محتمية بدروعها الطويلة ، فانهالت عليهم سهام العدو كالسيل . وصوبوا قسيهم نحو منافذ السور المنيع . ودار القتال بلا رحمة ، وكان المعسكر لا يفتأ يرسل جماعات الجنود المتحفزين للقتال ، وكانوا يقاتلون بجسارة لا تهاب الموت فدفعوا ثمن جرأتهم غاليا . وانتهى النهار بمذبحة هائلة ، وقد روع الملك بمنظر القتلى والجرحى فصاح غاضبا :

— إن جنودى لا يبالون الموت ، والموت يحصدهم حصدا .

فقال حور وهو يلقى على الميدان بصرا زائغا :

— يا لها من معركة يا مولاى ... أرى الجثث تملأ الميدان ..

وكان القائد محب متجهم الوجه معفر الثياب فقال :

— ألسنا نهاجم الموت سافرا ؟

فقال أحمس :

— لن أدفع بجيشى إلى الهلاك المحقق ، ويحسن بى أن أرسل عددا محدودا من الرجال وراء القباب الواقية ، حتى يملأ الموت على العدو منافذ سوره .

ولبث الملك مهتاج النفس ، ولم يخفف عنه ما حملته الرسل من أن الأسطول المصرى استولى على بقية أسطول الرعاة وأصبح سيد النيل دون منازع ... وفى ذلك المساء عاد الرسول الذى كان بعثه إلى أسرته فى نباتا يحمل رسالة من توتيشيرى ، فبسط أحمس الرسالة بين يديه وقرأ ما يأتى :

« من توتيشيرى إلى حفيدى ومولاى فرعون مصر أحمس بن كاموس ، من أدعو الرب الكريم أن يصون حياته الغالية ، ويوفق رأيه للسداد ، وقلبه للإيمان ، ويده إلى مقتل عدوه .. جاءنى رسولك ينعى إلينا فقيدنا الباسل كاموس ويبلغنى كلمته الأخيرة الموجهة إلى ، ويحسن بى — وأنت تقاتل عدونا — أن أضرب

صفحا عن ذكر ما تخفق به قلوبنا جميعا ، فقد قضى على قلبى أن يذوق الموت مرتين فى حياة قصيرة واحدة ؛ ولكن لا يعز العزاء على من يعيش فى أتون معركة هائلة تبذل فيها النفوس رخيصة ويستبق الشجعان إلى الموت ، ولا أكتمك — على ألمى وحزنى — أن رسولا يسعى إلى بموت كاموس ونصر جيشنا ، أحب إلى من أن يجيئنى كاموس بنبأ الهزيمة .. فسر فى سبيلك ترعاك عناية الرب الرحيم ، ويحفظك دعاء قلبى والقلوب الرقيقة المجتمعة حولى ، يتنازعها الحزن والتصبر والرجاء ، واعلم يا مولاى أننا نشد الرحال إلى بلدة دابور على مقربة من حدود بلادنا ، لنكون أدنى إلى رسلك ، والسلام » .

قرأ أحمس الكتاب فاستشف ما يكمن وراء سطوره من ألم ممض ورجاء حار ، وتمثلت له الوجوه التى ودعها فى نباتا ؛ توتيشيرى بوجهها الناحل المكلل بالمشيب ، وجدته أحوتبى بجلالها وحزنها وأمه ستكيموس بوداعتها ، وزوجة نيفرتارى بعينيها الواسعتين وقدها الرشيق ، وتمتم قائلا : « رباه ! إن توتيشيرى تتلقى طعنات الألم القاتل بالعزاء والأمل ، ولا ينسيها حزنها أملنا المنشود فلأذكر دائما حكمتها ولأتبعها بعقلى وقلبى » ...

٧

١١

وقام الأسطول بواجبه بعد أن أسر أسطول الرعاة ؛ فضرب الحصار حول شاطىء المدينة الغربى ، وبث الرعب فى أنفس أصحاب القصور المطلة على النيل ، وتبادل إطلاق السهام مع حصون الشاطىء . ولكنه لم يحاول مهاجمة هذه الحصون لمناعتها ولارتفاعها بسبب انخفاض النيل فى فصل الحصاد ، فاكتفى بمناوشتها وضرب الحصار حولها . وكان أحمس إبانا تنازعه نفسه إلى شاطىء البلد الجنوبى حيث يقيم الصيادون ، ويخفق بحبه قلب حنون ، وظن أن هذا المكان قد يكون منفذه إلى طيبة . ولكن الرعاة كانوا أكبر حذرا مما ظن فأخذوا الشاطىء من المصريين ، وشغلوا مساحته الممتدة بالحراس المدرعين ..

أما الملك أحمس فقد عدل عن الهجوم بجماعات كثيفة ، وقدم للميدان نخبة من رجاله المدربين وراء الدروع الطويلة ، فاستبقوا مع المدافعين عن السور العظيم فى حرب قوامها الفن ودقة التصويب . ولم يتوانوا عن إظهار مهارتهم التقليدية وكفاءتهم العالية . واستمرت الحرب على هذا النحو بضعة أيام دون أن تبشر بأى نتيجة أو تنبىء بأية نهاية ، فتململ الملك وقال :

ــ ينبغى ألا نعطى العدو مهلة يستعيد فيها نظامه ويعيد بناء قوة جديدة من عجلاته .

ثم شد أحمس على مقبض سيفه وقال :

ــ سآمر باستئناف الهجوم العنيف . وإذا لم يكن من بذل النفوس بد فلنقدم أنفسنا كما ينبغى لرجال أقسموا أن يحرروا مصر من نير عدوها الثقيل . وسأوجه رسلى إلى حكام الجنوب ليحثوهم على صنع دروع الحصار والقباب الواقية ...

وأصدر الملك أمره بالهجوم . وأشرف بنفسه على توزيع فرق القسى والرماح

فى الميدان الفسيح على هيئة قلب وجناحين ، وجعل القائد محب على الميمنة ، والقائد ديب على الميسرة . ومضى المصريون يتقدمون فى موجات واسعة النطاق ، لا تلحق الموجة بسابقاتها حتى تكون هذه قد أخذت مكانها وطفقت تناجز العدو المحتمى بالسور المرهوب . فلما تقدم النهار بالمقاتلة كان الميدان يزخر بالجنود الضاغطين سور طيبة ، واستطاع المصريون أن يلحقوا بعدوهم خسارة فادحة كما خسروا عددا كبيرا من رجالهم ؛ ولكن خسارتهم على أى حال كانت دون خسارة اليوم الأول ودار القتال على هذا بضعة أيام أخر ، وكثر عدد القتلى من الجانبين . واشتد ضغط جناح المصريين الأيمن للعدو حتى استطاع مرة أن يسكت نقطة من نقط الدفاع المتعددة ، وأن يهلك كل من يتصدى لإطلاق السهام من منافذها . وانتهز بعض الضباط البواسل هذه الفرصة فهاجموا تلك الجهة بجنودهم ، وأقاموا سلم هجوم وصعدوا عليه مع قوة باسلة ، وسهام إخوانهم تغشاهم كالسحاب . وقد انتبه الرعاة إلى الناحية المهددة فتكاثروا عليها وأصلوا المهاجمين نارا حامية حتى أبادوهم ، وسر الملك لهذا الهجوم الذى ضرب مثلا رائعا لجيشه ، وقال لمن حوله :

— لأول مرة من بدء الحصار يقتل نفر من جنودى على سور طيبة .

والحق كان لهذه الخطوة مغزى عظيم ، فقد تكررت فى اليوم الثانى ، ثم وقعت فى غداته فى نقطتين من السور . ومضى يتزايد ضغط المصريين للعدو حتى بات الغزو أملا مرجوا قريبا . وفى تلك الأثناء جاء رسول من شاو حاكم سيين على رأس قوة من الجنود المدججين بالسلاح الذين تم تدريبهم أخيرا ، ومعهم سفينة محملة بدروع الحصار وسلالمه وعدد من القباب الواقية . فاستقبل الملك الجنود بسرور ، وقد تضاعف أمله فى النصر ، وأمر بتسييرهم فى الميدان أمام معسكره لتحييهم الجنود ويزدادوا بهم أملا وقوة ...

ودار القتال مع الغداة مروعا هائلا ، وتوالت هجمات المصريين الصادقة ، ولاقوا الموت بقلوب لا تهابه ، وأنزلوا بعدوهم خسائر جمة حتى بدا عليه الإعياء

واليأس واعتور سواعده النصب ، فاستطاع القائد محب أن يقول لمولاه وهو عائد من الميدان :

— مولاى ... سنقتحم السور غدا ...

واجتمع رأى القواد جميعا على هذا ، فبعث أحمس برسول إلى أسرته يدعوها إلى هابو التى يرفرف عليها العلم المصرى ، ليدخلوا جميعا طيبة فى الغد القريب .. وبات الملك ليلته شديد الإيمان كبير الأمل ...

١٢

وطلع فجر اليوم الموعود ، فاستيقظ المصريون نشاوى يتوثبون ، توقع قلوبهم الخافقة لحن الحرب والنصر . ثم تقدمت جموعهم إلى أماكنها وراء الدروع والقباب ، ونظروا إلى أهدافهم غاضبين ، فرأوا منظرا عجبا لم يتوقعوا رؤيته ، فضجوا بالدهشة والانزعاج ، وتبادلوا نظرات الحيرة والذهول . رأوا على السور المحيط أجسادا عارية قيدت إليه ، رأوا نساء مصريات وأطفالهن الصغار اتخذ الرعاة منهم دروعا تحميهم شر نبالهم وقذائفهم . ووقفوا خلفهن ضاحكين شامتين . وكان منظر النساء العاريات وقد حلت شعورهن وهتكت أعراضهن ، والأطفال الصغار وثقت أيديهم وأرجلهم يفتت الأكباد جميعا ، فضلا عن أكباد من هم أزواجهن وأبناؤهن . فأسقط فى أيدى الرجال وشلت سواعدهم ، وسرى الانزعاج فى النفوس حتى بلغ الملك فتلقاه كأنه صاعقة من السماء ، وصاح غاضبا :

ـــ يا للوحشية الهمجية .. إن الجبناء يحتمون بأجساد النساء والأطفال ...

وساد الصمت والوجوم حاشية الملك وقواده فلم ينبس أحدهم بكلمة . ووضح نور الصباح فرأوا على البعد سور طيبة تحميه أجساد النساء والأطفال ، فاقشعرت أبدانهم هولا ، واصفرت وجوههم غضبا ، وارتعشت أطرافهم ، وحامت أرواحهم حول الأسرى المعذبين وأهليهم البواسل الذين وقفوا فى الميدان أمامهم مكتوفى الأيدى ، يعانون العذاب ويضيقون بالعجز ، وصاح حور بصوت متهدج :

ـــ يا للبائسات ، سيقتلهن توالى الليل والنهار إذا لم تمزق قلوبهن السهام ..

ولفت الحيرة الملك ، وجعل ينظر إلى الأسرى اللاتى يحمين بأجسادهن

وأطفالهن عدوهن بعينين ذاهلتين كئيبتين . ما عسى أن يفعل ؟.. إن كفاح أشهر طوال ينذر بالضياع ، وآمال عشرة أعوام تهدد بالخيبة واليأس . فما عسى أن يصنع ؟.. هل جاء لخلاص شعبه أم للتنكيل به ؟... وهل أرسل رحمة أم عذابا ؟. وجعل يتمتم فى حزنه : « آمون ... آمون .. ربى المعبود ... إن هذا الكفاح لوجهك وللمؤمنين بك ، فألهمنى الصواب على أن أجد لنفسى مخرجا » .. وتنبه من صلاته على صلصلة عجلة قادمة من ناحية النيل ، عاين ومن حوله راكبها فإذا به قائد الأسطول أحمس إبانا ، وترجل القائد وأدى للملك التحية ثم تساءل قائلا :

— مولاى ... لماذا لا يهجم جيشنا على الرعاة المتداعين ؟.. أما كان ينبغى أن تكون جنودنا على سور طيبة الآن ؟...

فقال الملك بصوت حزين ثقيل النبرات وهو يشير إلى ناحية السور :

— انظر لترى بنفسك أيها القائد ...

ولكن أحمس إبانا لم ينظر كما كانوا يتوقعون بهدوء :

— آذنتنى عيونى بالعمل الدنىء الوحشى ، ولكن كيف نرضى أن نساق إلى أشراك أبو فيس ونحن به عالمون ؟..

هل يجوز أن نكف عن الكفاح فى سبيل طيبة ومصر إشفاقا من أن تؤذى نبالنا بعض النساء والأطفال من قومنا !..

فقال الملك أحمس بمرارة :

— أترى أن آمر بتمزيق أجساد هؤلاء النسوة البائسات وأطفالهن ؟..

فقال القائد بحماس وثقة :

— نعم يا مولاى ، إنهن قربان الكفاح ، مثلهن مثل جنودنا البواسل الذين يتساقطون فى كل حين ، بل مثلهن مثل مليكنا الشهيد سيكننرع وفقيدنا الباسل كاموس . فلماذا نشفق من ذهابهن هذا الإشفاق المعطل لكفاحنا ؟...

مولاى ... إن قلبى يحدثنى بأن أمى إبانا بين هؤلاء الأسيرات البائسات .

فإذا صدق شعورى فلا أشك فى أنها تدعو الرب الآن أن يجعل حبك طيبة فوق رحمتك بها وبأخواتها البائسات . ولست الجريح وحدى فى جنودنا . فليضع كل منا حول قلبه درعا من إيمانه وعزيمته ولنهجم ...

ونظر الملك إلى قائد أسطوله طويلا ، ثم قلب وجهه فى حاشيته وقواده ، فقال الحاجب حور بهدوء وكان متجهما ممتقعا :

ــ صدق أحمس إبانا العظيم .

وتنفس الرجال من الأعماق وصاحوا جميعا فى نفس واحد :

ــ نعم ... نعم ... صدق قائد الأسطول ولنهجم ...

فالتفت الملك إلى القواد وقال بعزم :

ــ أيها القواد ، اذهبوا إلى جنودكم وقولوا لهم إن مليكهم الذى فقد فى سبيل مصر جده وأباه ، ومن لا يتردد عن الجود بنفسه فى سبيلها ، يأمرهم بالهجوم على سور طيبة المدرع بأكبادنا والاستيلاء عليه مهما كلفنا ذلك من بذل ...

وذهب القواد سراعا ونفخ فى الأبواق ، فتقدمت صفوف الجند شاكى السلاح مكفهرى الوجوه . وصاح الضباط بأصوات مدوية : « حياة أمنمحيت أو ميتة سيكننرع » . وبدأت فى الحال أبشع معركة خاض غمارها الإنسان ، وأطلق الرعاة السهام فرد عليهم المصريون ، وانطلقت نبالهم تشق صدور نسائهم وتمزق قلوب أطفالهم وتسيل الدماء غزيرة . ولوحت النسوة برءوسهن للجنود وصحن بأصوات رفيعة مبحوحة :

ــ اضربونا ينصركم الرب وانتقموا لنا ...

فجن جنون المصريين وهجموا هجمة وحوش كواسر قست قلوبها وتعطشت إلى الدماء ، ودوى صراخهم فى جنبات الوادى كعزيف الرعد وزئير الأسود ، واندفعوا لا يبالون الموت المنصب عليهم كأنما فقدوا الشعور والإدراك وانقلبوا آلات جهنمية . وحمى وطيس القتال واشتد الطعان ، وسالت الدماء كأنها ينابيع تتفجر فى الصدور والأعناق ، وأحس كل هاجم أن فى قلبه غمزا

جنونيا لا يسكن حتى يدفن رمحه فى قلب واحد من الرعاة . وتمكن الجناح الأيمن قبل أن ينتصف النهار من أن يسكت عدة مواضع دفاعية ، فبادر رجال إلى إقامة أدراج الحصار وصعدوا عليها بقلوب لا تخشى الموت ، فنقلوا القتال من الميدان إلى أعلى السور الحصين ، وقفز بعضهم إلى سطح السور الداخلى واشتبكوا مع العدو بالرماح والسيوف وتوالت الهجمات بعنف وبسالة ، وكان الملك يرقب القتال بأعين يقظى ، ويرسل النجدات إلى المواقع التى يشتد عليها العدو . وقد شاهد جنوده تصعد إلى السور فى مكان الوسط ومكانين فى الميسرة وقد أخذت الشمس تتوسط فى كبد السماء ، فقال :

ـــ إن جنودى يبذلون جهد الجبابرة ، ولكنى أخشى أن يلحقنا الظلام قبل أن نستولى على السور جميعه ، فنستأنف غدا من جديد ..

وأصدر الملك أوامره إلى فيالق جديدة بالهجوم ، فاشتد ضغط رجاله للمدافعين عن السور المنيع ، وصنعوا لأنفسهم طرائق جديدة إلى أعلاه . والظاهر أن اليأس أخذ يستولى على الرعاة بعد أن أنزل المصريون بهم خسائر فادحة ، وبعد أن رأوا سيلهم لا ينقطع وهم يصعدون أدراج الحصار كجماعات النمل الزاحفة على سيقان الأشجار ، فانهارت مواضع دفاعية بسرعة لم يكن يتوقعها أحد ، واحتل جنود أحمس نقطا كاملة من السور ، وبدا سقوط السور أمرا محققا لا يحتاج إلا لوقت . وكان أحمس لا ينفك عن إرسال الإمدادات القوية ، وجاءه فى المعسكر ضابط من قوة الاستطلاع المتوغلة فى الحقول المحيطة بطيبة يطفر البشر من وجهه ، فانحنى للملك وقال :

ـــ أخبار جليلة يا مولاى .. إن أبو فيس وجيشه يغادرون أبواب طيبة الشمالية كالفارين .

فعجب الملك وسأل الضابط قائلا :

ـــ أواثق أنت مما تقول ؟

فقال الرجل بثقة وإيمان :

ـــ رأيت بعينى ركب ملك الرعاة وحرسه يتبعهم جموع الجيش المدججة بالسلاح .

فقال أحمس إبانا :

ـــ لقد أدرك أبو فيس عبث الدفاع عن سور طيبة بعد ما رأى من هجمات جنودنا وجيشه فى المدينة لا يحسن الدفاع عن نفسه ، ففر هاربا .

فقال حور :

ـــ والآن أدرك على غير شك أن الاحتماء بنساء المحاربين وأطفالهم شر وبيل .

وما كاد حور يتم كلامه حتى جاء رسول جديد من الأسطول فحيا الملك وقال :

ـــ مولاى .. لقد شبت نيران الثورة فى طيبة ، وشاهدنا من الأسطول عراكا عنيفا يقع بين الفلاحين والنوبيين من ناحية ، وأصحاب القصور وحرس الشاطئ من الناحية الأخرى .

فبدا القلق على أحمس إبانا وسأل الظابط :

ـــ وهل قام الأسطول بواجبه ؟

ـــ نعم يا سيدى ، لقد دنت سفننا من الشاطئ وأطلقت السهام بكثرة على الحراس حتى لا تمكنهم من التفرغ لقتال الثائرين ..

فلاح الارتياح فى وجه القائد ، واستأذن الملك فى العودة إلى أسطوله ليهجم على الشاطئ ، فأذن له الملك وقال لحور مغتبطا :

ـــ لن يفلت أصحاب الضياع هذه المرة بأموالهم .

فقال حور بصوت متهدج من الفرح :

ـــ نعم يا مولاى ، وعما قريب تفتح لك طيبة المجيدة أبوابها ..

ـــ ولكن أبو فيس فر بجيشه .

ـــ لن نكف عن الكفاح حتى تسقط هواريس ويجلو عن مصر آخر رجل من الرعاة .

وعاد الملك إلى مراقبة القتال فرأى جنوده تقاتل على أدراج الحصار وفى أعلى السور وتضغط على الرعاة المتقهقرين أمامها . وصعدت فيالق الجند من حملة الرماح والسيوف بكثرة وعلت السور من كل جانب وأحاطت بالرعاة وأعملت فيهم القتل والذبح . وما لبث أن رأى جنوده تمزق علم الهكسوس وترفع علم طيبة الخفاق ، ثم شاهد أبواب طيبة العظيمة تنفتح على مصراعيها وجنوده تندفع إلى داخلها هاتفة باسمه ، فتمتم قائلا بصوت خافت : « طيبة .. يا منبع دمى .. ومنبت جسدى .. ومرتع روحى .. افتحى ذراعيك وضمى إلى صدرك الحنون أبناءك البررة البواسل » . ثم حنى رأسه ليخفى دمعة منتزعة من ضلوعه ، وكان حور إلى يمينه يصلى ويجفف عينيه وقد تندى خداه النحيلان ..

١٣

ومضت ساعات أخرى وأخذت الشمس تميل نحو المغيب ، وأقبل الملك والقائدان محب وديب ، ثم تبعهما على الأثر أحمس إبانا فانحنوا لأحمس فى إجلال وهنأوه بالنصر ، فقال أحمس :

ـــ ينبغى قبل أن يهنىء بعضنا بعضا أن نؤدى الواجب نحو جثث الأبطال والجنود والنساء والأطفال الذين استسشهدوا فى سبيل طيبة فائتونى بها جميعا ..

وكانت الجثث ملقاة فى جنبات الميدان وعلى سطح السور وخلف الأبواب ، وقد عفرتها الأتربة وخضبتها الدماء ، وسقطت من رءوسها الخوذ الحديدية ، وشملها سكون الموت الرهيب . فرفعها الجنود باحترام وساروا بها إلى جانب من المعسكر وأرقدوها جنبا إلى جنب ، وأتوا بالنساء والأطفال اللاتى مزقتهن سهام جنودهم ووضعوهن فى مكان منعزل . وتوجه الملك إلى مرقد الشهداء يتبعه الحاجب حور والقواد الثلاثة والحاشية . ولما دنا من الجثث المتراصة انحنى فى إجلال صامت حزين ففعل رجاله مثله . ثم سار فى خطى بطيئة مارا بها كأنما يستعرضها فى حفل رسمى مشهود ، ثم عدل إلى حيث يرقد النسوة والأطفال وقد سجوا أجسادهن العارية بأغطية من الكتان ، فأظلت وجه الملك سحابة حزن وأظلمت عيناه ، وتنبه من كمده على صوت القائد أحمس إبانا وهو يصيح بالرغم منه بصوت مرتعش النبرات قائلا :

ـــ أماه ..

فالتفت الملك وراءه فرأى قائده يجثو متألما متفجعا أمام إحدى الجثث ، فألقى عليها الملك نظرة فاحصة فعرف السيدة إبانا وقد ارتسم على محياها شبح الفناء المروع . فوقف الملك إلى جانب قائده الجاثى خاشعا حزين الفؤاد ، وكان يكن

للسيدة احتراما عظيما ويعرف لها وطنيتها وشجاعتها وفضلها فى تربية أحمس خير قواده بلا نزاع . ورفع الملك رأسه إلى السماء وقال بصوت متهدج :

— أيها الرب المعبود آمون ، خالق الكون ، وواهب الحياة ومنظم كل شىء بسنته العالية ، هذه ودائعك ترد إليك تبعا لمشيئتك ، وقد كانوا فى عالمنا يعيشون لغيرهم وكذلك ماتوا . إنهم قطع عزيزة تناثرت من قلبى ، فتغمدهم برحمتك ، وعوضهم عما فقدوا من حياة فانية حياة سعيدة أبدية باقية .

والتفت الملك إلى الحاجب حور وقال :

— أيها الحاجب ، أريد أن تحفظ هذه الجثث جميعا وتودع مقابر طيبة الغربية ، ولعمرى إن أحق الناس بأرض طيبة من استشهدوا فى سبيلها ..

وعاد فى تلك الأثناء الرسول الذى كان أرسله الملك إلى أسرته فى دابور وقدم إلى مولاه رسالة ، فعجب الملك وسأله :

— هل عادت أسرتى إلى هابو ؟

فقال الرجل .

— كلا يا مولاى .

فبسط أحمس الرسالة وكانت موجهة من توتيشيرى وقرأ :

« مولاى المؤيد بروح آمون وبركته ، أسأل الرب أن يبلغك كتابى هذا وقد فتحت طيبة لك أبوابها فدخلتها على رأس جيش الخلاص لتضمد جراحها ، وتسعد روحى سيكننرع وكاموس . أما نحن فلن نبرح دابور ، وقد فكرت فى الأمر طويلا فوجدت أن خير وسيلة نشارك بها شعبنا المعذب وآلامه ، أن نبقى فى منفانا حيث نحن الآن نعانى آلام الوحشة والغربة ، حتى نحطم أغلاله وترفع عنه النقمة ، فندخل مصر آمنين ونقاسمه السعادة والسلام . فسر فى طريقك مؤيدا بالعناية الربانية تحرر البلدان وتقهر الحصون . وطهر أرض مصر من عدوها ولا تجعل له فى أقطارها موضع قدم ، ثم ادعنا نأت آمنين » .

ورفع أحمس رأسه وطوى الرسالة وهو يقول بتبرم :

ـــ تقول توتيشيرى إنها لا تدخل مصر حتى نجلى عنها آخر رجل من الرعاة ..

فقال حور :

ـــ إن أمنا المقدسة تريد ألا نكف عن القتال حتى نحرر مصر . .

فهز الملك رأسه بالموافقة ، فتساءل حور :

ـــ ألا يدخل مولاى طيبة هذا المساء ؟

فقال أحمس :

ـــ كلا يا حور ، سيدخلها جيشى وحده ، أما أنا فسأدخلها مع أسرتى بعد طرد الرعاة . ندخلها جميعا كما فارقناها جميعا منذ عشرة أعوام مضت .

ـــ سيمنى أهلها بخيبة أمل !..

ـــ قل لمن يسأل عنى إنى أتعقب الرعاة لأقذف بهم خارج حدودنا المقدسة ، وليتبعنى من يحبنى ..

١٤

ورجع الملك إلى الخيمة الفرعونية ، وكان فى نيته أن يصدر أمره إلى قواده بأن يدخلوا المدينة فى نظامهم التقليدى على أنغام الموسيقى الحربية ، ولكن جاء أحد ضباط الجيش وقال :

ـــ مولاى كلفنى قوم من قادة الثورة أن أستأذن لهم فى المثول بين يديك ، ليقدموا لذاتك العلية هدايا مما غنموا فى ثورتهم .

فابتسم أحمس وسأل الضابط :

ـــ أقادم أنت من المدينة ؟

ـــ نعم يا مولاى .

ـــ هل فتحت أبواب معبد آمون ؟

ـــ فتحها الثوار يا مولاى .

ـــ ولماذا لم يأت الكاهن الأكبر لتحيتنا ؟

ـــ يقولون يا مولاى إنه أقسم ألا يبرح خلوته وفى مصر رجل من الرعاة إلا عبدا أو أسيرا .

فابتسم الملك وقال :

ـــ حسنا .. ادع قومى ..

وبرح الرجل الخيمة ومضى إلى المدينة ، وعاد يتبعه قوم كثيرون يسيرون جماعات جماعات ، تسوق كل جماعة هديتها . واستأذن للجماعة الأولى فدخل نفر من المصريين عراة إلا من أزر على أوساطهم ، تنطق وجوههم بالبؤس والفقر ، ويدفعون بين أيديهم رجالا من الرعاة تعرت رءوسهم وتلبدت لحاهم وتعفرت جباههم . ثم سجدو للملك حتى مست الأرض جباههم ، ولما رفعوا

وجوههم إليه رأى أعينهم فائضة بالدمع من الفرح والسرور ، وقال كبير القوم :
ـــ مولانا أحمس بن كاموس بن سيكننرع بن فرعون مصر ومحررها وحاميها ، والغصن السامق من تلك الدوحة الباسقة التى استشهدت أصولها فى سبيل طيبة المجيدة ، ومن كان مجيئه رحمة لنا وتكفيرا عن إساءة الأيام إلينا ..

فقال أحمس مبتسما :
ـــ أهلا بقومى الأعزة ، من آمالهم كآمالى ، وآلامهم من منبع آلامى ، ولون بشرتهم كلون بشرتى ..

فأضاءت وجوه القوم بنور بهيج ، ووجه كبيرهم الخطاب إلى الرعاة قائلا :
ـــ اسجدوا لفرعون يا أحقر عبيده .

فسجد الرجال دون أن ينبس أحدهم بكلمة ، فقال الرجل :
ـــ مولاى .. هؤلاء الرعاة من النفر الذين ملكوا الضياع بغير الحق ، كأنما توارثوها عن آبائهم خلفا عن خلف ، واستذلوا المصريين وساموهم الخسف واستأدوهم أشق الأعمال بأزهد الأجور ، جعلوهم فريسة للفقر والجوع والمرض والجهل . ثم كانوا إذا دعوهم قالوا باحتقار فلاحون ، ومنوا عليهم أن تركوهم أحياء.. هؤلاء طغاة الأمس وأسرى اليوم سقناهم إلى ذاتكم العلية عبيدا من أذل عبيدك ...

فابتسم الملك وقال :
ـــ أشكر لكم يا قومى هديتكم ، وأهنئكم على استرداد سيادتكم وحريتكم ..

وسجد الرجال لمليكهم مرة أخرى وغادروا الخيمة ، وساق الجنود الرعاة إلى معتقل الأسرى . ثم دخلت الجماعة الثانية يسير بين يديها رجل ضخم الهيكل ناصع البياض ممزق الثياب ، تركت السياط آثارا واضحة بظهرة وذراعيه ، فسقط إعياء عند قدمى الملك دون أن يحفل به معذبوه ، وسجدوا لمليكهم طويلا وقال رجل منهم :

ـــ مولانا فرعون مصر ابن الرب آمون ، هذا الشرير المؤزر بلباس الذل كان كبير شرطة طيبة ، وكان يلهب ظهورنا بسوطه القاسي لأتفه الأسباب ، فمكننا الرب منه فألهبنا ظهره بسياطنا حتى مزق جلده ، وأتينا به إلى معسكر الملك ليضم إلى عبيده ..

فأمر الملك بالرجل فأخذه الجند ، وشكر لقومه صنيعهم .

وأذن الملك للجماعة الثالثة فأقبلت عليه تسوق رجلا ما إن وقع عليه بصر الملك حتى عرفه ، فهو سنموت قاضى طيبة وشقيق خنزر ، فألقى عليه الملك نظرة هادئة ، ونظر سنموت إليه نظرة ذاهلة من عينين قلقتين دهشتين لا تكادان تصدقان ، وحيا الرجال الملك وقال لسانهم :

ـــ إليك يا فرعون نسوق من كان بالأمس قاضى طيبة ، كان يقسم بالعدالة ويقضى بالظلم فى كل حين ، فأورد مشرب الظلم ليذوق ما كان يسقى الأبرياء .

فقال أحمس موجها خطابه للقاضى :

ـــ يا سنموت ، لقد كنت حياتك تحكم على المصريين ، فرض نفسك هذه المرة أن يحكموا عليك .

ودفع به إلى جنوده ، وشكر رجاله المخلصين .

وجاءت الجماعة الأخيرة وكانت شديدة الحماسة تفور بالغضب ، وتحيط بشخص لفته فى ستار من الكتان من ذؤابته إلى نعليه ، فحيوا الملك هاتفين : وقال قائلهم :

ـــ يا فرعون مصر وحامى المصريين والمنتقم لهم ، نحن بعض من أخذ الرعاة نساءهم وأطفالهم وأدرعوا بهن فى موقعة طيبة . وأراد الرب أن ينتقم لنا من أبو فيس الظالم فهجمنا على حريمه فى أثناء انسحابه ، وخطفنا دون علمه من هى أعز عليه من نفسه ، وجئنا بها إليك لتنتقم لنسائنا منها ..

ودنا الرجل من الشخص المتخفى فى دثار من الكتان وأزاح عنه الستار ،

فبدت امرأة عارية إلا من غلالة على وسطها ، بيضاء صافية كالنور ، يهفو حول هامتها شعر كأسلاك الذهب ، ويلوح فى وجهها الفاتن الحنق والغضب والكبرياء ، فبهت أحمس ، ونظر إليها ونظرت إليه فبدا الانزعاج على وجهه ، وبدت على وجهها دهشة محت ما كان يلوح فيها من الغضب والحنق والكبرياء وتمتم بصوت غير مسموع وهو لا يفيق : « الأميرة أمنريدس .. » .

وخلع حور عباءته ودنا من المرأة وألقاها عليها ، وصاح أحمس برجاله :

— لماذا تمثلون بهذه المرأة ؟..

فقال زعيم القوم :

— إنها ابنة كبير السفاكين أبو فيس .

وأدرك أحمس حرج موقفه بين القوم الغاضبين المتعطشين للانتقام ، فقال :

— لا تمكنوا للغضب من أنفسكم أن يفسد عليكم آدابكم المقدسة ، فالفاضل حقا من يستمسك بفضيلته حين ثورة الوجدان ونزوة الغضب ، وأنتم قوم يحترمون النساء ولا يقتلون الأسرى .

فقال رجل من القوم موتور :

— يا حامى المصريين ، إن شفاء صدورنا فى إرسال رأس هذه المرأة إلى أبو فيس .

فقال أحمس :

— هل تحثون مليككم على أن يكون كأبو فيس سفك دماء وقتل نساء ؟.. كلوا الأمر لى وانصرفوا بسلام .

فسجد القوم لفرعون وانصرفوا . ونادى الملك أحد ضباط حرسه وأمره بصوت خافت أن يمضى بالأميرة إلى سفينته الفرعونية ، وأن يحوطها بالعناية .

وكان الملك يكابد ثورة فى القلب والنفس فلم يحتمل القعود ، فأصدر أمره إلى قواده بدخول طيبة على رأس الجيش دخول الظفر والنصر . ولما تحول إلى حور وجده يرمقه بعينين قلقتين حائرتين مشفقتين ...

١٥

وخلا الميدان ، فاتجه الملك نحو النيل يتبعه حرسه ، وكان يحث سائقى عجلته على السرعة ويغرق فى الأحلام والأفكار ، أى صدمة تعرض لها قلبه اليوم !.. أى مفاجأة كابدها وعاناها ؟.. ولم يكن يدور بخلده أنه سيلقى أمنريدس مرة أخرى فمنى باليأس منها ، وتمثلت له كحلم أضاء ليله ساعة ثم ابتلعته الظلماء . ولكنه رآها مرة أخرى على غير انتظار أو حسبان ، ألقت بها المقادير إلى رحمته فغدت بغتة فى ملكه الخاص ، لشد ما اضطرب صدره وخفق قلبه ، لشد ما تيقظت فى نفسه عواطف حارة أحيت من جديد ذكرياته الحلوة : فانغمر فى تيارها الحنون ناسيا كل شىء .

ولكن هى ، هل عرفته يا ترى ؟.. وإذا لم تكن عرفته ، فهل ما تزال تذكر التاجر السعيد إسفينيس ؟.. الذى أنقذت حياته من الموت المحقق ، ومن قالت له والقلب خافق والدموع ذوراف « إلى اللقاء » ؟ ومن حنت إليه فى منفاه فبعثت إليه برسالة كمن الحب فى سطورها كمون النار فى الحجر ؟.. أما يزال قلبها يخفق خفقته الأولى فى مقصورة السفينة الفرعونية ؟.. رباه .. ما له يحس أنه مقبل على سعادة لا حد لها ؟.. هل يصدقه قلبه أم يخدعه ؟ وتمثل للملك منظرها البائس حين دفع بها الثائرون إليه ، فانتفض جسمه القوى وسرت فيه قشعريرة ، وتساءل حزينا والقوم الغاضبون من حولها يصفقون عليها ويسبونها ويلعنون أباها ؟.. وإنه ليذكر ما كان يلوح فى وجهها من الغضب والحنق والكبرياء ، فهل يسكت غضبها إذا علمت أنها أسيرة إسفينيس ، وأحس قلقا لم يساوره فى أحرج المواقف ، وكان ركبه بلغ الشاطئ فهبط إلى السفينة الفرعونية ، ودعا إليه الضابط الذى عهد إليه بالأميرة وسأله :

ـــ كيف حال الأميرة ؟

ـــ وضعت يا مولاى فى مخدع خاص وجىء لها بثياب جديدة وقدم لها الطعام ، ولكنها رفضت أن تمسه ، وعاملت الجنود معاملة تنطوى على الاحتقار ودعتهم بالعبيد . ولكنها عوملت أحسن معاملة كأمر جلالة الملك ..

فبدا على الملك عدم الارتياح ، وسار بخطوات هادئة إلى المخدع ، ففتح الباب أحد الحراس ورده بعد دخول الملك . وكان المخدع صغيرا أنيقا يضيئه مصباح كبير يتدلى من سقفه ، وإلى يمين المدخل جلست الأميرة على أريكة وثيرة فى ثوب بسيط من الكتان وقد مشطت شعرها الذى بعثره الثائرون وأرسلته ضفيرة كبيرة . فنظر إليها مبتسما فرآها ينظر إليه فى دهشة وغرابة وهى لا تصدق عينيها ، وبدت له كأنما هى فى حيرة وشك ، فحياها قائلا :

ـــ طاب مساؤك أيتها الأميرة .

فلم تجبه ، ولكنها ازدادت بسماع صوته حيرة وشكا ، وكان الشاب يطيل النظر إليها فى شغف وافتتان ، فسألها :

ـــ هل يعوزك شىء ؟

فتفرست فى وجهه ، ثم صعدت بصرها إلى خوذته وخفضته إلى درعه وسألته :

ـــ من أنت ؟

ـــ أدعى أحمس فرعون مصر ؟

فلاح الإنكار فى نظرة عينيها . وأراد أن يزيدها حيرة فخلع خوذته ووضعها على خوان وهو يقول لنفسه إنها لا تستطيع أن تصدق عينيها . ورآها تنظر إلى شعره المجعد بغرابة ، فقال كالداهش :

ـــ مالك تنظرين إلى هكذا كأنك تعرفين لى شبيها ؟

فلم تدر ما تقول و لم تحر جوابا ، واشتاق إلى سماع صوتها والتماس حنانها فقال

لها :

— هبى أننى أحبتك أنى أدعى إسفينيس ، فهل تردين على ؟

وما كادت تسمع اسم إسفينيس حتى قامت واقفة وصاحت به :

— إذن أنت إسفينيس !

فدنا منها خطوة وحدجها بنظرة حنان ، وأمسك بمعصمها وهو يقول :

— أنا إسفينيس أيتها الأميرة أمنريدس .

فجذبت معصمها بشدة وقالت :

— إنى لا أفهم شيئا .

فابتسم أحمس وقال برقة :

— ماذا تعنى الأسماء ؟.. كنت بالأمس أدعى إسفينيس وأدعى اليوم أحمس ، ولكننى شخص واحد وقلب واحد ...

— يا للغرابة ... كيف تقول أنت شخص واحد ؟.. كنت تاجرا تبيع الحلى والأقزام ، وأنت اليوم تقاتل وترتدى ثياب الملوك .

— ولم لا ؟.. كنت بالأمس أجوس خلال طيبة متخفيا ، وأنا اليوم أقود قومى لتحرير بلدى واسترداد عرشى المسلوب ...

فنظرت إليه نظرة طويلة تحير فى إدراك كنهها . وحاول أن يدنو منها مرة أخرى ، ولكنها صدته بإشارة من يدها وجمدت قسمات وجهها وتبدت القساوة والكبرياء فى عينيها ، فأحس خيبة أمل وبرودة تشتمل آماله وتقتل بلابل الرجاء المغردة فى صدره ، وسمعها تقول بشدة :

— ابتعد عنى .

فقال لها برجاء :

— ألا تذكرين ...

ولكنها قاطعته قبل أن يتم كلامه قائلة وقد استولى عليها الغضب الذى اشتهر به قومها :

— اذكر وسأذكر دائما أنك جاسوس وضيع ...

فأحس صدمة مروعة جعلته يقطب ، وقال بغضب :

— أيتها الأميرة ... ألا تدركين أنك تخاطبين ملكا ؟

— أى ملك يا هذا ؟

فاستولى عليه الغضب وقال بشدة :

— فرعون مصر .

فقالت بتهكم :

— وأبى أيكون أحد ولاتك ؟!

فاشتد الغضب بالملك وغلب كبرياؤه عواطفه جميعا ، فقال :

— ليس أبوك أهلا لأن يكون واليا من ولاتى ، ولكنه مغتصب على عرش بلادى ، وقد هزمته شر هزيمة وجعلته يفر من أبواب طيبة الشمالية تاركا ابنته تقع أسيرة بين أيدى القوم الذى ظلمهم ، وسوف أتبعه بجيوشى حتى يلوذ بالصحارى التى قذفته إلى وادينا ... ألا تدركين هذا ؟... أما أنا فملك هذا الوادى الشرعى لأنى من سلالة فراعنة طيبة المجيدة ، ولأنى قائد مظفر أسترد بلادى عنوة واقتدارا .

فقالت ببرود وسخرية :

— طبت من ملك يبرع قومه فى مقاتلة النساء ...

— يا للعجب ألا تعلمين أنك مدينة لقومى هؤلاء بحياتك ؟.. لقد كنت تحت رحمتهم ولو أنهم قتلوك ما خالفوا السنة التى استنها أبوك فى تعريض النساء والأطفال لنبال المقاتلين ...

— وهل تضعنى على قدم المساواة مع أولئك النسوة ؟

— ولم لا ؟...

— معذرة أيها الملك .. فإنه كبر علىّ أن أتصور أنى مثل إحدى نسائكم أو أن أحدا من قومى مثل أحد من قومكم إلا أن يتساوى السادة والعبيد ... ألا تعلم

أن جيشنا غادر طيبة لا يحس ذل المغلوب ، وكانوا يقولون باستهانة ثأر عبيدنا وسنكر عليهم ...

وجن جنون الملك وغلبه الغضب على أمره ، فصاح بها :

— من العبيد ومن السادة ؟.. إنك لا تدركين شيئا أيتها الفتاة المغرورة ؛ لأنك ولدت بين أحضان هذا الوادى الذى يوحى بالمجد والعزة ، ولو تأخر مولدك قرنا من الزمان لولدت فى أقسى صحارى الشمال الباردة ، ولما سمعت من يقول لك أميرة أو يدعو أباك ملكا . من تلك الصحارى جاء قومك فاغتصبوا سيادة وادينا وجعلوا أعزته أذلة ، ثم قالوا جهلا وغرورا إنهم أمراء وإننا فلاحون عبيد ، وإنهم بيض وإننا سمر ، واليوم يأخذ العدل مجراه فيرد إلى السيد سيادته ، وينقلب العبد إلى عبوديته ، ويصير البياض سمة الضاربين فى الصحارى الباردة ، والسمرة شعار سادة مصر المطهرين بنور الشمس .

هذا الحق الذى لا مراء فيه ...

فاحتدم الغيظ فى قلب الأميرة واندفع الدم إلى وجهها ، وقالت باحتقار :

— أنا أعلم أن أجدادى هبطوا مصر من الصحراء الشمالية ، ولكن كيف غاب عنك أنهم كانوا سادة الصحراء قبل أن يصيروا بقوتهم سادة هـذا الوادى ؟.. كانوا وما يزالون سادة ذوى كبرياء ونخوة ، لا يعرفون سوى السيف سبيلا إلى هدفهم ، لا يتخفون فى ثياب التجار كى يطعنوا اليوم من سجدوا له بالأمس القريب ...

فحدجها بنظرة قاسية متفحصة ، فرآها ذات كبرياء وخيلاء وقسوة لا تلين ولا تخاف ، وتتمثل فيها صفات قومها الفظة المتعالية ، فاشتد به الحنق ، وأحس رغبة حارة إلى إخضاعها وإذلالها ولا سيما بعد أن أذلت عواطفه بكبريائها وصلفها ، فقال بصوت هادىء متعال :

— لا أرى سببا يدعونى إلى الاستمرار فى مجادلتك ، ولا يجوز أن أنسى أنى ملك وأنك أسيرة .

ـــ أسيرة كما تشاء ، ولكننى لن أذل أبدا .

ـــ بل إنك تحتمين برحمتى فتؤاتيك هذه الشجاعة .

ـــ لم تفارقنى شجاعتى قط ... سل رجالك الذين خطفونى غدرا ينبئوك عن شجاعتى واحتقارى لهم فى أحرج الأوقات وأشدها خطرا على .

فهز كتفيه العريضتين استهانة ، وتحول إلى الخوان فأخذ خوذته ووضعها على رأسه ، وقبل أن يخطو خطوة أخرى سمعها تقول :

ـــ لقد قلت حقا إنى أسيرة ، وليست سفينتك المكان الذى يصلح للأسرى ، فألحقنى بأسرى قومى ...

فنظر إليها مغيظا محنقا وقال يغيظها ويخيفها :

ـــ ليس الأمر كما تتصورين ، فالعادة أن الأسرى الرجال يسخرون عبيدا ، أما النساء فيلحقن بحريم الملك الظافر ...

فقالت وقد اتسعت حدقتاها :

ـــ ولكنى أميرة ...

ـــ كنت أميرة ... ولست الآن سوى أسيرة .

ـــ كلما ذكرت أنى أنقذت حياتك يوما يجن جنونى ...

فقال بهدوء :

ـــ فلتحى هذه الذكرى ... فبفضلها أنقذت حياتك من أيدى الثائرين الذين يتمنون أن يرسلوا رأسك إلى أبو فيس .

وأدار لها ظهره وغادر المخدع غاضبا حانقا ، وحياه الحراس فأمرهم بالإبحار إلى شمال طيبة ، وسار إلى مقدمة السفينة بخطى ثقيلة متباطئة مالئا صدره بهواء الليل الرطيب ، وما لبثت السفينة أن انحدرت مع تيار النيل المتدفق منذ الأزل تشق الظلماء إلى شمال طيبة . فأرسل الملك بناظريه إلى المدينة فارا إليها من هموم نفسه ، وكان النور يشع من سفن الأسطول الراسية إلى شاطىء المدينة ، أما القصور الشاهقة فكانت غارقة فى الظلمة بعد أن هجرها أصحابها الفارون ،

ولاحت على البعد من بين القصور والحدائق أضواء المشاعل التى يحملها الساهرون الفرحون ، وحمل النسيم صدى أصواتهم المتصاعدة بالهتاف والأناشيد ، فجرت على فمه العريض ابتسامة ، وأدرك أن طيبة تستقبل جيش الخلاص كما تعودت أن تستقبل جيوشها المظفرة وأعيادها الخالدة ...

ومضت السفينة تدنو من القصر الفرعونى حتى حاذته فى مسيرها ، ورأى الملك القصر مضاء يشع النور من نوافذه وحديقته ، فعلم أن حور يشرف على تهيئته وتطهيره ، وأنه عاد حقا إلى أداء وظيفته الأولى فى قصر سيكننرع وشاهد أحمس ميناء حديقة القصر فعاودته الذكرى الأليمة ، ليلة حملت السفينة الفرعونية أسرته إلى أقاصى الجنوب والدماء تتفجر من ورائها ...

وعاود الملك السير جيئة وذهابا على مقدم السفينة ، واتجه بصره مرات إلى مخدع الأميرة المغلق ثم تساءل متبرما ساخطا : لماذا جاءونى بها ؟... لماذا جاءونى بها ؟...

١٦

وفى صباح اليوم الثانى بكر حور والقواد والمستشارون إلى زيارة الملك فى سفينته الراسية شمال طيبة ، فاستقبلهم الملك فى المقصورة وسجدوا بين يديه وقال حور بصوته الهادئ :

ــ أسعد الرب صباحك أيها الملك المظفر ، لقد خلفنا وراءنا أبواب طيبة يخفق قلبها بالأفراح ، ويهزها الشوق إلى اجتلاء نور جبين مخلصها ومحررها .

فقال أحمس :

ــ لتفرح طيبة ، أما اللقاء فحين يقضى الرب بالنصر .

فقال حور :

ــ وذاع بين الأهلين أن مليكهم فى طريق الشمال وأنه يرحب بمن يلحق به من القادرين ، ولا تسل يا مولاى عن الحماسة التى فاضت بقلوب الشباب ، ولا عن تهافتهم على الضباط ليضموهم إلى جيش أحمس المعبود .

فابتسم الملك وسأل رجاله :

ــ وهل زرتم معبد آمون ؟

فقال حور :

ــ نعم يا مولاى زرناه جميعا ، وهرع إليه الجنود يتمسحون بأركانه ويمرغون وجوههم فى ترابه ويعانقون كهنته . وقد فاض المذبح بالقربان وأنشد الكهنة نشيد الرب المعبود وترددت صلاتهم فى جنبات المعبد ، فصهر الحنين القلوب وانتظم الطيبيون جميعا فى صلاة جامعة ، أما نوفر آمون فلم يبرح عزلته ...

فابتسم الملك ، ولاحت منه التفاتة فرأى القائد أحمس إبانا صامتا مكتئبا فأشار إليه أن يقترب ، فاقترب القائد من مولاه ، ووضع الملك يده على منكبه

وقال له :

— تحمل نصيبك من الأذى يا أحمس ، واذكر أن شعار أسرتك الشجاعة والبذل .

فحنى القائد رأسه شاكرا وقد دخلته رقة من عطف الملك عليه ، ونظر أحمس إلى رجاله وقال :

— أشيروا على فيمن أختاره حاكما لطيبة، وأعهد إليه بمهمة تنظيمها الشاقة...

فقال القائد محب :

— إن خير من يصلح لهذا المنصب الخطير الرجل المخلص الحكيم حور ...

ولكن حور بادر يقول :

— إن واجبى فى السهر على خدمة مولاى لا فى التخلف عنه .

فقال أحمس :

— صدقت .. وأنا لا أستغنى عنك .

فقال حور :

— يوجد رجل فاضل عظيم الدراية والخبرة معروف بالحكمة وأصالة الرأى هو توتى آمون وكيل معبد آمون ، فإذا شاء مولاى فليعهد إليه بشئون طيبة .

فقال أحمس :

— قد وليناه طيبة .

ثم دعا الملك رجاله إلى تناول الفطور على مائدته .

١٧

ومضت ساعات النهار والجيش يضمد جراحه ويأخذ قسطه من الراحة واللهو والغناء والشراب ، واستبق الجنود الطيبيون إلى منازل أهلهم فتعانقت القلوب وامتزجت النفوس ، وضارت طيبة من المودة والعطف كأنها قلب الدنيا الخافق . أما أحمس فلم يبرح سفينته ، ودعا الضابط المكلف بحراسة الأميرة وسأله عنها ؟ فقال له الرجل : إنها باتت ليلتها دون أن تذوق طعاما . وكان يفكر فى وضعها فى سفينة أخرى ويعهد بها إلى حراس أمناء ، ولكنه لم ينته من تفكيره إلى عزم قاطع ، ولم يشك فى أن حور غير راض عن وجودها فى سفينته ، وأيقن أن الحاجب يكبر عليه أن تنال ابنة أبو فيس هذه الحظوة لديه ، وكان يعرفه حق المعرفة ، ويعلم أنه لا يشغل قلبه سوى كفاح طيبة . أما هو فكانت عواطفه متعطشة فائرة ، وكان يعيا عن كف نفسه عن الحوم حول المخدع وصاحبته ، أو فى صرفها عن الولوع بها على ما به من سخط وغضب ، فإن الغضب لا يقتل الحب ولكنه يحجبه حينا من الزمن كما يكدر الضباب وجه المرآة المصقولة إلى حين ، ثم ينقشع عنها فيعود إليها الصفاء . ولذلك لم يسلم لليأس ، وجعل يقول لنفسه متعزيا : لعل ما بها من آثار الكبرياء المغلوب على أمره والصلف الواقع فى الأسر ، ولعل غضبها أن يسكت فتجد أن ما تظهر من البغض دون ما تبطن من الحب فتلين وتذعن وتؤدى للحب حقه كما أدت للغضب حقوقه ، أليست هى صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته ومنحته العطف والود ؟... أليست هى التى أقلقها غيابه فكتبت إليه رسالة عذل تضمر أنين الحب المكتوم ؟... فكيف تذوى عواطفها هذه من أجل ثورة كبرياء وغضب ؟.. وانتظر الأصيل ثم هز كتفيه العريضين استهانة وذهب إلى المخدع ، وحياه الحرس وأوسعوا له فدخل

كبير الرجاء . ورآها تجلس فى جمود وهدوء تلوح فى عينيها الزرقاوين الكآبة والملل ! فآلمته كآبتها وقال لنفسه : كانت طيبة على رحابتها تضيق بها ، فكيف وقد حبست فى هذا المخدع الصغير ؟.. ووقف أمامها جامدا فاستوت فى جلستها ورفعت إليه عينين باردتين ، فقال لها برقة :

— كيف كانت ليلتك ؟

فلم تجب وخفضت رأسها تنظر إلى الأرض ، فألقى على رأسها ومنكبها وصدرها نظرة مشوقة ، وأعاد سؤاله قائلا وقد ظن أن أمله قريب :

— كيف كانت ليلتك ؟

وبدا عليها كأنها لا تريد أن تخرج عن الصمت ، ولكنها رفعت رأسها بحدة وقالت :

— كانت أسوأ ليالى ...

فأغضى عن لهجتها وسألها :

— لماذا ؟.. هل يعوزك شىء ؟...

فقالت دون أن تغير لهجتها :

— يعوزنى كل شىء .

— كيف ؟.. لقد أمرت الضابط المكلف بحراستك ..

فقاطعته بتبرم قائلة :

— لا تتعب نفسك فى ذكر هذا .. فإنه يعوزنى كل شىء أحبه ، يعوزنى أبى وقومى وحريتى . ولكن لدى كل ما أكرهه ... هذه الثياب وهذا الطعام وهذا المخدع وهؤلاء الحراس ...

فمنى بالخيبة مرة ثانية وأحس انهيار آماله وذهاب رجائه ، فحمدت أساريره وقال لها :

— أتريدين أن أفك أسرك وأرسلك إلى أبيك ؟

فهزت رأسها بعنف وقالت بشدة :

ـــ كلا ...

فنظر إليها متعجبا متحيرا ، ولكنها استدركت بمثل هذه اللهجة قائلة :

ـــ كيلا يقال إن ابنة أبو فيس ضرعت إلى عدو أبيها العظيم أو أنها استحقت الرثاء يوما ..

فهاجه الغضب وحنق على صلفها وكبريائها وقال لها :

ـــ إنك لا تتحرجين فى إظهار صلفك اطمئنانا منك إلى رحمتى ...

ـــ كذبت ...

فامتقع وجهه وحدجها بنظرة قاسية وقال :

ـــ يا لك من سادرة لا تعرفين ما الحزن وما الألم ، هل تعلمين ما تستوجبه إهانة الملك من عقاب ؟ هل رأيت امرأة تجلد قبل اليوم ؟.. أنا لو شئت لجعلتك تجثين عند قدمى أصغر جنودى سائلة الصفح والتوبة ...

أدام إليها النظر ليرى أثر تهديده فى نفسها ، فوجدها تتحداه بعينيها القاسيتين لا تغضيهما ، والغضب يسارع إليها إسراعه إلى بنى قومها جميعا ، وقالت بحدة :

ـــ نحن قوم لا يعرف الخوف إلى قلوبنا سبيلا ، ولا يذل كبرياؤنا حتى تطوى السماوات أيدى البشر .

وتساءل فى غضبه هل يجرب إذلالها ؟.. لماذا لا يذلها ويدوس كبرياءها بقدمه ؟. أليست هى أسيرته ويستطيع أن يجعلها جارية من جواريه ؟.. ولكنه لم يرتح إلى هذا الهوى . كان يطمع فيما هو أعذب وأجمل . فلما أدركته الخيبة ثار كبرياؤه واحتد غضبه فزهد فى استذلالها ، على أنه أظهر غير ما يبطن فقال بلهجة كلهجتها كبرياء :

ـــ إن مشيئتى لا تقتضى تعذيبك فلن تعذبى لذلك ... وإنه لمن أعجب الأمور أن يفكر إنسان فى تعذيب جارية حسناء مثلك .

ـــ بل أميرة ذات كبرياء .

ـــ كان هذا قبل أن تقعى أسيرة فى يدى ..

أما أنا فأوثر أن أضمك إلى حريمى على أن أعذبك : ومشيئتى هى النافذة ...

— ستعلم أن مشيئتك نافذة على نفسك وعلى قومك لا على ، وأنك لن تمسنى حية ...

فهز كتفيه استهانة ، ولكنها استدركت قائلة :

— من عاداتنا المتوارثة أنه إذا وقع فرد منا فى أشراك ذل ولم يستطع النجاة ، امتنع عن الأكل حتى يقضى كريما ...

فقال متهكما :

— حقا ؟... ولكنى رأيت قضاة طيبة يساقون إلى فيسجدون صاغرين سائلة أعينهم العفو والمغفرة ...

فامتقع وجهها ولاذت بالصمت ، وضاق الملك بحديثها ذرعا وكان يعانى مرارة الخيبة فلم يطق البقاء ، وقال وهو يهم بمغادرة المخدع :

— لن تجدى حاجة إلى الامتناع عن الطعام ...

وغادر المخدع مغضبا ساخطا وقد بيت نيته على أن ينقلها إلى سفينه أخرى ، ولكن ما كاد غضبه يسكت حين خلا إلى نفسه فى المقصورة حتى عدل عن نيته فلم يصدر أمره ...

١٨

ومثل الحاجب حور بين يدى الملك فى مقصورته وقال :

ـــ مولاى ، جاء رسل من قبل أبو فيس يستأذنون فى المثول بين يديك .

فعجب أحمس وسأله :

ـــ ماذا يريدون ؟

فقال الحاجب :

ـــ قالوا إنهم يحملون رسالة لذاتك العليا ...

فقال أحمس :

ـــ ادعهم على عجل ...

فغادر الحاجب المقصورة وبعث بضابط إلى الرسل ، وعاد إلى مولاه ينتظران . ولم يلبث أن جاء الرسل مع شرذمة من ضباط الحرس ، وكانوا ثلاثة يتقدم كبيرهم ويتبعه اثنان يحملان صندوقا من العاج ، وكانوا كما يبدو من ثيابهم الفضفاضة من الحجاب ، بيض الوجوه ، طوال اللحى ، وقد رفعوا أيديهم بالتحية دون انحناء ، ووقفوا فى غطرسة ظاهرة ، فرد أحمس تحيتهم فى كبرياء وسألهم :

ـــ ماذا تريدون ؟

فقال زعيمهم بلهجة أعجمية متغطرسة :

ـــ أيها القائد ...

ولكن حور لم يمكنه من إتمام عبارته ، فقال له بهدوئه الطبيعى :

ـــ إنك تحدث فرعون مصر يا رسول أبو فيس ...

فقال الزعيم :

ـــ الحرب ما تزال مستعرة لم يفصل فيها بعد ، وما دام لنا رجال وفى أيدينا سلاح ، فأبو فيس فرعون مصر لا شريك له ...

فأومأ أحمس إلى حاجبه بالسكوت وقال للرسول :

ـــ تكلم فيما جئت من أجله ...

فقال الزعيم :

ـــ أيها القائد ، خطف الفلاحون يوم الانسحاب من طيبة صاحبة السمو الفرعونى الأميرة أمنريدس كريمة مولانا الملك أبو فيس فرعون مصر وابن الرب ست . ومولانا يريد أن يعلم هل ابنته على قيد الحياة أو قتلها الفلاحون ؟

ـــ هل يذكر مولاك ما فعل بنسائنا وأطفالنا فى حصار طيبة ؟... ألم يذكر كيف عرضهن لسهام أبنائهن وأزواجهن تمزقهن شر ممزق ، وجنودكم الجبناء مدرعون بهن ؟..

فقال الرجل بحدة :

ـــ إن مولاى لا يتنصل من تبعة عمله ، والحرب كفاح للموت والهزيمة فلا يستعان عليها بالرحمة ...

فهز أحمس رأسه بنفور وقال :

ـــ بل الحرب نزال بين الرجال ، يفصل فيه الأقوياء ويعنو له الضعفاء ، وهى عندنا صراع لا ينبغى أن يطغى على ما بنفوسنا من المروءة والدين ... على أنى أعجب كيف يسأل الملك عن ابنته وذاك علمه وهذا رأيه فى الحرب ؟..

فقال الرسول بإباء :

ـــ إن مولاى يستفهم لغاية فى نفسه ، فلا هو يسترحم ولا هو يشفق ...

وتفكر أحمس مليا ، ولم يغب عنه الباعث الذى حدا بعدوه إلى السؤال عن ابنته . ولذلك قال بوضوح وبلهجة نمت عن الاحتقار :

ـــ عد إلى مولاك وقل له إن الفلاحين قوم شرفاء لا يغتالون النساء ، وإن الجنود المصريين يترفعون عن قتل أسراهم ، وإن ابنته أسيرة تتمتع بنبل آسريها ..

فبدا على الرجل الارتياح وقال :

ـــ لقد انقذت كلمتك هذه أرواح الآلاف من قومك نساء ورجالا ممن أسرهم الملك ، وجعل حياتهم رهينة بحياة سمو الأميرة .

فقال له أحمس :

ـــ وحياة الأميرة رهينة بحياتهم .

فصمت الرجل مليا ثم قال :

ـــ وقد أمرت ألا أعود حتى أراها بنفسى .

وبدا الإنكار على وجه حور ، ولكن أحمس بادر الرسول قائلا :

ـــ ستراها بنفسك .

فأشار الزعيم إلى الصندوق العاجى الذى يحمله تابعاه وقال :

ـــ وهذا الصندوق يحوى بعض ثيابها ، فهل تأذن لنا فى تركه فى حجرتها ؟.

فسكت الملك هنيهة ثم قال :

ـــ لك هذا .

ولكن حور مال إلى مولاه وهمس قائلا :

ـــ ينبغى أن نفحص الثياب أولا .

فوافق الملك على رأى حاجبه ، وأمر الحاجب بوضع الصندوق بين يدى الملك ، ثم فتحه بيديه وأخرج ما به من الثياب ثوبا ثوبا ، وعثر بحق صغير فأمسك به وفتحه فإذا ما به عقد ذو قلب زمردى . وارتعد قلب الملك لمرآه : وذكر كيف انتقته الأميرة من بين لآلئه يوم كان يدعى إسفينيس ويبيع اللآلئ فتورد وجهه ، أما حور فقال :

ـــ هل السجن مكان صالح للزينة ؟!

فقال الرسول :

— هذا العقد حلية الأميرة المفضلة لديها ، فإن شاء القائد أبقيناه ، وإلا أخذناه معنا .

فقال أحمس :

— لا بأس بإبقائه .

ثم التفت الملك إلى الضباط وأمرهم باصطحاب الرسل إلى مخدع الأميرة ، ومضت الرسل ومضى الضباط فى إثرهما ...

١٩

وفى ذات المساء لحقت بالجيش قوات آتية من الجنوب من مدريى أبولينوبوليس وهيراكونبوليس ، ورست فى ميناء طيبة سفن صغيرة محملة بالأسلحة وقباب الحصار موجهة من أمبوس ، وبشر ربانها الملك بأنه عما قريب تصله قوة من العجلات والفرسان المدربين . وانضم إلى الجيش رجال من طيبة وهابو فاعتاض جيش أحمس عما فقده من الرجال وأربى عدده على اليوم الذى اخترق الحدود غازيا . ولم ير الملك داعيا إلى البقاء فى طيبة أكثر مما بقى ؛ فأمر قواده بالاستعداد للزحف شمالا فجر الغد ، وتودع الجنود من طيبة وأهلها ، وتحولوا عن اللهو والدعة لاستقبال الكفاح والجلاد . وعند مطلع الفجر نفخ الجنود فى الأبواق فتحرك الجيش العرمرم صفوفا كأمواج البحر ، تتقدمه الطلائع ويسير فى مقدمته الملك وحرسه ، وفرقة العجلات تتبعها الفرق الأخرى . وأقلع الأسطول بقيادة أحمس إبانا يشق مياه النيل بوحداته القوية . تواثبوا جميعا للقتال ، وشحذ النصر إرادتهم فجعلها كالحديد أو أشد صلابة . واستقبل الجيش فى القرى بحماسة دافقة ، وهرع الفلاحون إلى طريقه هاتفين يلوحون بالأعلام وسعف النخل . واجتاز سبيله آمنا فأضحى فى شنهور ودخلها بغير مقاومة ، ثم أمسى فى قسى ففتحت له أبوابها وباتوا جميعا فى قسى واستأنفوا المسير مع الفجر ، وجدوا فى سيرهم حتى شارفوا ميدان كبتوس ولاح لهم الوادى الذى ينتهى بالمدينة ، وهنا شمل الجيش صمت حزين وطافت الذكريات بالرءوس ، وذكر أحمس الهزيمة التى حلت بجيش طيبة فى هذا الوادى لعشرة أعوام خلت أو يزيد ، وذكر مصرع جده الباسل سيكننرع الذى ارتوت هذه الأرض بدمه ، وحار بصره فى جنبات الميدان وهو يتساءل : ترى فى أى مكان سقط ، ولاحت منه التفاتة نحو حور ،

فرأى وجهه ممتقعا وعينيه مغرورقتين بالدموع ، فاشتد به التأثر وقال له :

— يا للذكرى المؤلمة ...

فقال حور بصوت متهدج وأنفاس لاهثة :

— كأنى أستمع إلى أرواح الشهداء التى يعمر بها جو هذا المكان المقدس ...

فقال القائد محب :

— لشد ما ارتوت هذه الأرض من دماء آبائنا ..

وجفف حور دمعه وقال للملك :

— فلنصل جميعا يا مولاى على روح مليكنا الشهيد سيكننرع وجنوده البواسل .

وترجل أحمس وقواده وحاشيته وصلوا جميعا صلاة حارة ..

ودخل الجيش مدينة كبتوس وخفق على سورها علم مصر ، فهتف الجنود لذكرى سيكننرع طويلا . ثم زحف الجيش إلى تنتيرا دون أن يجد أدنى مقاومة . وكذلك أسترد ديوس بوليس برفا . ثم سار فى طريق أبيدوس وهو يتوقع أن يلقى الرعاة فى واديها ، ولكنه لم يعثر برجل من العدو ، فعجب أحمس وتساءل قائلا :

ــ أين أبو فيس وأين جيوشه الجرارة ؟

فقال حور :

ــ لعله لا يريد أن يلقى عجلاتنا بمشاته .

ــ وحتام تدور هذه المطاردة ؟

ــ من يعلم يا مولاى ؟.. لعلها تدوم حتى نواجه أسوار هواريس ، حصن الرعاة الحصين الذى شيدوا أسواره فى قرن من الزمان ، ولسوف يدمى قلب مصر قبل أن تخترقه جنودنا .

وفتحت أبيدوس أبوابها لجيش الخلاص ، فدخلها دخول الجيش المظفر ، واستراح بها يومه ..

وكان أحمس يتعطش للحرب لعله يلقى عدوه فى موقعة فاصلة ، ولأنه كان يتوق إلى أن ينغمر فى القتال لينسى نوازع نفسه ويطمس أحزان فؤاده ، ولكن أبو فيس أبى عليه هذه الراحة ، فوجد أفكاره تحوم حول الأسيرة العنيدة ، وقلبه ينازعه إليها على ما به من موجدة عليها . وذكر أحلامه حين ظن أن أسعد الأقدار هى التى دفعتها إلى أسره وحين طمع أن يجعل سفينة الأسر جنة من جنان الحب . ثم ذكر ما فعل به إباؤها وغضبها ، وكيف صيره مريضا محروما من أشهى الثمار

وهى ناضجة دانية ، وكانت رغبته إلى الحب قوية لا تقاوم فجرفت بتيارها الدافق عوائق التردد والكبرياء ، فذهب إلى السفينة وقصد إلى المخدع المسحور ودخل ، وكانت جالسة جلستها المعهودة على الأريكة ملتفة فى ثوب من أثواب منف الرقيقة . وكأنها عرفت وقع خطاه فلم ترفع إليه رأسها وظلت تنظر إلى ما بين قدميها . وجرى بصره المشغوف على مفرق شعرها وجبينها وجفنيها المسبلتين فأحس رعدة تصدع صدره ، ونازعته الرغبة فى أن يرتمى عليها ويضغطها بين ذراعيه بكل ما أوتى من قوة وعزم ، ولكنها رفعت رأسها بغتة وحدجته بنظرة باردة ، فلبث حيث هو جامدا ، ثم سألها :

— هل زارك الرسل ؟

فقالت بلهجة لا تنم عن عاطفة :

— نعم .

فجال ببصره فى الحجرة حتى استقر على الصندوق العاجى وقال :

— لقد أذنت لهم أن يوصلوا إليك هذا الصندوق !

فقال باقتضاب وبصوت لا يخلو من جفاء :

— شكرا لك ..

فارتاح فؤاده وقال :

— وكان بالصندوق العقد ذو القلب الزمردى ..

فاضطربت شفتاها وأرادت أن تتكلم ، ولكنها عدلت فجأة وأطبقت فمها بحالة تدل على الحيرة ، فقال أحمس برقة :

— قال الرسل إن هذا العقد عزيز لديك ..

فهزت رأسها بعنف وكأنها تنفى عن نفسها تهمة وقالت :

— كنت أكثر من لبسه حقا لأن ساحرة القصر جعلته تعويذة تقى الضر والسوء ..

ففطن إلى تهربها ، ولكنه لم ييأس وقال :

ـــ ظننت أن ذلك لأسباب أخرى تشهد بها مقصورة السفينة الفرعونية .

فتضرج وجهه بالاحمرار وقالت بغضب :

ـــ لا أذكر اليوم نزوة الأمس ، ويجمل بك أن تحدثنى كما ينبغى لعدو أن يحدث أسيرة .

ورأى وجهها قاسيا جامدا فتجرع الخيبة مرة أخرى ، ولكنه أراد أن يكتم عواطفه فقال :

ـــ ألم تعلمى بأنا نضم نساء أعدائنا إلى حريم قصورنا ؟

فقالت بحدة :

ـــ إلا مثلى ..

ـــ هل تعودين إلى التهديد بالصوم ؟

ـــ لا حاجة لى به بعد الآن ..

فتفحصها بنظرة مريبة وسألها متهكما :

ـــ فكيف تدافعين عن نفسك ؟

فأرته فى كفيها سلاحا صغيرا لا يزيد طوله عن ظفر ، وقالت باطمئنان :

ـــ انظر ؛ هذا خنجر مسموم ، إذا خدشت به جلدى سرى سمه فى دمى فقضى على فى لحظات ، دسه إلى الرسول فى غفلة من رقبائك ، فعلمت أن أبى يضع بين يدى ما أقضى به على نفسى إذا مسنى الضيم أو تحرش بى إنسان .

فغضب أحمس وعبس وجهه وقال :

ـــ أهذا هو سر الصندوق ؟.. سحقا لمن يطمئن إلى كلمة خنزير من الرعاة ذوى اللحى القذرة . إن الخيانة تسرى فى عروقكم مسرى الدم ، ولكن أراك تخطئين فهم رسالة أبيك ، فقد دس إليك هذا الخنجر لتقضى به على ..

فهزت رأسها كالساخرة وقالت :

ـــ أنت لا تفهم أبو فيس ، إنه يأبى إلا أن أعيش كريمة أو أموت كريمة ، أما عدوه فسيقضى عليه بنفسه كما تعود أن يقضى على أعدائه .

فضرب أحمس الأرض بقدمه وقال بحنق شديد :

— لماذا كل هذا العناء ؟.. فما أزهدنى فى جارية مثلك أعماها الغرور والكبرياء والطبع الفاسد ، لقد توهمتك فيما مضى شيئا ليس فيه من حقيقتك شىء ، فسحقا للأوهام جميعا ..

وتحول الملك عنها وغادر المخدع ، وفى الخارج دعا كبير حراسها وقال له :

— لتنقل الأسيرة إلى سفينة أخرى تحت الحراسة الشديدة ..

وبرح الرجل السفينة ضيق الصدر مكفهر الوجه ، وعاد فى عجلته إلى المعسكر ..

٢١

وضاق الملك بالسكون فأمر قواده بالتأهب . وفى فجر اليوم الثانى زحف الجيش بجموعه الجرارة وأقلع الأسطول فبلغ بطلمايس فى يومين ، ولم يظهر حولها أثر للعدو فدخلتها الطلائع فى سلام وتبعها الجيش على الأثر . وأوغلت الطلائع شمالا حتى بانوبوليس آخر بلدان طيبة الشمالية ودخلتها بلا مقاومة وزفت البشرى إلى الملك أحمس أن بانوبوليس فى أيد مصرية ، فصاح أحمس :

ــ لقد أجلى الرعاة من مملكة طيبة .

فقال حور :

ــ وسيجلون عن مصر قريبا .

وتقدم الجيش نحو بانوبوليس ودخلها مزهوا ظافرا على أنغام الموسيقى الحماسية ، ونفخ فى الأبواق إعلانا للنصر ، ورفعت الأعلام المصرية على سور المدينة ، وانتشر الجنود فى الأسواق واختلطوا بالأهلين يهتفون وينشدون . وشمل المدينة فرح جنونى خفق فى كل صدر وتردد مع كل نفس وأولم الملك لقواد الجيش والأسطول والحاشية وليمة فاخرة قدمت فى ختامها كؤوس مترعة بأنبذة مريوط المعتقة مع أزهار اللوتس وقضب الريحان ، وقال الملك لرجاله :

ــ غدا نخترق حدود المملكة الشمالية وترفع على أسوارها أعلام مصر لأول مرة منذ نيف ومائة عام .

فدعا الرجال له وهتفوا باسمه طويلا ..

ولكن فى أصيل ذلك اليوم رأى الحراس كوكبة من العجلات تعدو نحو المدينة من الشمال رافعة راية بيضاء ، فأحاط بها الجند وسألوا عن مقصدها ، فقال أحد رجالها إنهم رسل الملك أبو فيس إلى أحمس ، فمضى بهم الجنود إلى المدينة ، وعلم

أحمس بأمر الرسل فذهب إلى قصر حاكم المدينة ، ودعا إليه حور وقائد الأسطول والقائدين محب وديب ، وجلس على كرسى الحاكم يحيط به قواده ومن حولهم الحرس فى ثيابهم الفخمة . وأذن للرسل بالدخول ، وكان المصريون لا يدرون ما يحمله الرسل هذه المرة فانتظروا مشوقين . وجاء رسل ملك الرعاة وكانوا خليطا من القواد والحجاب فى الثياب العسكرية والمدنية تسبقهم لحاهم المسترسلة ، ولم يكن يبدو على وجوههم آى التحدى والغلظة كما توقع أحمس ، ولكنهم اقتربوا من مجلس الملك وانحنوا جميعا فى إجلال واحترام حتى كاد الملك أن يعلن دهشته ، وقال كبيرهم :

— حياك الرب يا ملك طيبة ، نحن رسل فرعون مصر السفلى والوسطى إليك .

فألقى أحمس عليهم نظرة لا تدل على شىء مما يثور فى نفسه ، وقال بهدوء :

— حياكم الرب يا رسل أبو فيس ، ماذا تريدون ؟

وبدا على الرسل الاستياء لإغفال الملك ألقاب مليكهم ، ولكن زعيمهم قال :

— أيها الملك نحن رجال حرب ، فى ميدانها نشأنا وعلى سنتها نعيش ، شجعان بواسل كما بلوتمونا ، تعجب بالبطل وإن كان لنا عدوا ، وننزل عند حكم السيف وإن كان علينا . ولقد انتصرت أيها الملك واستردت عرش مملكتك فحق لك ملكها كما حق علينا تسليمها ، فهى مملكتك وأنت مليكها . وإن فرعون يقرئك السلام ، ويعرض عليك حقن الدماء وصلحا شريفا يحترم الحقوق ويصل ما انقطع من علاقات المودة بين مملكة الجنوب ومملكة الشمال .

وأصغى الملك إلى الرسل فى هدوء ظاهر ودهشة باطنة ، ثم نظر إلى لسان القوم وسأله متعجبا :

— أجئتم حقا تنشدون سلاما ؟

فقال الرجل :

— نعم أيها الملك .

فقال أحمس بصوت يدل على العزم والحزم :

— إنى أرفض هذا السلام .

— ولماذا تصر على الحرب أيها الملك ؟

فقال أحمس :

— يا قوم أبو فيس .. لأول مرة تخاطبون مصريا باحترام ، ولأول مرة تنزلون مقهورين عن نعته بصفات العبودية . أتعلمون لماذا ؟ لأنكم غلبتم على أمركم . فأنتم يا هؤلاء وحوش ضوار إذا غلبتم ، وشاء إذا غلبتم ، أتسألوننى لماذا أصر على الحرب ؟.. فإليكم جوابى : إنى ما أعلنتها عليكم لأسترد طيبة ، ولكنى عاهدت ربى وقومى على أن أحرر مصر جميعا من نير الظلم والاستبداد ، وأن أعيد بها حريتها ومجدها ؛ فإذا أراد الذى بعثكم السلام حقا ، فليترك مصر لأهلها وليرجع بقومه إلى صحارى الشمال .

فسأله الرسول بصوت غليظ :

— هذه هى الكلمة الأخيرة ؟

فقال أحمس بثقة وقوة :

— هى ما افتتحنا به الكفاح ، وآخر ما نختتمه به .

فقام الرسل واقفين ، وقال رئيسهم :

— ما دمت تريد الحرب فستكون حربا ضروسا بيننا وبينكم حتى يقضى الرب فيها بمشيئته .

وانحنى الرجال للملك مرة أخرى وغادروا المكان فى خطى ثقيلة .

٢٢

ولبث أحمس فى بانوبوليس يومين كاملين ، ثم أرسل الطلائع لاختراق حدود دولة أبو فيس ، فتقدمت جماعات قوية شمال المدينة ، والتحمت بقوات صغيرة للعدو فمزقت شملها ، ومهدت السبيل للجيش المعسكر فى بانوبوليس ، فزحف أحمس على رأس جيش لم تشهد مصر له مثيلا من قبل فى عدده أو عدده ، وأقلع أسطول أحمس إبانا الجبار بسفنه المظفرة . وفى طريق الزحف أبلغت العيون الملك أن جيش الرعاة معسكر فى جنوب أفروديتوبوليس فى جموع لا يحيط بها الحصر .

ولم يكن يهم الملك عدد الرعاة ، ولكنه سأل الحاجب حور قائلا :

ــ ترى هل ما يزال لدى أبو فيس قوة من العجلات يلقانا بها ؟

فقال حور :

ــ ما من شك يا مولاى فى أن أبو فيس قد فقد العدد الأكبر من فرسانه ، ولو كان لديه قوة منهم تستطيع أن تفصل فى هذا العراك ما طلب الصلح ولا سعى إلى السلام ، على أن الرعاة قد فقدوا ما هو أثمن من الفرسان والعجلات ، فقدوا الثقة والأمل ..

واستمر تقدم الجيش حتى دنا من معسكر عدوه ، ولاحت نذر المعركة فى الأفق ، وتأهبت فرقة العجلات لخوض غمار المعركة بقيادة الملك . وصاح أحمس فى القواد قائلا :

ــ سنقاتل على أرض حرم علينا وطؤها مائة عام ونيف ؛ فلنضرب ضربة هائلة تضع حدا لآلام الملايين من إخواننا المستعبدين ، ولنقدم بقلوب شديدة البأس.. فقد حبانا الرب بالعدد والأمل ، وخذل عدونا بالانقراض واليأس وإنى لعلى رأسكم كما كان سيكننرع ، وكما كان كاموس .

وأمر الملك طلائعه بالهجوم ؛ فانقضت كالنسور الكاسرة ، وتحفز للهجوم وهو يراقبها ليرى كيف يلقاها العدو ، فشاهد قوة من العجلات تقدر بمائتى عجلة ترد عليها الهجوم محاولة الإحداق بها . وكان الملك شديد الرغبة فى القضاء على عجلات العدو فهاجم على رأس العجلات وانقض على العدو من جميع الجهات ، وأدرك الهكسوس أن فرسانهم لا يمكن أن يثبتوا لقوات تفوقهم أضعافا ؛ فقذف أبو فيس بكتائب من الرماة وحملة الرماح لتؤيد عجلاته المحدودة . ودارت معركة شديدة ، ولكن الرعاة لم ينفعهم شجاعتهم وقضى على قوتهم الراكبة ..

وبات الجيش ليلته .. وكان أحمس لا يدرى أيلقاه أبو فيس بمشاته مستيئسا أم يفر بجيشه مؤثرا السلامة كما فعل فى هيراكونبولس . ووضح الأمر فى الصباح حين رأى الملك جموع الرعاة تتقدم لاحتلال مواقعها والقسى والرماح فى أيديها ، ورآهم حور فقال :

ــ الآن تدور الدائرة عليهم يا مولاى ، ويتعرض أبو فيس بمشاته لبأس عجلاتنا كما تعرض له مليكنا سيكننرع فى جنوب كبتوس من لدن عشرة أعوام .

فانشرح صدر الملك ، وتهيأ للهجوم بفرقة العجلات تؤيدها قوات مختارة من الرماة وفرق الأسلحة الأخرى . وانقضت العجلات على مواقع الرعاة تملأ الجو أمامها سهاما طائرة ، فاخترقت الصفوف فى مواضع كثيرة والرماة وراءها يحمون ظهورها ويطاردون من يتفرق من العدو فيقتلون ويأسرون . وقاتل الرعاة بما عرف عنهم من الشجاعة ولكنهم كانوا يتساقطون سقوط الأوراق الجافة تعرضت لرياح الخريف العاتية . وسيطر المصريون على الميدان ، وخشى أحمس أن يفلت أبو فيس من يده ؛ فهاجم أفروديتوبولبس كما هاجم الأسطول شطئانها ، ولكنه لم يجد أثرا للرعاة داخل أسوارها ولا عثر بعدوه اللدود . ثم وافته العيون بأن أبو فيس فارق المدينة مع قوات من جيشه بعد جثوم ليلة الأمس ، وأنه ترك من ترك من رجاله ليعوقوا زحف المصريين ، وقال حور للملك :

— لن تجدى المقاومة فتيلا بعد اليوم ، ولعل أبو فيس يجد الآن فى طلب هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة .

ولم يأسف أحمس طويلا ، وكان سروره بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور ، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهليها عن كل شىء ..

٢٣

وتقدم الجيش فى زحفه العظيم لا يجد مقاومة ولا أثرا للعدو ، يستقبله أهل القرى والبلدان ذاهلين من الفرح لا يصدقون أن الآلهة رفعت عنهم غضبها بعد ذل قرنين من الزمان ، وأن الذى يفتح بلدانهم ويطرد عنها عدوهم ملك منهم يبعث مجد الفراعين من جديد . ووجد أحمس أن الرعاة قد فروا عن المدن تاركين قصورهم وضياعهم ، حاملين ما وسعهم حمله من متاعهم وأموالهم ؛ وسمع فى كل مكان طرقه أن أبو فيس مجد فى الهرب بجيشه وقومه إلى الشمال ، وهكذا استرد الملك فى شهر من الزمان : هبسيل ، وليكوبوليس ، وكوسى ، ثم بلغ أخيرا هرموبوليس ، وكان لدخولهم فيها وقع عظيم فى نفس أحمس وجنوده ، لأن هرموبوليس مسقط رأس الأم المقدسة توتيشيرى ، وكانت ولادتها قبل عهد الاحتلال فى بيتها العتيد ، فاحتفل أحمس بتحريرها ، واشترك فى الاحتفال العظيم رجال الحاشية وقواد البر والبحر والجنود جميعا ، ثم كتب الملك إلى جدته رسالة يهنئها باستقلال وطنها الأول هرموبوليس ، ويضمنها عواطفه وعواطف جنده وشعبه ، وقد أمضاها الملك والقواد والحاشية وكبار الضباط .

ثم تقدم الجيش فى زحفه المظفر ؛ فدخل تتنوى وسينوبولس وهبنن ثم أرسنوى ، وانحدر بين الأهرام فى طريق منف العظيمة غير عابىء بمشاق السفر وطول الطريق . وكان أحمس فى أثناء ذلك يحطم الأغلال التى يرسف فيها شعبه البائس ، وينفخ فيه من روحه الكبيرة حياة جديدة ، حتى قال له حور يوما :

ـــ إن عظمتك الحربية يا مولاى لا يضارعها شىء فى الوجود سوى مقدرتك السياسية وحنكتك الإدارية ، لقد غيرت معالم البلدان فمحوت أنظمة وأنشأت أنظمة ، ورسمت السبل التى ينبغى انتهاجها والسنن التى يجب اتباعها ، ووليت

الحكام الوطنيين ، فدبت الحياة مرة أخرى فى شرايين الوادى ، وشاهد الناس أول مرة منذ عهد غابر حكاما مصريين وقضاة مصريين ، فارتفعت الرءوس المنكسة ، و لم يعد الرجل يعيا بسمرته ويعير بها . بل صارت موئله ومفخرته .. ألا فليحفظك الرب آمون يا حفيد سيكننرع .

كان الملك يعمل مخلصا مجاهدا لا يعرف اليأس ولا التعب ، وكانت غايته التى لا يتحول عنها أن يرد إلى قومه الذين اهتصرهم الذل والجوع والفقر والجهل ، العزة والشبع والرغد والعلم .

على أن قلبه لم ينج على كده وانهماكه من همومه الخاصة ، فعناه الهوى وأعيته الكبرياء ، وكان كثيرا ما يضرب الأرض بقدمه ويقول لنفسه : « لقد خدعت .. وما هى إلا امرأة بلا قلب » . وكان يرجو من العمل أن يغمره بالنسيان والعزاء ولكنه وجد روحه تسرى بالرغم منه إلى السفينة التى يعابثها الموج فى مؤخرة أسطوله ..

٢٤

واطرد زحف الجيش ومضى يدنو من منف الخالدة ذات الذكريات المجيدة وأخذت تلوح له أسوارها البيض السامقة ؛ فظن أحمس أن الرعاة سيدافعون عن عاصمة ملكهم دفاع المستميت . ولكن أخطأ ظنه ودخلت طلائعه المدينة فى سلام ، وعلم أن أبو فيس تقهقر بجيشه نحو الشمال الشرقى ؛ فدخل أحمس طيبة الشمال فى حفل لم يشهد له مثيلا من قبل ، واستقبله الأهلون استقبالا حماسيا مهيبا ، وسجدوا له ودعوه ابن منفتاح . ومكث الملك فى منف عدة أيام زار ربوعها وشاهد أسواقها وأحياءها الصناعية ، وطاف بالأهرام الثلاثة ، وصلى فى معبد أبى الهول ، وقدم القرابين . فلم يكن سرور يعادل سرورهم بفتح منف إلا استرداد طيبة ، وكان أحمس يعجب كيف لا يدافع الرعاة عن منف ، فقال له القائد محب :

ـــ لن يتعرضوا مختارين لبأس عجلاتنا بعد ما بلوها فى هيراكونبولـبس وأفروديتوبوليس .

وقال الحاجب حور بثقة :

ـــ إن السفن لا تفتأ تأتى إلينا محملة بالعجلات والجياد من مقاطعـات الجنوب ، وليس أمام أبو فيس إلا الاهتمام بأسوار هواريس .

وتشاوروا جميعا فى الوجهة التى يولونها بعد أن انبسطت رقعة الغزو أمامهم ، فقال القائد ديب :

ـــ لا شك أن العدو جلا عن الشمال كله وانحصر فى الشرق وراء أسوار هواريس ، فينبغى أن نقصد إليه بقواتنا كاملة .

على أن أحمس كان شديد الحذر ؛ فأرسل جيشا صغيرا إلى الغرب عن طريق

لنوبوليس ، وسير آخر شمالا فى اتجاه أتريبس ، وسار بقواته الرئيسية وأسطوله العظيم شرقا فى طريق أون . وانطوت الأيام وهم يضربون فى الأرض تدفعهم الحماسة والأمل أن يضربوا الضربة الأخيرة بحماسة ، ويكللوا كفاحهم الطويل بالنصر الحاسم . ودخلوا أون مدينة رع الخالدة ثم فاكوسة ثم فربيتص وضربوا فى الطريق المؤدى إلى هواريس ، وكانت أخبار أبو فيس تترامى إليهم فعلموا أن الرعاة ارتدوا من جميع الجهات إلى هواريس يسوقون آلافا من البائسين . وقد أحدثت هذه الأخبار فى نفس الملك حزنا شديدا ، ورق لحال أولئك الأسرى المستذلين الذين سقطوا فى قبضة الرعاة القاسية ..

وأخيرا لاحت فى الأفق أسوار هواريس الهائلة كالجبال الصخرية ، فصاح أحمس :

ـــ هذا آخر حصن للرعاة فى مصر .

فقال له حور وهو ينظر إلى الحصن بعينيه الضعيفتين .

ـــ حطم أبوابه يا مولاى يخلص لك وجه مصر الجميل ..

٢٥

وكانت هواريس تقع شرق فرع النيل ، ويمتد سورها شرقا مسافة ينقطع دونها البصر . وكان كثير من الأهلين يعرفون المدينة المحصنة ومنهم من عملوا داخلها أو فى أسوارها ، فقالوا لمليكهم : إنه يحيط بالمدينة أربعة أسوار ضخمة غليظة دائرة ، يليها خندق محيط يجرى فيه ماء النيل ، وإن بالمدينة حقولا شاسعة تكفى حاجة أهليها جميعا ، وجلهم جنود ما عدا المزارعين المصريين ، وتسقى المدينة جداول تأخذ من فروع النيل تحت السور الغربى وفى حمايته ، وتتجه شرقا نحو المدينة .

وقد وقف أحمس ورجاله جنوب الحصن الهائل يقلبون وجوههم حيارى فى الأسوار العظيمة المترامية ، بدت الجنود فى ذراها كالأقزام . وضرب الجيش خيامه ، وامتدت صفوف الجند بحذاء السور الجنوبى ، وتقدم الأسطول فى النهر غربى السور الغربى بعيدا عن مرمى سهامه للمراقبة والحصار ، وكان أحمس يستمع إلى أقوال الأهلين عن الحصن ، ويفحص الأرض المحيطة به والنهر الجارى غربه وعقله لا ينى عن التفكير . وفى أثناء ذلك سير قوات راكبة ومشاة إلى القرى المحيطة بالمدينة ، فاستولت عليها دون عناء ، وأضحى حصاره للحصن كاملا فى زمن يسير ؛ ولكنه كان ورجاله يعلمون أن الحصار عقيم ، وأن المدينة مستغنية بنفسها عما عداها ، وأن الحصار لو امتد أعواما لن يؤثر فيها شيئا ؛ وسيبقى هو وجيشه يعانيان الملل والانتظار فى غير أمل ، وأهوال الجو وتقلباته . وفيما كان يجول حول الحصن خطر له خاطر فدعا رجاله إلى خيمته ليشاورهم فى الأمر . وقال لهم :

ـــ أشيروا على ، فإنى أرى الحصار ضياعا للعمر وتبديدا للقوى ، وأرى

الهجوم ضربا من العبث وانتحارا صريحا ، ولعل العدو يتمنى أن نكر عليه ليصيد رجالنا البواسل أو يوقعهم فى خنادقه .. فما الرأى ؟

فقال القائد ديب :

ـــ الرأى يا مولاى أن نحاصر الحصن بجزء من قواتنا ، ونعتبر الحرب منتهية عند ذاك ؛ ثم تعلن استقلال الوادى وتباشر واجبك كفرعون مصر المتحدة .

ولكن حور اعترض على الفكرة قائلا :

ـــ وكيف تترك أبو فيس آمنا يدرب رجاله ويجدد عجلاته ليكر علينا فيما بعد ؟

فقال القائد محب بحماسة :

ـــ لقد دفعنا ثمن طيبة غاليا ، والكفاح بذل وفداء ، فلماذا لا نؤدى ثمن هواريس ونهجم كما هجمنا على حصون طيبة ؟

فقال القائد ديب :

ـــ نحن لا نضن بنفوسنا ، ولكن الهجوم على أربعة أسوار ضخمة تفصل بينها خنادق ملأى بالماء ، تهلكة لجنودنا بلا ثمن ...

وكان الملك صامتا متفكرا ، فقال وهو يشير إلى النهر الجارى تحت سور المدينة الغربى :

ـــ إن هواريس حصينة لا تؤخذ ولا تجوع ، ولكنها قد تظمأ ...

فنظر الرجال إلى النهر وبدت على وجوههم الدهشة ، وقال حور بذهول :

ـــ كيف تظمأ هواريس يا مولاى ؟

فقال أحمس بهدوء :

ـــ بأن نحول عنها مياه النيل ...

فنظر الرجال مرة أخرى إلى النيل وهم لا يصدقون أنه يمكن تحويل هذا النهر العظيم من مجراه ، وتساءل حور :

ـــ هل يمكن القيام بهذا العمل الجبار ؟

فقال أحمس :

— لا يعوزنا المهندسون ولا العمال ...

— وكم يقتضينا من الوقت يا مولاى ؟

— عاما أو عامين أو ثلاثة أعوام .. ماذا يهم الزمن ما دامت هذه هى الوسيلة الوحيدة . ينبغى أن يتحول النيل شمال فربتتس إلى مجرى جديد يتجه غربا نحو مندس ، كى يختار أبو فيس بين الموت جوعا وظمأ أو الخروج لقتالنا . وسيغفر لى شعبى أنى عرضت من فى هواريس من المصريين للخطر والهلاك . كما غفر لى أنى فعلت ذلك ببعض نساء طيبة ...

٢٦

وتهيأ أحمس للعمل العظيم فاستدعى مهندسى طيبة المشهورين ، وعرض عليهم فكرته فتوفروا على دراستها باهتمام وشغف ، ثم قالوا للملك : إن فكرته ممكن تنفيذها على شرط أن يفسح لهم من الزمن ويمدهم بآلاف العمال . وعلم أحمس أن مشروعه لن يتحقق قبل مضى عامين فلم يركن إلى اليأس ، ولكنه بعث بالرسل إلى البلدان يحثون على التطوع فى العمل العظيم المنوط به تحرير الوطن وطرد عدوه بتحقيقه . وجاء العمال جماعات من جميع الأنحاء حتى اجتمع منهم عدد يكفى للبدء فى العمل ، وافتتح الملك المشروع العظيم فأمسك فأسا وضرب به فى الأرض معلنا ابتداء العمل . فتبعته السواعد المفتولة التى تكد على سجع الأناشيد والأغانى .

ولم يكن أمام الملك وجيشه سوى الانتظار الطويل ، وكان الجنود يقومون بتدريبهم اليومى تحت إشراف الضباط والقواد ، أما الملك فكان يزجى فراغه بالخروج إلى الصحراء الشرقية طلبا للصيد والطراد والسباق ، وفرارا من نوازع قلبه ونزوات هواه ، وفى فترة الانتظار هذه حمل إليه رسول رسالة من الأم المقدسة توتيشيرى قالت فيها :

« مولاى ابن آمون . فرعون مصر العليا والسفلى ، حفظه الرب وأيده بالنصر والفوز . إن دابور الصغيرة اليوم جنة من جنان السعادة والأفراح بفضل ما حمله إليها رسلك من أنباء النصر المبين الذى فتح به الرب عليك ، وإن انتظارنا اليوم فى دابور غير انتظارنا بالأمس ؛ لأنه محفوف بالعزاء وأدنى إلى الرجاء والأمل ، وما أسعدنا جميعا أن نعلم أن مصر حررت من الهوان والعبودية ، وأن عدوها ومذلها حبس نفسه بين جدران حصنه ، ينتظر خانعا القضاء الذى تقضى

به عليه ..

وقد شاء الرب القدير أن يحبوك — أنت الذى أذللت عدوه ، وأعليت كلمته — بعطفه ورحمته ، فرزقك بغلام نورا لعينيك ووليا لعهدك ، دعوته أمنحتب تبركا بالرب المعبود ، وقد تلقيته بيدى كما تلقيت أباه وجده وجد أبيه من قبل ، وقلبى يحدثنى بأنه سيكون ولى عهد مملكة عظيمة متعددة الأجناس واللغات والأديان ، يرعاها أبوه الحبيب .. » .

وخفق قلب أحمس خفقان الأبوة ودرت أضلعه الحنان ، وفرح فرحا عظيما أنساه بعض ما يعانى من آلام الهوى المكبوت ، وآذن رجاله بمولد ولى عهده أمنحتب فكان يوما مشهودا .

٢٧

ومضت الأيام بطيئة ثقيلة ولكنها حافلة بجلائل الأعمال التى اشتركت فى إنجازها أكبر العقول وأشد السواعد وأعلى الهمم ؛ وكانوا جميعا لا يبالون مشقة العمل ولا انقضاء الزمن ما دام يدنيهم إلى أملهم الأسمى وهدفهم الأعلى ، ولكن حدث ذات يوم وكان مضى على الحصار عدة أشهر أن رأى الحراس عجلة قادمة ناحية الحصن وعلى مقدمها يخفق علم أبيض ، فاستقبلها بعض الحراس ووجدوا بها ثلاثة رجال من الحجاب ؛ فسألوهم عن وجهتهم ؟ فقال كبيرهم : إنهم رسل الملك أبو فيس إلى الملك أحمس . وطير الحراس النبأ إلى الملك ؛ فعقد الملك مجلسا من حاشيته وقواده فى سرادقه ، وأمر بإدخال الرسل إليه . وجيء بالرجال يسيرون فى تواضع وانكسار وقد ذهبت عنهم الخيلاء والكبر وبدوا كأنهم من غير قوم أبو فيس ، وانحنوا بين يدى الملك وحياه كبيرهم قائلا :

ـــ حياك الرب أيها الملك .

فرد عليه أحمس قائلا :

ـــ وحياكم يا رسل أبو فيس ... ماذا يريد ملككم ؟

فقال الرسول :

ـــ أيها الملك ، إن رجل السيف مغامر ينشد النصر ولكن قد يدركه الموت . ونحن رجال حرب وقد مكنتنا الحرب من وطنكم فحكمناه قرنين أو يزيد كنا فيهما السادة المعبودين ، ثم قضى علينا بالهزيمة فغلبنا على أمرنا وأجبرنا على الاعتصام بقلعتنا ، ونحن أيها الملك رجال أشداء نقدر على تحمل الهزيمة كما قدرنا على جنى ثمار النصر ..

فقال أحمس غاضبا :

— أرى أنكم أدركتم ما يعنيه هذا المجرى الجديد الذى يحفره قومى فجئتم تستعطفون .

فهز الرجل رأسه الضخم وقال :

— كلا أيها الملك ، نحن لا نستعطف أحدا ولكنا نقر بالهزيمة ، وقد أرسلنى مولاى لأعرض عليك أمرين تختار منهما ما تشاء : فإما الحرب إلى النهاية ، وفى هذا الحال لن ننتظر وراء الأسوار حتى نموت جوعا وعطشا ، ولكنا سنقتل الأسرى من قومك وهم يزيدون على ثلاثين ألفا ، ثم نقتل نساءنا وأطفالنا بأيدينا ونحمل على جيشك فى ثلاثمائة ألف مقاتل ما منهم إلا كاره للحياة متعطش للانتقام .

وسكت الرجل ريثما يجمع أنفاسه ثم استدرك قائلا :

— وإما أن تردوا لنا الأميرة أمنريدس والأسرى من قومنا وتؤمنونا على أرواحنا وأموالنا ومتاعنا ، فنرد لكم رجالكم ونخلى هواريس ، ونولى وجوهنا شطر الصحراء التى جئنا منها ، تاركين لكم بلادكم كما تشاءون ؛ وبذلك ينتهى الصراع الذى استمر قرنين من الزمان .

وسكت الرجل ، فعلم الملك أنه ينتظر جوابه ، ولم يكن الجواب حاضرا ولا مما تسعف فيه البداهة ، فقال للرسول :

— هلا انتظرت حتى نقطع برأى ؟..

فقال الرسول :

— كما تشاء أيها الملك ، فقد أمهلنى مولاى نهار اليوم .

٢٨

واجتمع الملك برجاله فى مقصورة السفينة الفرعونية وقال لهم :

ـــ أشيروا على برأيكم ..

وكانوا جميعا على رأى بغير تشاور ولا اتفاق . فقال حور :

ـــ مولاى لقد انتصرت على الرعاة فى مواقع كثيرة وأقروا لك بالنصر ولأنفسهم بالهزيمة ، فمحوت بذلك آثار الهزائم التى ابتلينا بها فى ماضينا الأسيف ، وقتلت منهم خلقا كثيرين فانتقمت لقتلى قومك البائسين . فلا تثريب علينا الآن أن نشترى حياة ثلاثين ألفا من رجالنا ، ونوفر على أنفسنا بذلا للنفوس لا يدعو واجب إليه ، ما دام عدونا سيجلو عن بلادنا مغلوبا على أمره ، وسيحرر وطننا إلى الأبد .

وقلب الملك عينيه فى وجوه قومه فوجد منهم حماسة إجماعية لقبول الفكرة . وقد قال القائد ديب : لقد أدى كل جندى من جنودنا واجبه كاملا ، وإن ارتداد أبو فيس إلى الصحراء لهو أشد نكالا من ذوق الموت ...

وقال القائد محب :

ـــ إن هدفنا الأسمى تحرير الوطن من حكم الرعاة وإجلاؤهم عن ربوعه ؛ وقد يسر لنا الرب ذلك فلا يجوز أن نطيل عهد الذل باختيارنا .

وقال أحمس إبانا :

ـــ إننا نشترى حياة ثلاثين ألفا من الأسرى بالأميرة الأسيرة وشرذمة من الرعاة .

واستمع الملك من رجاله باهتمام شديد وقال :

ـــ نعم الرأى ، ولكنى أرى أن ينتظر رسول أبو فيس فترة أخرى حتى لا يظن إسراعنا إلى موافقته على الرأى السلمى لضعف أو ملل الكفاح .

وغادر الرجال السفينة وخلا الملك إلى نفسه ، وكان على توافر دواعى الابتهاج له كئيبا ضيق الصدر . لقد كلل كفاحه بالفوز المبين وجثا له عدوه الجبار ، ومن الغد يحمل أبو فيس متاعه ويفر إلى الصحراء التى جاء منها قومه خاضعا لإرادة القضاء الذى لا يرد . فما باله لا يفرح ولا يبتهج ؟ أو ما بال فرحه ليس صافيا وابتهاجه ليس كاملا ؟.. لقد حمت الساعة الخطيرة ، ساعة الوداع إلى الأبد . كان قبل تلك الساعة الخطيرة يائسا حقا ، ولكنها كانت هناك فى السفينة الصغيرة . فماذا يفعل غدا إذا رجع إلى قصر طيبة وحملت هى إلى بطن الصحراء المجهولة ؟ أيتركها تذهب دون أن يتزود منها بنظرة وداع ؟.. وأجاب قلبه أن لا . وحطم أغلال التجلد والكبرياء ، وقام واقفا وفارق المقصورة ، وأخذ زورقا إلى سفينة الأميرة الأسيرة وهو يقول لنفسه : « مهما يكن من استقبالها فسأجد ما أقوله » . وصعد إلى السفينة ومضى إلى المخدع فحياه الحراس وفتحوا له . واجتاز الباب خافق الفؤاد ، وألقى نظرة على المخدع الصغير البسيط فرأى الأسيرة جالسة فى الصدر على ديوان ، والظاهر أنها لم تكن تتوقع عودته فبدت على محياها الجميل الدهشة والإنكار . وتفحصها أحمس بنظرة عميقة فوجدها جميلة كعهده بها ، ورأى ملامحها كيوم حفرت فى قلبه على ظهر السفينة الفرعونية ، فعض شفته وقال لها :

— أنعمى صباحا أيتها الأميرة .

فرفعت إليه عينين لم تذهب منهما الدهشة وكأنها لا تدرى بماذا تجيب . ولم يطل انتظار الملك فقال بصوت هادئ وبلهجة لا تدل على شيء :

— أنت منذ اليوم طليقة أيتها الأميرة .

فلاح فى وجهها أنها لا تفهم شيئا ، فعاد يقول :

— ألا تسمعين ما أقول ؟ أنت منذ هذه الساعة طليقة حرة . انتهى أسرك أيتها الأميرة وأصبحت الحرية حقا لك .

فازدادت دهشتها ولاح الرجاء فى عينيها . فقالت بلهفة :

ــ أحق ما تقول ؟.. أحق ما تقول ؟

ــ إن ما أقول حق واقع .

فأضاء وجهها وتورد خداها ، ثم ترددت هنيهة وتساءلت :

ــ ولكن كيف كان ذلك ؟

ــ آه إنى أقرأ فى عينيك آمالك الطموح ، ألست تتمنين أن يكون انتصار أبيك هو الذى رد إليك حريتك ؟... إنى أقرأ هذا ، ولكنها هزيمته واأسفاه التى أنهت عبوديتك .

فعقلت لسانها و لم تنبس بكلمة . فأخبرهـا باقتضاب بما عرض عليه رسول أبيها وما تم الاتفاق عليه ، ثم قال وعما قليل تحملين إلى أبيك وترحلين معه إلى حيث يرحل ، فمبارك عليك هذا اليوم .

فاكتنفت وجهها ظلال الحزن وحمدت أساريرها وغضت طرفها ، فسألها أحمس :

ــ أتجدين حزنك للهزيمة أكبر من فرحك لحريتك ؟

فقال :

ــ يجدر بك ألا تشمت بى ، فسنغادر بلادكم كراما كما عشنا فيها كراما .

فقال أحمس بجزع ظاهر :

ــ لست أشمت بك أيتها الأميرة ، فقد ذقنا مرارة الهزيمة من قبل وعلمتنا الحروب الطويلة أن نشهد لكم بالشجاعة والبسالة .

فقالت بارتياح :

ــ شكرا لك أيها الملك ...

وسمعها لأول مرة تتكلم بلهجة خالية من الغضب والكبرياء ، فتأثر وقال لها وهو يبتسم ابتسامة حزينة :

ــ أراك تدعيننى ملكا أيتها الأميرة ؟

فقالت وهى تغض بصرها :

— لأنك ملك هذا الوادى دون شريك ، أما أنا فلن أدعى أميرة بعد اليوم .

فازداد تأثر الملك و لم يكن يتوقع أن تلين شكيمتها على هذا النحو .. ظن أنها تزداد بالهزيمة صلفا ، فقال بحزن :

— أيتها الأميرة ، إن ذكريات الدنيا سجل اللذة والألم ، وقد بلوتم الحياة حلوها ومرها ولا يزال أمامكم غد .

فقالت بطمأنينة عجيبة :

— نعم أمامنا غد وراء سراب الصحراء المجهولة ، وسنلقى حظنا ببسالة ...

ساد الصمت ، والتقت عيناهما ، فقرأ فى عينيها الصفاء والرقة ؛ فذكر صاحبة المقصورة التى أنقذت حياته من الموت وسقته رحيق المودة والحنان ، وكأنه يراها لأول مرة بعد ذاك العهد الطويل ، فزلزل فؤاده وقال بجد وجزع :

— عما قليل يفرق بيننا البين ولن تبالى ذلك ، ولكنى سأذكر دائما أنك كنت معى فظة غليظة ...

فلاح فى عينيها الحزن وافتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة وقالت :

— أيها الملك إنك لا تعرف عنا إلا القليل ... نحن قوم الموت أروح لنفوسهم من الهوان .

— لم أرد بك الهوان قط .. ولكن غرنى الأمل إدلالا بمنزلة كنت أظنها لى عندك .

فقالت بصوت خافت :

— أليس من الهوان أن أفتح ذراعى لآسرى وعدو أبى ؟..

فقال بمرارة :

— إن الحب لا يعرف هذا المنطق ...

فلاذت بالصمت ، وكأنها أمنت على قوله فتمتمت بصوت خافت لم يسمعه : « لا ألومن إلا نفسى » . ورنت بعينيها رنوا تائها ، وبحركة فجائية مدت يدها إلى وسادة فراشها وأخرجت من تحتها العقد ذا القلب الزمردى

ووضعته حول عنقها بهدوء واستسلام . وتتبعها بعينين لا تصدقان ، ثم ارتمى إلى جانبها غير متمالك ، وأحاط عنقها بذراعه وضمها إلى صدره بجنون وعنف ، ولم تقاومه ألبتة ، ولكنها قالت بحزن :

ـــ حذار ... لقد فات الأوان .

فاشتد ضغط ذراعيه حولها وقال بصوت متهدج :

ـــ أمنريدس .. كيف هان عليك أن تقولى هذا ؟.. بل كيف لا أكتشف سعادتى إلا حين وشك زوالها ؟.. كلا لن أدعك تذهبين .

فرنت إليه بعطف وإشفاق وقالت له :

ـــ وماذا أنت فاعل ؟

ـــ سأبقيك إلى جانبى ..

ـــ ألا تدرى بما يقتضيه بقائى إلى جانبك ؟.. هل تجود من أجلى بثلاثين ألف أسير من قومك وبأضعافهم من جنودك ؟

فعبس وجهه وأظلمت عيناه وتمتم قائلا وكأنه يحادث نفسه :

ـــ لقد استشهد أبى وجدى فى سبيل قومى ووهبتهم حياتى ، فهل يضنون على قلبى بالسعادة ؟

فهزت رأسها أسفا وقالت برقة :

ـــ أصغ إلى يا إسفينيس ، ودعنى أدعك بهذا الاسم العزيز لأنه أول اسم أحبه فى دنياى ، ما من الفراق بد .. سنفترق .. سنفترق .. فأنت لا ترضى بالجود بثلاثين ألف أسير من قومك الذين تحبهم ، ولا أنا أرضى بتقتيل أبى وقومى . فليتحمل كل منا نصيبه من الألم .

فنظر إليها بذهول وكأنه يأبى أن يكون كل نصيبه من الحب أن يرضى بالفراق وتحمل الألم ، وقال لها برجاء :

ـــ أمنريدس ، لا تتعجلى اليأس وأشفقى من ذكر الفراق . فإن جريه على لسانك فى يسر يبعث الجنون فى دمى .. أمنريدس .. دعينى أطرق جميع الأبواب

حتى باب أبيك ، فما يكون لو طلبت إليه يدك ؟.

فابتسمت ابتسامة حزينة وقالت وهي تمس يده برفق :

— واأسفاه يا إسفينيس أنت لا تعي ما تقول ، هل تظن أبي يقبل أن يزوج ابنته من الملك المظفر الذى قهره وقضى عليه بالنفى من البلاد التى ولد فيها وتربع على عرشها ؟.. أنا أعرف بأبى منك فليس ثمة فائدة ترجى ، وما من وسيلة سوى الصبر ...

وأصغى إليها ذاهلا وكان يتساءل : « أحق أن التى تتكلم بهذا الصوت الخافت المنكسر الحزين هى الأميرة أمنريدس التى لم تكن الدنيا تسعها جنونا واستهتارا وكبرا ؟ » . وبدا لعينيه كل شيء غريبا منكرا ، فقال بغضب :

— إن أصغر جندى من جنودى لا يهمل قلبه ولا يسمح لإنسان بأن يفرق بينه وبين من يحب .. » .

— أنت ملك يا مولاى ، والملوك أعظم الناس متعة وأثقلهم واجبا ، كالشجرة الباسقة أوفى من الحشائش نصيبا من شعاع الشمس ونسائم الهواء ، وأكثر تعرضا لثورة الريح واقتلاع الزوابع .

فأنّ أحمس قائلا :

— آه ما أشقانى .. لقد أحببتك منذ أول لقاء فى سفينتى ..

فخفضت عينيها وقالت ببساطة وصدق :

— وطرق الحب قلبى فى ذلك اليوم عينه ، ولكننى لم أكتشفه إلا فيما بعد . وتيقظت عواطفى ليلة أجبرك القائد رخ على مبارزته فدلنى إشفاق على دائى ، وبت ليلتى حائرة مضطربة لا أدرى ماذا أصنع بهذا المولود الجديد .. حتى غمرنى السحر بعد ذلك بأيام ففقدت وعيى .

— فى المقصورة ؟. أليس كذلك ؟

— نعم .

— أواه .. كيف تكون حياتى بدونك .

ـــ تكون كحياتى بدونك يا إسفينيس .

فضمها إلى صدره وألصق خده بخدها كأنه يخال أن التصاقهما ييئس منهما شبح الفراق الماثل أمامهما . وكان يكبر عليه أن يكتشف حبه ويودعه الوداع الأخير فى ساعة واحدة . وطرق كل سبيل من الفكر يبغى حلا فاعترضه اليأس والقهر ، وكانت غاية سعيه أن يشد حولها ذراعيه . وأحس كل منهما أنه آن أن ينفصلا ، ولكن لم يحرك أحدهما ساكنا فلبثا كشىء واحد .

٢٩

وغادر أحمس سفينة الأسيرة لا تكاد تحمله قدماه ، وكان ينظر إلى شيء فى كفه ويتمتم قائلا : « أهذا كل ما تبقى لى من حبى ؟. » . وكانت سلسلة العقد الزمردى هى التى تبقت له من حبه ، أهدتها إليه الأميرة تذكارا واحتفظت بالقلب لنفسها . وركب الملك عجلته ومضى إلى معسكر جيشه ، واستقبله رجاله وعلى رأسهم الحاجب حور وكان يختلس من مولاه نظرات قلقة مشفقة ، وقصد الملك إلى السرادق ودعا برسول أبو فيس وقال له :

ـــ أيها الرسول لقد درسنا بإمعان ما عرضته علينا . ولما كانت غايتى أن أحرر وطنى من سيطرتكم وهو ما رضيتم به ، فقد اخترت الحل السلمى حقنا للدماء . وستتبادل الأسرى فى الحال ، ولكننى لن آمر بالكف عن العمل حتى يغادر آخر رجل منكم هواريس ، بذلك تطوى هذه الصفحة السوداء فى تاريخ بلادى .

فأحنى الرسول رأسه وقال :

ـــ نعم الرأى الذى رأيت أيها الملك ، فإن الحرب إذا لم تكن لغاية تستوجبها صارت تقتيلا وتذبيحا .

فقال أحمس :

ـــ الآن سأترككم لتبحثوا معا فى تفاصيل التبادل والإجلاء .

وقام الملك فقام الجميع وقوفا وانحنوا له إجلالا ، فحياهم بيده وغادر المكان .

٣٠

وفى مساء ذلك اليوم تم تبادل الأسرى ؛ ففتح باب من أبواب هواريس وخرجت منه جماعات الأسرى نساء ورجالا ، وكانوا يهتفون لمليكهم مسرورين ويلوحون بأيديهم ، وذهب الأسرى الرعاة وعلى رأسهم الأميرة أمنريدس إلى المدينة فى سكون ووجوم .

وفى غداة اليوم الثانى بكر أحمس وحاشيته إلى هضبة قريبة تشرف على أبواب هواريس الشرقية ليشهدوا خروج الرعاة من آخر مدينة مصرية ، وكانوا لا يخفون جذلهم ، وتتألق وجوههم بنور الفرح والابتهاج ، وكان القائد محب يقول :

ـــ عما قليل يأتى حجاب أبو فيس بمفاتيح هواريس ليسلموها إلى جلالة الملك ، كما أسلمت مفاتيح طيبة إلى أبو فيس قبل أحد عشر عاما .

وجاء الحجاب كما قال القائد محب ، وقدموا إلى أحمس صندوقا من خشب الأبنوس رصت به مفاتيح هواريس ، فتسلمه الملك وأعطاه حاجبه الأكبر ، ورد تحية الرجال الذين عادوا من حيث أتوا فى سكون وصمت .

ثم فتحت الأبواب الشرقية على مصاريعها فدوى صريرها فى جنبات الوادى ، فتطلع أصحاب الهضبة صامتين . وبرزت أولى جماعات الخارجين ، وكانت من الفرسان المدججين بالسلاح قدمها أبو فيس لاستطلاع الطريق المجهول ، وتبعتها جماعات النساء والأطفال يمتطين متون البغال والحمير وبعضهن يحملن فى الهوادج ، وقد استغرق خروجهن ساعات طويلة . ثم بدا ركب عظيم تحيط به الفرسان من رجال الحرس تتبعه عربات كثيرة تجرها الثيران ، فعلم الناظرون أنه أبو فيس وآل بيته ، وقد خفق فؤاد أحمس لمرآه وقاوم دمعة حرى

أحس انتزاعها من حناياه ، وتساءل : ترى فى أى مكان هى ؟ وهل تجد فى البحث عنه كما يجد فى البحث عنها ؟.. وهل تذكره بمثل ما يذكرها به ؟.. وهل تكتم دمعها كما يكتم دمعه ؟ وتابع الركب بناظريه لا يلتفت إلى الجنود المتدفقة على أثره من جميع الأبواب ، وما زال يتبعهم ببصره وفؤاده ويحوم حولهم بروحه حتى غيبهم الأفق وابتلعهم الغيب ...

واستيقظ الملك على صوت حور وهو يقول :

— فى هذه الساعة الخالدة تسعد روح مليكنا سيكننرع وبطلنا المجيد كاموس ، ويكلل كفاح طيبة التى لا تعرف اليأس بالفوز المبين .

ودخل جيش الخلاص هواريس الجبارة واحتل أسوارها المنيعة ، وبات فيها حتى فجر الغداة ، وزحف أحمس بفرقة العجلات شرقا تتقدمه طلائعه فدخل تنيس ودفنى ، وهناك جاءته العيون وهنأته بجلاء آخر رجل من الرعاة عن أرض مصر . فعاد الملك إلى هواريس ، وأمر أن يصلى الجيش صلاة جامعة للرب آمون ؛ وانتظمت الفرق المختلفة وعلى رأس كل فرقة ضباطها وقائدها ، وعلى رأس الجميع الملك وحاشيته ، ثم جثوا جميعا فى خشوع وصلوا للرب صلاة حارة . وختم أحمس صلاته بأن دعا ربه قائلا :

— أحمدك وأشكر لك أيها الرب المعبود ، فقد وصلت جناحى وثبت قلبى ، وأكرمتنى ببلوغ الغاية التى استشهد فى سبيلها جدى وأبى ، فاللهم ألهمنى الصواب وأيدنى بالعزم والأمان لأضمد جراح شعبى ، واجعله خير عابد لخير معبود ..

ثم دعا أحمس رجاله إلى الاجتماع به فلبوا سراعا ، فقال لهم :

— اليوم تنتهى الحرب فيجب أن نغمد سيوفنا ، ولكن الكفاح لم ينته أبدا . وصدقونى أن السلام أكبر من الحرب حاجة إلى يقظة النفوس وتوثب العزائم ، فأعيرونى قلوبكم لنبعث مصر بعثا جديدا .

ونظر الملك فى وجوه رجاله قليلا ثم استطرد :

— وقد رأيت أن أبدأ كفاح السلام باختيار أعوانى المخلصين : لذلك أعهد إلى حور بالوزارة .

وقام حور إلى مولاه وجثا أمامه وقبل يده ، فقال الملك :

— وأرى أن سنب خير خلف لحور فى قصرى . أما ديب فهو رئيس الحرس الفرعونى .

ونظر الملك إلى محب وقال :

— وأنت يا محب قائد جيشى العام .

ثم التفت إلى أحمس إبانا وقال :

— وأما أنت فقائد الأسطول ، وسترد إليك ضياع أبيك القائد الباسل بيبى .

ووجه الملك كلامه إلى الجميع قائلا :

— والآن عودوا إلى طيبة عاصمة ملكنا ليؤدى كل واجبه .

وتساءل حور قلقا :

— ألا يعود فرعون على رأس جيشه إلى طيبة ؟

فقال أحمس وهو يهم قائما :

— بل ستقلع بى سفينتى إلى دابور لأزف بشرى النصر إلى أسرتى ثم أعود معها إلى طيبة ، فندخلها جميعا كما تركناها جميعا ...

— ٢٢٧ —

— لن تجدى المقاومة فتيلا بعد اليوم ، ولعل أبو فيس يجد الآن فى طلب هواريس ليحتمى بأسوارها المنيعة .

ولم يأسف أحمس طويلا ، وكان سروره بفتحه بلدا من بلاد مصر التى حرم دخولها على قومه مائتى عام لا يعادله سرور ، فاشتغل بتفقد أحوالها وأهليها عن كل شىء ..

٣١

وأقلعت السفينة الفرعونية فى حراسة ثلاث سفن حربية ، وكان أحمس ملازما المقصورة ينظر إلى الأفق البعيد بوجه جامد وعينين غارقتين فى الحزن والأسى .. واستغرقت الرحلة أياما ثم لاحت دابور الصغيرة بأكواخها المتناثرة ، ورسا الأسطول على شاطئها عند الأصيل ، وغادره الملك وحرسه فى ثيابهم الجميلة فجذبوا الأنظار وهرع إليهم جمع من النوبيين ، وساروا بين أيديهم إلى بيت الحاكم رؤوم . وذاع فى المدينة أن رسولا فرعونيا كبيرا جاء يزور أسرة سيكننرع ، وسبق الخبر الملك إلى بيت الحاكم ، فلما شارفه رأى الحاكم والأسرة الفرعونية فى فناء القصر ينتظرون . وطلع الملك عليهم ، فعقدت الدهشة والفرح ألسنتهم ، وجثا رؤوم على ركبتيه ، وصاح الجميع صيحة الفرح والسرور وهرعوا إليه . وكانت أسبقهم الملكة الصغيرة نيفرتارى ؛ فقبل خديها وجبينها ونظر فرأى أمه الملكة ستكيموس مادة ذراعيها، فضمها إلى صدره وأسلم لها خديه تقبلهما بحنان وكانت جدته الملكة أحوتبى تنتظر دورها ؛ فدنا منها وقبل يديها وجبينها . وأخيرا رأى توتيشيرى .. أخيرة القوم وأعزهم ، توتيشيرى التى كللها المشيب وأذبل خديها الكبر ، فخفق قلبه وأحاطها بذراعيه وهو يقول :

ــ أماه وأم الجميع ...

فلثمته بشفتيها النحيلتين وقالت وهى ترفع إليه عينيها :

ــ دعنى أنظر إلى صورة سيكننرع الحية .

فقال أحمس :

ــ اخترت يا أماه أن أكون الرسول الذى يبشرك بالفوز العظيم ، فاعلمى يا أماه أن جيشنا الباسل نال النصر المبين وهزم أبو فيس وقومه وطردهم إلى

الصحراء التى جاءوا منها وحرر مصر جميعا من عبوديتهم ، فحق وعد آمون وطابت نفس سيكننرع وكاموس ...

فتهلل وجه توتيشيرى وومضت عيناها الكليلتان وقالت بفرح :

ـــ اليوم يفك أسرنا ونعود إلى طيبة فأجدها كعهدى بها مدينة المجد والسيادة ، وأجد حفيدى على عرش سيكننرع يصل ما انقطع من حياة أمنمحيت المجيدة .

وجاءت وصيفة الملكة السيدة راى تحمل ولى العهد بين ذراعيها ، فانحنت للملك وقالت :

ـــ مولاى قبل طفلك الصغير وولى عهدك أمنحتب ..

فلانت نظرة عينيه ودرت حناياه حنانا دفاقا ، وأخذ الصغير بين ذراعيه وأدناه من فمه حتى التصقت به شفتاه المشوقتان ، وابتسم أمنحتب إلى أبيه وعابثه بيديه الصغيرتين ...

ثم دخلت الأسرة الفرعونية الدار تشملها السعادة والطمأنينة ، فخلصوا إلى أنفسهم يتسامرون ويتذاكرون أيامهم ..

٣٢

وحمل الجنود متاع الأسرة إلى السفينة الفرعونية ، ثم انتقل الملك وآله إليها وخرج لوداعهم الحاكم رؤوم وأعضاء حكومته وأهالى دابور جميعا . وقبل أن ترفع السفينة مراسيها ، دعا أحمس رؤوم وقال له على مسمع من رجاله :

ــ أيها الحاكم الأمين ؛ أوصيك خيرا بالنوبة وأهل النوبة ، فالنوبة كانت مهجرنا حين ضاقت بنا الدنيا ، ووطننا إذ لا وطن لنا ، ومأوانا حين عز النصير ومات الصديق ، ومدخر عتادنا وجنودنا لما دعا الداعى إلى الكفاح . فلا تنس صنيعها ، ولتكن منذ اليوم مصر الجنوب لا نحرمها شيئا نتمناه لنفسنا ونذود عنها ما نكره لها ..

ثم أقلعت السفينة وأقلعت وراءها سفن الحراسة تشق طريقها نحو الشمال تحمل قوما تهفو نفوسهم إلى مصر وأهلها .. وبلغت السفينة حدود مصر بعد رحلة قصيرة ، فاستقبلت استقبالا رائعا ، وخرج إليها رجال الجنوب فى سفينة الحاكم شاو ، وأحاطت بها زوارق الأهالى يهتفون ويغنون . وصعد إلى سطحها شاو وكهنة بيجة وبلاق وسيين وعمد القرى وشيوخ البلاد فسجدوا للملك واستمعوا إلى نصائحه . ثم انحدرت السفينة نحو الشمال يستقبلها الأهلون على الشطئان وتطوف بها القوارب ويصعد إلى سطحها عند كل بلدة الحكام والقضاة والعمد والأعيان . وما زالت السفينة تجد فى السير حتى انقشعت ظلمة الفجر ذات صباح فى الأفق البعيد عن أسوار طيبة العالية وأبوابها الضخمة وجلالها الخالد ، وهرعت الأسرة من المخادع إلى مقدم السفينة عالقة أبصارهم بالأفق ، ويتجلى فى نظراتهم الحنين والوجد ، وتفيض أعينهم بدمع الشكران ، وتغمغم شفاههم فى صوت خافت : « طيبة .. طيبة » . وقالت الملكة أحوتبى بصوت

متهدج :

— رباه .. ما كنت أتصور أن يقع بصرى مرة أخرى على هذه الأسوار ..

وجعلت السفينة تقترب من جنوب طيبة فى ريح مؤاتية حتى استطاعوا أن يروا جموعا من الجنود وكبار القوم على الشاطىء ينتظرون ، فعلم أحمس أن طيبة تزجى أولى تحياتها لمخلصها ، فعاد إلى المقصورة تتبعه أسرته وجلس على العرش وجلسن حوله . وأدى الجنود التحية العسكرية للسفينة الفرعونية ، وصعد إلى سطحها رجال طيبة ؛ وعلى رأسهم رئيس الوزراء حور ، والقائدان محب وأحمس إبانا ، ورئيس الحرس الفرعونى ديب ، وكبير الحجاب سنب ، وحاكم طيبة توتى آمون . ثم كاهن طاعن فى السن محترق الشعر شيبا يتوكأ على صولجانه ويسير بخطى وئيدة منحنى القامة . وسجد الرجال جميعا لفرعون وقال له حور :

— مولاى محرر مصر ومخلص طيبة وقاهر الرعاة ، فرعون مصر وسيد الجنوب والشمال ، إن طيبة جميعا فى الأسواق تنتظر على شوق ولهفة مقدم أحمس ابن كاموس بن سيكننرع وأسرته المجيدة لتقرئهم جميعا أحر ما جمعت عليه صدرها من التحية والسلام ..

فابتسم أحمس وقال :

— حياكم الرب أيها الرجال المخلصون ، وحيا طيبة المجيدة مبدئى وغايتى ..

وأومأ حور إلى الكاهن الجليل وقال :

— مولاى .. ائذن لى أن أقدم إلى جلالتك نوفر آمون الكاهن الأكبر لمعبد آمون .

فنظر إليه أحمس باهتمام ، ومد له يده مبتسما وقال برقة :

— يسرنى أن أراك أيها الكاهن الأكبر ..

فلثم الكاهن يده وقال :

— مولاى فرعون مصر وابن آمون ، مجدد حياة مصر ومحيى سير الأعظمين

من ملوكها . لقد كنت يا مولاى آليت على نفسى ألا أبرح حجرتى ما دام فى مصر رجل من الرعاة الأشائم الذين أذلوا طيبة وقتلوا سيدها المجيد ، وأهملت نفسى فغزر شعر رأسى وجسدى ، وقنعت من الدنيا بلقمات أتبلغ بها وجرعات من الماء القراح كى أشارك قومنا فيما ابتلوا به من القذارة والجوع ، وما زلت حتى قيض الله لمصر ابنه أحمس ، فحمل على عدونا حملة صادقة ومزق شمله وطرده من بلادنا ، فعفوت عن نفسى وأطلقت سراحى ، لأستقبل الملك المجيد وأدعو له ..

فابتسم الملك إليه ، واستأذن الكاهن فى السلام على الأسرة فأذن له ، فقصد إلى توتيشيرى وسلم عليها ، وعدل إلى الملكة أحوتبى وكان من المقربين إليها على عهد سيكنرع ، ثم قبل ستكيموس ونيفرتارى ، ثم قال حور لمولاه .

ـــ مولاى : إن طيبة تنتظر مولاها ، والجيش مصطف فى الطرق ، ولكن لكاهن آمون الأكبر رجاء .

فسأل أحمس قائلا :

ـــ وما رجاء كاهننا الأكبر ؟

فقال الكاهن باحترام :

ـــ أن يتفضل مولاى بزيارة معبد آمون قبل أن يذهب إلى القصر الفرعونى .

فقال أحمس مبتسما :

ـــ يا له من رجاء فى تحقيقه الغنم والسعادة .

٣٣

وغادر أحمس السفينة تتبعه الملكات ورجال مملكته ، فاستقبله ضباط وجنود ممن جاهدوا معه منذ اليوم الأول ، فرد الملك تحيتهم . وصعد إلى هودج فرعونى جميل ، واعتلت الملكات هوادجهن ، ورفعت الهوادج وتقدمتها فرقة من الحرس الملكى ، وسارت وراءها عجلات الحاشية تتبعها فرقة أخرى من الحرس الملكى ، وتقدم الموكب الملكى نحو باب طيبة الجنوبى الوسيط ، وكان مزينا بالأعلام والأزهار ، يصطف على جانبيه الجنود الأشداء الذين اقتحموه بالأمس القريب ..

اجتازت الهوادج الفرعونية باب المدينة بين صفين من الرماح الشاكية ، وقد نفخ فى الأبواق حرس الأسوار ، وتساقطت على الداخلين الأزهار والرياحين . ونظر أحمس فيما حوله فرأى منظرا عجبا يذهل النفوس الرصينة ، رأى أهل مصر جميعا فى نظرة واحدة ، رأى أجسادا تحجب السبل والجدران والمنازل ، بل رأى أرواحا خالصة من العبادة والحب والحماسة . وضج الجو بالهتاف المتصاعد من القلوب ، وفتن الناس لرؤية الأم المقدسة فى مهابة الشيخوخة وجلال الكبر ، وحفيدها الباسل فى عنفوان القوة والشباب . وشق الركب طريقه كأنما يخوض بحرا لجيا عبابا ، تتعلقه الأنفس والأبصار ، فقطع السبيل إلى معبد آمون فى ساعات ..

وعلى باب المعبد استقبل الملك وأسرته كهنة آمون ، ودعوا له طويلا وساروا بين يديه إلى بهو الأعمدة ، حيث قدمت القرابين على المذبح . وأنشد الكهنة نشيد الرب بأصوات رخيمة عذبة لبثت تتردد فى القلوب فترة طويلة ، ثم قال الكاهن الأكبر للملك :

ـــ مولاى ائذن لى فى الذهاب إلى قدس الأقداس لإحضار أشياء ثمينة تهم جلالتكم .

فأذن له الملك ، ومضى الرجل ومعه نفر من الكهنة وغابوا زمنا يسيرا ، ثم ظهر الكاهن مرة أخرى يتبعه الكهنة يحملون تابوتا وعرشا وصندوقا من الذهب ، فوضعوها جميعا أمام الأسرة الفرعونية باحترام وإجلال ، وتقدم نوفر آمون حتى وقف أمام أحمس ، وقال بصوت ساحر نفاذ :

ـــ مولاى ، إن ما أعرض على أنظاركم لهى أنفس مخلفات المملكة المقدسة ، عهد بها إلى لاثنى عشر عاما خلت القائد الباسل الخالد الذكر بيبى لتكون فى مأمن من أن تصل إليها يد العدو الجشع . أما التابوت فهو تابوت الملك الشهيد سيكننرع يحفظ جثته المحنطة التى اشتملت أكفانها على جروح بالغة سجل كل جرح منها صفحة خالدة للبسالة والتضحية ، وأما العرش فهو عرشه المجيد الذى أدى حقه وأعلن عليه كلمة طيبة الأبية التى آثرت الابتلاء بأهوال الكفاح على السكون إلى ذل السلامة .

وأما هذا الصندوق الذهبى فيحتوى على تاج مصر المزدوج ، تاج تيمايوس آخر ملوكنا الذين حكموا مصر المتحدة ، وكنت أهديته لسيكننرع وهو خارج لقتال أبو فيس ، فخاض غمار المعركة وهو على رأسه الكريم ، ودافع عنه الدفاع الذى يعرفه جميع أهل الوادى .. هذه يا مولاى ودائع بيبى المقدسة ، أحمد الرب أن مد فى عمرى حتى رددتها إلى أصحابها ، دامو للمجد ودام لهم ..

وتحولت أبصار الجميع إلى التابوت الفرعونى ، ثم سجدوا جميعا وفى مقدمتهم الأسرة الفزعونية وصلوا خاشعين ..

ودنا الملك وأسرته من التابوت وأحاطوا به ، وكان الصمت يشملهم جميعا ولكن خاطبت التابوت قلوبهم وسرائرهم ، وأحست توتيشيرى لأول مرة تخاذلا وخورا ، فاستندت إلى ذراع الملك وقد حجبت مدامعها عن ناظريها التابوت المحبوب ، وعزم حور على أن يرقأ دمع الأم المقدسة ويسكن آلام قلبها ، فقال

لنوفر آمون :

ـــ أيها الكاهن الأكبر ، احتفظ بهذا التابوت فى قدس الأقداس حتى يودع فى مقبرته باحتفال مهيب يليق بمقام صاحبه ..

فاستأذن الكاهن مولاه وأمر رجاله برفع التابوت إلى مثوى الرب المعبود ، وفتح الكاهن الصندوق واستخرج منه تاج مصر المزدوج ، ودنا من أحمس فى إجلال وتوج به رأسه الجعد ، ورأى القوم ما فعل الكاهن فهتفوا جميعا : « يعيش فرعون مصر » ..

ودعا نوفر آمون الملك والملكات إلى زيارة المثوى المقدس فساروا جميعا ، وكانت توتيشيرى ما تزال تتوكأ على ذراع أحمس ، واجتازوا العتبة المقدسة التى تفصل بين الدنيا والآخرة ، وسجدوا للرب المقدس ولثموا الستائر المسدلة على تمثاله ، وصلوا صلاة الشكر والحمد أن هيأ لهم الفوز وردهم إلى وطنهم ظافرين ..

وغادر الملك إلى هودجه وكذلك الملكات ، وحمل العرش على عربة كبيرة ، واستأنف الموكب سيره إلى القصر بين الجموع الهاتفة الداعية ، المهللة المكبرة ، الملوحة بالأغصان الناثرة الزهور ، فبلغوا القصر القديم عند الأصيل ، وكان التأثر قد بلغ من نفس توتيشيرى مبلغا كبيرا فاشتد خفقان قلبها واضطربت أنفاسها ، فحملت فى هودجها إلى جناحها الملكى ، ولحقت بها الملكات والملك ، وجلسوا بين يديها قلقين ، ولكنها استعادت هدوءها وعادت بقوة إرادتها وإيمانها فاستوت جالسة ونظرت فى الوجوه الحبيبة بحنان وقالت بصوت ضعيف :

ـــ معذرة يا أبنائى ، لقد خاننى قلبى لأول مرة ، ولشد ما تحمل هذا القلب ولشد ما صبر ، فدعونى أقبلكم جميعا ، ففى مثل سنى يعجل بلوغ الأمل بالنهاية ..

٣٤

وجاء المساء وخيم الليل وطيبة لا يعرف النوم إلى أجفانها سبيلا ، فلبثت ساهرة تلوح المشاعل فى طرقاتها وضواحيها ، ويجتمع الناس فى ميادينها ينشدون ويهتفون ، وتسجع ديارها بالأغانى والألحان . فى تلك الليلة لم ينم أحمس على ما به من تعب ونصب . ونبا به الفراش فخرج إلى الشرفة المطلة على حديقة القصر الفيحاء ، وجلس على أريكة وثيرة فى ضوء مصباح خافت ، وساحت روحه فى الظلام الجاثم ، وكانت أنامله تعبث بسلسلة ذهبية بحنو وإشفاق ، ينظر إليها بين الفينة والفينة كأنما يستمد منها أفكاره وأحلامه ..

ولحقت به على غير انتظار الملكة الشابة نيفرتارى وكان الفرح ينفى الكرى عن عينيها ، فظنت أن زوجها فى مثل سرورها ، فجلست إلى جانبه جذلة منشرحة الصدر ، وانعطف الملك إليها مبتسما فوقع بصرها على السلسلة فى كفه فتناولتها بدهشة وقالت :

ـــ أهذا عقد ؟.. ما أجمله .. ولكنه مبتور .

فقال وهو يجمع أشتات فكره :

ـــ نعم .. فقد قلبه .

ـــ واأسفاه .. وأين فقد ؟

فقال :

ـــ لا أدرى إلا أنه ضاع على غير إرادتى ..

فنظرت إليه بمودة وسألته :

ـــ أكنت تنوى أن تهديه إلىّ ؟

فقال :

— إنى أدخر لك ما هو أثمن منه وأجمل .

فقالت :

— فكيف تأسف عليه إذن ؟

فقال وهو يجهد أن يخرج صوته طبيعيا هادئا :

— إنه يذكرنى بأيام الكفاح الأولى ، حين خرجت أطلب طيبة متخفيا فى ثياب التجار داعيا نفسى إسفينيس ، فكان فيما أعرض على الناس للشراء .. فيا للذكرى الجميلة .. نيفرتارى ، أود أن تدعونى إسفينيس ، فهو اسم أحبه وأحب عهده وأحب من يحبه ..

وأدار الملك وجهه ليخفى ما ارتسم عليه من التأثر والحنين . فابتسمت الملكة بسرور ، ولاحت منها نظرة إلى الأمام فرأت على البعد ضوء مشعل يتحرك فى بطء ، فقالت وهى تشير بيدها :

— انظر إلى هذا المشعل ..

فألقى أحمس بصره إلى حيث تشير ، ثم قال :

— هذا مشعل فى قارب يسبح قريبا من الحديقة ..

وكأن صاحب القارب تعمد أن يدنو من حديقة القصر ليسمع أهله القادمين جمال صوته ، فيحييهم وحده بعد أن حيتهم طيبة جميعا ، فرفع عقيرته متغنيا فى سكون الليل يردد سجعه مزمار :

« كم رقدت فى غرفتى منذ سنين »

« أعانى ألم داء وجيع »

« فعادنى الأهل والجيران »

« وزارنى العرافون والأطباء »

« فأعيا الداء أطبائى »

« حتى جئت أنت يا حبيبى »

« فبرع سحرك الطب والرق »
« لأنك أنت تعرف سر دائى »

وكان صوته جميلا يأخذ السمع ، فأنصت أحمس ونيفرتارى ، وكانت الملكة ترنو إلى ضوء المشعل بعطف وحنان ، وكان الملك ينظر إلى ما بين قدميه بعينين شبه مغمضتين ، تنوح فى قلبه الذكريات ..

(تمت)

كلمة الناشر

تعرفت بالأستاذ نجيب محفوظ ــ أول معرفتى به ــ سنة ١٩٤٣ م ؛ ذلك أن شقيقى الأديب الراحل عبد الحميد جودة السحار ، حضر إلىّ فى المكتبة التى أملكها ــ مكتبة مصر بالفجالة ــ وبصحبته شاب فى مثل سنّه ، فى حوالى الثلاثين من عمره ، وقدّمه إلىّ باسمه « نجيب محفوظ »[١] ، وقال لى : إنه يحمل معه رواية من تأليفه يرجو أن أقوم بطبعها ونشرها له .

وقدّم إلىّ نجيب محفوظ روايته « رادوبيس » ، وهى ليست أول رواية يكتبها ؛ فقد كتب قبلها رواية « عبث الأقدار » ، وكان قد طبعها ونشرها له الأستاذ سلامة موسى .

أخذت منه الرواية ، ووعدت أن أبدى فيها رأيى بعد يومين .

وقرأت رواية « رادوبيس » فذهلت ! فهى مكتوبة بلغة عربية رصينة وبليغة ، وتختلف عن كل الروايات العربية التى ظهرت حتى ذلك الوقت ؛ فحوادثها شائقة ، محبوكة بمهارة عجيبة وأستاذية مقتدرة ، وتحكى قصة غرام الفرعون ، أو الملك مرنرع الثانى بالراقصة الفاتنة رادوبيس ، واستيلائه على أملاك المعابد وأموال الكهنة ، وإنفاقها على نزواته الخاصة فى بذخ شديد ، حتى أطلق عليه الشعب لقبَ « الملك العابث » . وقد انتهت الرواية بقتل الملك بسهم أطلقه عليه أحدُ أفراد الشعب .

والشيء بالشيء يُذكَر ؛ فقد رأى أعوان الملك فاروق ــ فيما بعد ــ أن

---

(١) قال لى شقيقى عبد الحميد : إن والدة نجيب محفوظ تعسرت فى ولادته تعسراً شديداً ، وأن الفرج جاء على يدَى الطبيب المعروف د . نجيب محفوظ ، وأنها أطلقت على وليدها اسم نجيب محفوظ ، تيمناً به .

بالرواية تعريضاً مقصوداً بالملك فاروق ، حيث كان الشعب فى مصر يطلق عليه كذلك لقب « الملك العابث » ، وأن فيها دعوة إلى الخلاص منه بقتله .

ولما حضر نجيب محفوظ ليعرف رأيى فى الرواية ، أبديت له استعدادى ، بل وترحيبى بطبعها ونشرها .

واعترضتنى عندئذ مشكلة الحصول على الورق الذى تطبع عليه الرواية ، فقد كانت الحرب العالمية الثانية فى عنفوانها ، والورق معدوم تماماً من السوق .

ومهما يكن من أمر ، فقد حصلت على كمية من الورق من الجيش البريطانى ، وطبعت عليه الرواية — ٥٠٠ نسخة فقط — بناء على نصيحة نجيب محفوظ ، الذى كان يخشى أن يعرضنى للخسارة ، بألا تستوعب السوق عدداً أكبر .

وأخيراً وضعَت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وساد السلام ، ونشرنا لنجيب محفوظ روايات وقصصَ همس الجنون ، كفاح طيبة ، خان الخليلى ، القاهرة الجديدة ، زقاق المدق ، السراب ، بداية ونهاية ؛ طبعنا منها أعداداً تتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف . وقد أعيد طبع كل منها حتى الآن ست عشرة طبعة أو يزيد .

* * *

حتى كان يوم من سنة ١٩٥٦ م ، إذ فوجئت بنجيب محفوظ يحضر إلى المكتبة يحمل على ذراعه كمية ضخمة من الأوراق — أكثر من ألف فرخ فولسكاب — وطلب منى أن أطبعها وأنشرها له فى كتاب واحد .

وكانت هذه الأوراق تحتوى على ثلاثية نجيب محفوظ .

وكان نجيب قد عرض ثلاثيته على الدكتور طه حسين ليقرها ويبدى رأيه فيها ، فنشر عنها بحثا مطوَّلًا فى جريدة الأهرام ، بشَّر فيه بمولد روائى كبير فى الأدب العربى ، بل مولد رائد فن كتابة الرواية العربية الحديثة .

وكان رأيى أنَّ طبع الرواية فى كتاب واحد ، يحدّ من بيعها على نطاق واسع ،

واقترحت أن تُطبع فى ثلاثة أجزاء ، فوافق نجيب على رأيى .

وفعلًا ظهرت الثلاثية فى ثلاثة كتب هى : بين القصرين ، وقصر الشوق ، والسكريَّة .

وبظهور هذه الكتب اتسعت شهرة نجيب محفوظ كأعظم روائى فى مصر ، بل فى العالم العربى كله .

وتنحصر عبقرية نجيب محفوظ فى أن شخصيات قصصه ورواياته هى من واقع الحياة فى الأحياء الشعبية بخاصة ، التى عاش طفولته يرتع بين ربوعها ، وقضى فترات كثيرة من شبابه وكهولته وهو يتردد على شوارعها وحاراتها وأزقتها ، يعاشر ناسها .. يكلمهم ويستمع إليهم ، وفى نفس الوقت يغوص فى أعماقهم ويدرس طباعهم ، ثم يصور ما ينطبع فى نفسه من كل ذلك فى كتاباته .

وإن كتابات نجيب محفوظ تتميز بميزة فريدة ، فهو يصغى بإمعان إلى كل من يحادثه ، ويهتم بكل ما يُروَى أمامه ، سواء أكان حكاية غريبة ، أو قولًا طريفاً ، أو نكتة ظريفة ، فيحفظ ذلك فى ذاكرته جيداً ، حتى إذا عاد إلى منزله أسرع بتدوينه حتى لا يضيع منه أو ينساه ، ثم يفيد منه بعد ذلك فى كتاباته ، حيث يظهر فى المكان والزمان المناسبين له .

وبعد الثلاثية تلا حصاد وافر من القصص والروايات ، ولا يزال نجيب محفوظ ـ مدَّ الله فى عمره ـ يتدفق عطاؤه للمكتبة العربية .

وإن حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل العالمية فى الآداب هو اعتراف بقيمة الأدب العربى بين الآداب العالمية ، ولو أن هذا التقدير جاء متأخراً عن موعده خمسة وعشرين سنة .

سعيد جودة السحار

رقم الإيداع ٢٩٠٣
الترقيم الدولى : ٤ ــ ٠٥٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧